

موجز

تاريخ الأندلس

من الغنم الإسلامي إلى سقوط غرناطة

(٩٢ - ٨٩٢ هـ / ٧١١ - ١١٩٢ م)

مكتور

طه عبد المقصود عبد الحميد غيبة

قسم التاريخ الإسلامي والمطابقة الإسلامية

كلية دار العلوم جامعة القاهرة

موجز

تاريخ الأندلس

من الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة

(٩٢ - ٨٩٧ هـ / ٧١١ - ١٤٩٢ م)

دكتور

طه عبد المقصود عبد الحميد عبّية

قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية دار العلوم جامعة القاهرة



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله فاتحة كل خير، وتمام كل نعمة.

﴿رَبَّنَا عَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾

سورة الكهف - الآية ١٠



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله. وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. اللهم صل على محمد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وآل بيته كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد. وبعد:

فهذا عرض موجز لتاريخ المسلمين في الأندلس (إسبانيا والبرتغال الآن) منذ الفتح الإسلامي (عام ٩٢ هـ / ٧١١ م) حتى سقوط غرناطة (عام ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م) أى قرابة ثمانية قرون، وهى فترة طويلة كانت مفعمة بالأحداث الجسام، وشهدت الأندلس خلالها حروباً متصلة بين المسلمين والإسبان، وثورات لا تتقطع، طلباً للملك والسلطان، ودولاً تقوم ثم تسقط، ومحاولات دائبة من "إسبانيا" النصرانية لغزو الأراضى الإسلامية انتهت بالقضاء تماماً على دولة الإسلام فى شبه الجزيرة الإيبيرية، وطُرد منها المسلمون فلم يعد لهم ذكر هناك، تاركين وراءهم حضارة زاهرة لا تزال آثارها شاهدة على ما بلغت من رقي وازدهار.

وقبل البدء فى تناول الخطوط العامة والمعالم الرئيسة للتاريخ الأندلسى - السياسى والحضارى - نرى من الضرورى أن نلّم - سريعاً - بعدد من المقدمات أو المداخل وهى:

- ١- مصطلح "الأندلس" ومدلوله.
 - ٢- لمحة جغرافية عن شبه الجزيرة الإيبيرية.
 - ٣- إسبانيا قبل الفتح الإسلامى.
 - ٤- العهود الإسلامية التى مرت بها الأندلس.
- أولاً: مصطلح الأندلس ومدلوله^(١):

تطلق كلمة "الأندلس" على الأجزاء التى سيطر عليها المسلمون فى شبه الجزيرة الإيبيرية، وظلت تطلق على ما فى أيديهم حتى عندما انحصر وجودهم فى مدينة "غرناطة" وحدها.

(١) لمزيد من التفاصيل راجع : التاريخ الأندلسى للدكتور عبد الرحمن الحجى ص ٣٧ - ٣٨، معالم تاريخ المغروب والأندلس للدكتور حسين مؤنس ص ٢٢٨، دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة للدكتور الطاهر مكى ص ٢٨-٢٩، المسلمون فى الأندلس للدكتور عبد الله جمال الدين (موسوعة سفير ج ٧ ص ٥).

وتعود كلمة "الأندلس" في أصولها إلى كلمة "الوندال" أو "الفاندال" أو "فندالوشيا"^(١) وهي تعنى مجموعة القبائل الجرمانية التى غزت "إيبيريا" - أو هاجرت إليها من سواحل بحر الشمال - فى القرن الخامس الميلادى، واستقرت فى المناطق الجنوبية منها، وأعطت اسمها إلى تلك البقاع قبل أن يطردها "القوط" من هناك إلى الشمال الإفريقى. فلما فتح المسلمون هذه المناطق أطلقوا اسم "الأندلس" على شبه الجزيرة الإيبيرية كلها بعد أن سيطروا على معظمها. وبقيت الكلمة مستخدمة حتى نهاية الحكم الإسلامى.

ولا تزال كلمة "أندولوسيا" مستعملة حتى اليوم فى "الإسبانية الحديثة"، وتطلق على ثمانى محافظات فى جنوب إسبانيا، هى: "المرّيّة" و"غرناطة" و"جيان" و"قرطبة" و"مألقّة" و"قادش" و"ولبة" و"إشبيلية".

ثانياً: لمحة جغرافية عن شبه الجزيرة الإيبيرية^(٢):

وشبه الجزيرة الإيبيرية (ويسمىها العرب بالجزيرة^(٣)) أيضاً كما يسمون جزيرة العرب بالجزيرة العربية) مُحَمَّسَة الشكل، تصل مساحتها إلى ٦٠٠ (ستمائة) ألف كيلو متر مربع (وتحتل "إسبانيا" الحالية منها ٦/٥ هذه المساحة). وتقع فى الجنوب الغربى من أوربا وتحيط بها المياه من جميع الجهات ما عدا الجهة الشمالية الشرقية (أى من ثلاث جهات). وتسد البحر المتوسط من جهته الغربية (ويقع هو فى شرقها) حاجزة بينه وبين المحيط الأطلسى (المسمى قديماً: بحر الظلمات أو البحر المحيط الرومى) الذى تطل عليه من الغرب والشمال الغربى. أما فى الجنوب فيفصلها عن البر الإفريقى ممرٌ مائى ضيق، يعرف اليوم باسم "مضيق جبل طارق" ويبلغ عرضه فى أضيق مواضعه خمسة عشر كيلو متراً تقريباً.



(١) يسميهم ابن عبد المنعم الحميرى: "الأندليش" (صفة جزيرة الأندلس المنتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار - للحميرى - ص ٢).

(٢) لمزيد من التفاصيل عن جغرافية الأندلس راجع: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرئ ج ١ ص ١٢٥ وما بعدها. المعجب فى تاريخ أخبار المغرب للمراكشى ص ٥-٨. التاريخ الأندلسى لعبد الرحمن الحجى ص ٣٥-٣٦، معالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس ص ٢٢٩-٢٣١. وقد أفرد المقرئ الباب الأول من كتابه (نفح الطيب) لوصف جزيرة الأندلس (راجع ج ١ ص ١٢٥-٢٢٨).

(٣) صنف المؤرخ والأديب الأندلسى أبو القاسم حلى بن بسم الشنترينى (المتوفى ٥٤٢هـ) كتاباً بعنوان "النخيرة فى محاسن أهل الجزيرة". ينسب إلى شنترين وهى من الكور الغريبة من أعمال بطليموس.

وشبه الجزيرة الإيبيرية هضبة متوسطة الارتفاع، بها سلاسل جبلية كثيرة تشققها بالعرض، يتبع بعضها بعضاً، ويفصل بين كل سلسلة وأخرى وادٍ يجرى فيه نهر بالعرض أيضاً. وتنبع معظم هذه الأنهار من وسط شبه الجزيرة وتصب في المحيط الأطلسي. ومن أهمها: نهر "الوادي الكبير" الذي يمر بمدينتي قرطبة وإشبيلية، وبعده - شمالاً - نهر "وادي يانة"، يليه - شمالاً في وسط الهضبة - نهر "التاجه"، وعليه تقع مدينة طليطلة.

وفصل أوربا عن شبه الجزيرة من الشمال سلسلة جبال تغلق الطريق إلى جنوب فرنسا إلا من خلال ممرات، ويطلق عليها اسم جبال "البُرت" أو "البُرتات"، أي جبال "الأبواب"^(١).

الثغور الأندلسية:

ولما فتح المسلمون شبه الجزيرة أغفلوا الزاوية الشمالية الغربية منها، فكانت نواة لإقامة ممالك (دويلات) نصرانية لعبت دوراً خطيراً في استرداد نصارى الشمال لمدينة الأندلس الواحدة بعد أخرى. ومن هنا وجد ما يعرف بالثغور، أي المناطق الإسلامية المتاخمة على الحدود مع الممالك الإسبانية النصرانية^(٢). وهي: (٣)

١- الثغر الأعلى (الأقصى): وعاصمته "سَرْقُسطة". ويواجه مملكة نبارِه (نافار).

٢- الثغر الأوسط: وعاصمته مدينة "سالم"، ثم "طليطلة". ويواجه مملكتي "قشتالة" و"ليون".

٣- الثغر الأدنى: ويقع بين نهري "دُويرة" و"تاجه". وعاصمته "طليطلة". ثم حلت محلها "قورية".

وتقع مملكة "ليون" النصرانية في الشمال والشمال الغربي، وعاصمتها مدينة "ليون"، وتضم منطقتي "جليقية" و"أشتوريش". وتقع مملكة نبارِه (نافار) في الشمال

(١) سميت الجبال بهذا الاسم - البُرتات - لأنها تحتوى على خمسة أبواب أو ممرات طويلة كانت تستعمل للعبور والغزو (دولة الإسلام في الأندلس - لمحمد عبد الله علان ١/٥٣، ٨٢).

(٢) د. عبد الفتاح فتحي (بالاشتراك مع د. حسن على حسن): دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ١٨٧.

(٣) عن الثغور الأندلسية راجع: نفح الطيب ١/١٦١، ١٦٦، المقتبس في أخبار الأندلس لابن حيان ١٨/٢، التاريخ.

الأندلسي لعبد الرحمن الحجي ص ٣٨.

والشمال الشرقى، حيث تسكن قبائل "البشكنش"، وعاصمتها "بنبلونة". وأما مملكة قشتالة فعاصمتها مدينة "برغش"، وتقع بين مملكتى "ليون" و"نبار" (١).

ثالثاً: إسبانيا قبل الفتح الإسلامى:

يعتبر "الإيبيريون" أقدم من عرف من سكان إسبانيا، وهم أصل الشعب الإشباني الذى أسهمت فى تكوينه عناصر أخرى على مر التاريخ. وقد اهتدى الفينيقيون إلى شبه الجزيرة الإيبيرية فنزلوا بها وأقاموا فى بعض أقاليمها، وأسسوا مدناً لا يزال بعضها قائماً إلى اليوم، مثل مدينة "قادس" على الساحل الجنوبى الغربى، وكان ذلك فى القرن العاشر أو الحادى عشر قبل الميلاد، ثم وفد الإغريق (اليونان) على شبه الجزيرة فى القرن السابع قبل الميلاد، وأقاموا فى بعض جهاتها، وخاصة الجهات الشرقية، وأطلقوا على سواحلها اسم "أيبيريا"، وأنشأوا بعض المدن مثل مدينة "برشلونة" على الساحل الشمالى الشرقى. ثم خضعت شبه الجزيرة للقرطاجنيين منذ القرن الخامس قبل الميلاد، وأسسوا بها مدناً مثل مدينة "قرطاجنة" اتخذوها حاضرة لهم، وقد سموها باسم دولتهم فى شمال إفريقيا.

وفى عام (٢٠٥ ق.م) غزا الرومان شبه الجزيرة، وتغلبوا على دولة قرطاجنة وورثوا ملكها، وأصبحت أيبيريا - أو "إباريا" حسب التسمية العربية (٢) - إقليماً رومانياً. وقد صبغ الحكم الرومانى تلك البلاد بصبغته فى ميادين العمران والنظم والقانون، وكان من أهم آثاره التى ظلت حتى الفتح الإسلامى: اللغة الرومانية والدين المسيحى، برغم أن الرومان لم يكونوا حكام إسبانيا حين دخلها المسلمون (٣).

ثم ضعفت الدولة الرومانية الغربية واجتاحتها قبائل جرمانية فى موجات متتابعة، حتى استقر بها القوط الغربيون فى أواخر القرن الرابع الميلادى، وهؤلاء امتد نفوذهم إلى شبه الجزيرة الإيبيرية فى أوائل القرن الخامس بعد أن طردوا منها "الوندال" إحدى القبائل

(١) أندلسيات، للدكتور عبد الرحمن الحجى ج ٢ ص ٣٩. وراجع الخريطة (ص ٨٦). وسيأتى مزيد من البيان عن الممالك النصرانية التى نشأت فى شمال شبه الجزيرة (ص ٨٥-٨٦).

(٢) صفة جزيرة الأندلس ص ٢ (منتخبة من كتاب: الروض المطار فى خبر الأقطار - للحميرى) نشره ليفى بروفنسال.

(٣) تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للدكتور السيد عبد العزيز سالم ص ٥١، الألب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة للدكتور أحمد هيكى ص ٢١-٢٢.

الجرمانية الذين اتجهوا إلى احتلال الشمال الإفريقي، ثم طُردوا منها على يد الرومان سنة ٥٣٤م.

وقد اختار القوط لهم عاصمة داخلية يتمكنون فيها من بسط نفوذهم على سائر أنحاء البلاد، فاختاروا "ماردة" بادئ ذي بدء (سنة ٥٤٩-٥٥٤م)، وتقع في الجنوب، ثم عدلوا عنها إلى "طليطلة" في الشمال وسموها "المدينة الملكية"^(١).

كانت اللغة السائدة في العهد القوطي هي اللغة الرومانية (اللاتينية)، وكان القوط قد اعتنقوا المسيحية التي سبقتهم إلى إسبانيا منذ العهد الروماني، إلا أنهم كانوا على المذهب "الأريوسي" الذي يقول بطبيعة واحدة للسيد المسيح، في حين أن رعاياهم كانوا على المذهب الكاثوليكي الذي يقول بالطبيعتين، وبين المذهبيين من خلاف ما بين دين ودين. ونتيجة لذلك وقع عداؤ شديد بين القوط ورعاياهم، ثم تحول القوط إلى المذهب الكاثوليكي في عهد الملك القوطي "ريكاردو" (٥٨٦-٦٠١م) فكان ذلك سبباً في المصالحة بين القوط والرعية وتحسنت الأحوال، وتمكن القوط من السير بدفة الأمور فترة من الزمن، ثم ما لبثوا أن أساءوا الحكم، لا سيما في الثلاثين سنة الأخيرة (قبل الفتح الإسلامي) إلى الحد الذي جعل المستشرق الفرنسي (ليفى بروفنسال) يطلق عليها وصف "السنوات العجاف" بالنسبة لما يُعرف من تاريخ إسبانيا القوطية، حيث كانت هذه السنوات مشحونة بالفوضى والاضطرابات، وأصاب المدن اضطراب عام نتيجة لاضطراب أمور الدولة وعدم الإحساس بالأمن، وسوء الأحوال المعيشية وسياسة الاستغلال. ويرجع السبب في شمول البلاد بالفوضى والاضطراب إلى كثرة المنازعات والصراع بين الطبقات والحاكمين، وفيما بين الحاكمين القوط أنفسهم، إضافة إلى تفكك المجتمع الإسباني وقيامه على الطبقات المتحاذية فيما بينها^(٢). وأهم هذه الطبقات:

١- طبقة النبلاء. وكانت تضم سلالة القوط الحاكمين (ويسمون السادة) والنبلاء الرومان.

(١) د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس ص ٨، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٥٢، ٥٣، ٥٤.

(٢) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس للدكتور السيد عبد العزيز سالم ص ٥٧، ٦٢، معالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسين مؤنس ص ٢٣٣، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة - للدكتور أحمد هيكمل ص ٢٣، التاريخ الأندلسي للدكتور عبد الرحمن الحجي ص ٢٩.

٢- طبقة رجال الكنيسة، وكان لهم كثرة عديدة وثروة مادية، وتمتعوا بنفوذ سياسى وسلطان روحى كبير.

٣- طبقة للتجار والزراع والملاك الصغار، وتعرف بطبقة الأحرار غير المميزين، وكانوا يتحملون الضرائب ويقع على عاتقهم عبء كبير من الالتزامات والمغارم.

٤- طبقة عبيد الأرض. وكان عددهم كبيرا للغاية، إذ كان الأغنياء والنبلاء يمتلكون منهم الآلاف، ويسئون معاملتهم، ولم يكن لهم حقوق يمكنهم المطالبة بها.

وبجانب هذه الطبقات وجد اليهود، وهى طبقة كبيرة من حيث العدد، وكانوا يسيطرون فى إسبانيا القوطية على الحياة الاقتصادية، ولكنهم كانوا موضع البغض والتعصب والتحامل. وقد لاقوا ألوانا من الجور والتعسف، وصدرت ضدهم عدد من التشريعات كالتى تحرم عليهم الزواج من المسيحيات، أو اقتناء عبيد مسيحيين، وإجبارهم - أحيانا - على اعتناق المسيحية، ومصادرة أموالهم، ونزع أملاكهم^(١).

وقبل الفتح الإسلامى لشبه الجزيرة الإيبيرية بسنة أو تزيد قام أحد رجال الجيش - ويدعى "رودريك" Rodrigo (ويعربه العرب إلى "ذريق") بالاستيلاء على السلطة وعزل الملك "غيطةشة" (Witiza)، وأصبح هو الحاكم الفعلى للبلاد، واتبع سياسة ظالمة، وتغيرت قلوب الناس عليه، واشتعلت ضده نيران الثورات فى طليطلة وغيرها، يقودها أتباع الملك السابق وأفراد أسرته، حيث كانوا يتحينون الفرصة لاستعادة ملكهم، وقد وجدوها فى الفتح الإسلامى فلبأوا إلى المسلمين للاستعانة بهم، وسيأتى ذكر ذلك عند الحديث عن مراحل الفتح.

وهكذا كانت إسبانيا قبل الفتح الإسلامى تشكو الفشل السياسى والتأخر الاقتصادى، والتفكك الاجتماعى، والظلم الطبقي ((لكن هذا لا يعنى أن هذه السلطة لم تكن قادرة على الدفاع، كما لا يعنى إنعدام قوتها السياسية والعسكرية، بل كان بإمكانها أن تصد جيشا مهاجما وتحاربه وتقف فى وجهه))^(٢). ومهما يكن من أمر

(١) لمعرفة المزيد عن طبقات المجتمع القوطى راجع: المسلمون فى الأندلس، للمستشرق دوزى (ترجمة د. حسن حبشى) ج ١ ص ٢٧-٤٠، دولة الإسلام فى الأندلس، لـ محمد عبد الله عفان ٣٠/١ - ٣٢، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، للدكتور السيد عبد العزيز سالم ص ٦٢ - ٦٣.

(٢) د. عبد الرحمن الحجى: التاريخ الأندلسى ص ٣٠-٣١. وراجع فجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس ص ٦٨.

فإن هذه السلطة - ولا غيرها - لم تكن قادرة على الوقوف أمام أناس أخلصوا لعقيدتهم وافتدوها بأنفسهم، ولم ييخلوا بشئ من أجلها. هؤلاء هم الجيوش الإسلامية الذين قدموا لفتح شبه الجزيرة الأيبيرية.

رابعاً: العهود الإسلامية التي مرت بها الأندلس:

استقر حكم الإسلام في شبه الجزيرة الأيبيرية ثمانية قرون كما ذكرنا. وقد مرت الأندلس في هذه القرون بعدة عهود، تقلبت خلالها بين القوة والضعف، والنصر والهزيمة، وكان لكل عهد منها طابع مميز. ويمكن إجمالها على النحو التالي:

- ١- الفتح الإسلامي للأندلس. استمر حوالى أربع سنوات (٩٢-٩٥هـ/٧١١-٧١٤م).
- ٢- عهد الولاة (٩٥-١٣٨هـ/٧١٤-٧٥٥م). استمر حوالى (٤٢) سنة، وحكم الأندلس فى هذا العهد عشرون والياً تقريباً، كانوا تابعين للخلافة فى دمشق مباشرة، أو بواسطة "ولاية" الشمال الإفريقى (إفريقية والمغرب). ويعتبر البعض أن مدة الفتح دأخلة فى عهد الولاة.
- ٣- عهد الإمارة الأموية (٣١٨-٣١٦هـ/٧٥٥-٩٢٩م). ويبدأ منذ مجئ عبد الرحمن (الداخل) إلى الأندلس، وتأسيسه إمارة مستقلة عن الخلافة العباسية، استمرت مائة وثمان وسبعين سنة. وينتهى هذا العهد بإعلان الخلافة فى فترة حكم الأمير عبد الرحمن الناصر (= عبد الرحمن الثالث) سنة ٣١٦هـ/٩٢٩م.
- ٤- عهد الخلافة (٣١٦-٤٢٢هـ/٩٢٩-١٠٣١م). ويمكن تقسيم هذا العهد إلى ثلاث فترات رئيسية:

الأولى: فترة حكم عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) وولده: الحكم المستنصر بالله (٣٥٠-٣٦٦هـ/٩٦١-٩٧٦م)، وذلك إذا استثنينا ست عشرة سنة، أى من بداية حكم الناصر سنة (٣٠٠هـ)، إلى سنة (٣١٦هـ)، وهى السنة التى أعلن فيها الخلافة الأموية بالأندلس.

الثانية: فترة حكم بنى عامر (الدولة العامرية) - (٣٦٨-٣٩٩هـ/٩٧٨-١٠٠٩م).

الثالثة: فترة سقوط الخلافة الأموية (٣٩٩-٤٢٢هـ/١٠٠٩-١٠٣١م).

٥- عهد الطوائف (٤٢٢-٤٨٤هـ / ١٠٣١-١٠٩١م). وهو عهد دول (أو ملوك) الطوائف الذى سبقته أعوام من الفوضى. وقد استمر هذا العهد حوالى ستين عاماً، أو قرابة ثلاثة أرباع القرن على اعتبار أن فترة الفوضى التى سبقته داخلية فيه. وينتهى بدخول الأندلس تحت سلطان المرابطين.

٦- عهد المرابطين (٤٨٤-٥٣٩هـ / ١٠٩١-١١٤٤م).

٧- عهد الموحيدين (٥٣٩-٦٢٠هـ / ١١٤٤-١٢٢٣م).

- ويمكن اعتبار العهدين عهداً واحداً.

٨- مملكة غرناطة = عصر دولة بنى نصر (أو: بنى الأحمر) فى غرناطة (٦٢٩-٨٩٧هـ / ١٢٣٢-١٤٩٢م). حيث استمرت هذه الدولة ما يزيد على قرنين ونصف، حتى نهاية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى). ويمثل سقوطها نهاية الحكم الإسلامى للأندلس وذهاب سلطان المسلمين السياسى منها. وتبقى ملايين عديدة من المسلمين بعد ذلك التاريخ عشرات السنين، تحملوا خلالها الكثير من أصناف الاضطهاد وعمليات الإقناء، وكانت تأتى على كل ما خلفه المسلمون من إنتاج حضارى رفيع شمل مختلف الميادين. وهؤلاء عُرفوا فى التاريخ باسم "الموريسكيين" أو "الأندلسيين المواركة".

والآن - وبعد أن فرغنا من ذكر هذه المقدمات (أو المداخل) الضرورية - نبداً فى عرض التاريخ الأندلسى حسب التقسيم المذكور آنفاً.

مكتبة جامعة القاهرة

الفصل الأول

الفتح الإسلامي للأندلس (٩٢-٩٥هـ / ٧١١ - ٧١٤م)

أسباب الفتح :

كانت جيوش المسلمين قد بسطت سلطانها على بلاد المغرب ، واستقرت بتلك العدو التي لا يفصلها عن الأندلس إلا مضيق جبل طارق ، وذلك بعد جهاد طويل استمر منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ / ٧٠٥-٧١٥م). وبعد أن أرسى "موسى بن نصير" - ومن معه من القادة - دعائم الحكم الإسلامي في الشمال الإفريقي كانت الخطوة التالية هي فتح شبه الجزيرة الأيبيرية ، وكان ذلك أمراً طبيعياً ومتوقفاً ويسير في إطار الهدف الذى اتبعه المسلمون في جميع فتوحاتهم ، وهو نشر دعوتهم وتأمين حدودهم... ومن ثم يمكن القول: إن من أهم أسباب فتح شبه الجزيرة الأيبيرية ما يلى:

١- نشر الإسلام والتعريف بعقيدته وشريعته الغراء فى تلك البلاد الواقعة على الضفة الأخرى من المضيق.

٢- تأمين بلاد المغرب من هجمات " اللقوط " حكام شبه الجزيرة. ((وقد عرف موسى بن نصير - هذا القائد الخبير - أن القطر الإفريقي الجديد الذى آل إلى المسلمين يكون مع إسبانيا وحدة جغرافية متماسكة الأطراف ، وأن الأوضاع الطبيعية والملابسات التاريخية تحتم على القوة التى تبغى لنفسها السلامة والطمأنينة فى شمال إفريقيا ألا تغض الطرف عن إسبانيا))^(١).

٣- وما من شك فى أن سوء الأوضاع الداخلية فى شبه الجزيرة - على نحو ما ذكرنا من قبل - كان من الدوافع التى مهدت الطريق أمام المسلمين لفتح هذه البلاد.

(١) د. إبراهيم المدنى: موسى بن نصير مؤسس المغرب العربى ص ٦٣ (دار الكاتب العربى للطباعة والنشر

١٩٧٦م سلسلة أعلام العرب رقم ٦٨).

مقدمات الفتح:

بعد أن اغتصب "ذريق" عرش إسبانيا أمعن في مطاردة أفراد بيت الملك "غيطشه" وتتبع أنصاره بالأذى، ففروا من إسبانيا والتمسوا سبل النجاة، إما إلى أقصى الشمال، أو إلى مدينة "سبنة" وهي ولاية إفريقية تابعة للقوط، وكانت حصناً منيعاً من الحصون الإفريقية التي لم يخضها المسلمون بعد، كما كانت ثغراً له قيمته على مضيق جبل طارق. ويبدو أن حاكم "سبنة" آنذاك - ويدعى "يُليان" (JULIAN) - كان من أنصار الملك "غيطشه" وأنه كان يدين له بالولاء. ويقال: إنه كان يمت بصلّة القرابة والنسب إلى أسرة الملك فلما انتزع "ذريق" عرش إسبانيا من أصحابه عمّد "يوليان" - بمعاونة أنصار الملك المخلوع وأقربائه - إلى استرجاع ملكهم، مستعيناً في ذلك بالمسلمين الذين دانت لهم بلاد الشمال الإفريقي، وكان ذلك مقدمة الفتح.

وتتفق المصادر العربية على أن "يُليان" توجه بنفسه إلى طارق بن زياد قائد القوات الإسلامية المعسكرة عند مدينة "طنجة" بالمغرب الأقصى - والقريبة من مدينة "سبنة" - يعرض عليه أن يساعده في دخول الأندلس. ولم يتردد طارق في الاتصال فوراً بموسى بن نصير - وكان مقيماً في القيروان - فأبلغه ما كان من أمر "يُليان" ورحب بما عرضه عليه^(١).

كان موسى بن نصير مثلهفا على افتتاح الأندلس، لكنه لم يشأ أن يقحم المسلمين في مغامرة لا يعلم نتائجها إلا الله، ولم يكن قد وثق بعد بـيُليان، ثم إنه لا يستطيع أن يقبل على هذا العمل العسكري الكبير دون أن يستأذن الخليفة أو يستشيريه فيما هو مقبل عليه. وهذا ما حدث بالفعل؛ فكتب إلى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (يخبره بالذي دعاه إليه يُليان من أمر الأندلس، ويستأذنه في اقتحامها). فكتب إليه الوليد أن خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها، ولا تحرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال، فراجعته (موسى) أنه ليس ببحر زخار، إنما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه. فكتب إليه: وإن كان، فلا بد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه^(٢).

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٥ (ط الهيئة العامة لقصور الثقافة - سلسلة الخزائن)، ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨ (ط بيروت ١٩٥٨م). ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج ٢ ص ٦. نفع الطيب للمقرئ ٢٢٩/١، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٥٢-٢٥٤.
(٢) نفع الطيب ج ١ ص ٢٥٣، البيان المغرب ج ٢ ص ٥، أخبار مجموعة ص ٦-٥.

لقد ترددت الخلافة - بادئ الأمر - بالقيام بمثل هذا العمل الكبير، خوفاً على المسلمين من المخاطرة في مفاوز، أو إيقاعهم في مهالك. لكن موسى أقنع الخليفة بالأمر، ثم تم الاتفاق على أن يسبق الفتح اختبار المكان بالسرايا، أو الحملات الاستطلاعية.

عمل موسى بن نصير بهذه النصيحة، وأرسل في رمضان (سنة ٩١هـ/٧١١هـ) سرية استكشافية مكونة من خمسمائة جندي - فيهم مائة فارس - بقيادة "طريف بن مالك" الملقب بأبي زُرعة، وهو مسلم بربري، ويقال إنه من أصل عربي ينتسب إلى قبيلة "مُعاقر" أو "نخع" اليمنية^(١). وقد عبر هذا الجيش الزقاق (مضيق جبل طارق) من سبتة، بسفن "يليان" أو بسفن غيره، ونزل في جزيرة تعرف باسم "بالوما" (PALOMAS) التي عرفت فيما بعد باسم "جزيرة طريف". وعادت هذه الحملة بالغنائم الوفيرة، وبالأخبار المشجعة على الاستمرار في عملية الفتح^(٢).

وقبل الحديث عن الخطوة التالية في فتح الأندلس نشير هنا إلى ملاحظتين:

الأولى: كانت فكرة فتح شبه الجزيرة الإيبيرية فكرة إسلامية خالصة. بل ويروى أنها فكرة قديمة تمتد إلى أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان^(٣). وكان القائد عقبه بن نافع الفهري (٦٣هـ) يفكر في اجتياز المضيق إلى إسبانيا لو استطاع^(٤). ويذكر الذهبي أن موسى بن نصير جهز ولده عبد الله، فافتتح جزيرتي "ميورقة" و"منورقة" وهما من الجزر القريبة من شواطئ إسبانيا الشرقية، وكان ذلك سنة ٨٩هـ^(٥)، أي قبل الفتح بعامين تقريباً. أما الاتصال ببليان - حاكم سبتة - أو بغيره من الإسبان فإنه جاء موافقاً - على ما يبدو - في الوقت الذي كان موسى بن نصير يفكر في تنفيذ فكرة الفتح. ومن هنا يمكن القول: إن اتصالات الجانب الإسباني بموسى ومساعداتهم ربما كانت عاملاً مساعداً سهل سير الفتح أو عجل به. لكن المبادأة ومرد العمليات وإنجازها كانت من الجانب الإسلامي الذي اندفع مع الفتح بقوة فائقة مرتكزاً على عقيدته^(٦).

(١) نفح الطيب ٢٣٣/١، ٢٥٤، صفة جزيرة الأندلس (من الروض المعطار للحميري) ص ٨.

(٢) راجع نفح الطيب ٢٥٣/١، دولة الإسلام في الأندلس لمحمد عبد الله عفان ٤٠/١، تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس للسيد عبد العزيز سالم ص ٧٠، التاريخ الأندلسي للحجى ص ٤٥-٤٦.

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٤، نفح الطيب ٢٠٤-٢٠٥.

(٤) البيان المغرب ج ١ ص ٢٦.

(٥) الذهبي: المعبر في خبر من غير ج ١ ص ١٠٤ (ط الكويت).

(٦) راجع: التاريخ الأندلسي للحجى ص ٤٤-٤٥.

والثانية: لقد اعتقد " يليان " - وأتباعه - أن الاتصال بالمسلمين في التخلص من "لذريق" الحاكم المستبد لا يزيد على الاستعانة بهم في إنزال ضربة قاصمة بالقوط، ثم يعودون إلى حدودهم ببلاد المغرب محملين بالغنائم، وغاب عنهم أن المسلمين حملة رسالة سامية، وأنهم مكلفون بتبليغها لكل الناس، وأن ما يشغلهم قبل كل شيء هو نشر مبادئ دينهم السمحة وتعريف الشعوب بها.

مراحل الفتح :

ويطول المقام لو أردنا أن نتتبع - في هذا المختصر - مراحل الفتح الإسلامي بكل تفاصيلها، لكن حسبنا أن نجمع هذه التفاصيل في النقاط التالية:

أولا : عبور طارق بن زياد بقواته إلى الأندلس:

اطمأن موسى بن نصير إلى النتائج التي حققتها الحملة الإستطلاعية بقيادة طريف بن مالك، وزادت رغبته في الفتح، واشتد عزمه وتلهفه على السير في هذه المغامرة، فأعد حملة عسكرية قوامها سبعة آلاف جندي وجلهم من المسلمين البربر، وأمر عليهم قائدا من قواده المشهورين بحسن القيادة والكفاءة وقوة الإخلاص، هو مولاة " طارق بن زياد " وهو - في أصح الآراء - بربري من قبيلة " نفزة " (١).

ومن الغريب أن يكون الجيش الذي أعده للحملة مكونا كله من البربر باستثناء عدد قليل من العرب (لا يزيد على الثلاثمائة). وهذه هي المرة الأولى في تاريخ الفتوح الإسلامية يتولى فيها جيش كامل من المغلوبين فتح قطر من الأقطار الكبرى كالأندلس. ويدل هذا على أن بربر المغرب قد حسن إسلامهم، وأصبحوا على هذا النحو يؤلفون القوة الكبرى التي اعتمد عليها موسى بن نصير في فتح الأندلس عسكريا. ويبدو أن البربر كانوا أكثر معرفة من العرب ببلاد الأندلس، فالمغرب والأندلس يؤلفان وحدة جغرافية وتاريخية في آن واحد (٢).

عبر طارق بن زياد بجيشه من "سبتة" - أو من "طنجة" - إلى الطرف الآخر من المضيق في الخامس من شهر رجب - أو في شعبان - (عام ٩٢ هـ / ٧١١ م)، في السفن الأربعة التي كانت ملكا ليليان ووضعها في خدمة المسلمين (٣). وذكر المؤرخ ابن عذاري

(١) البيان المغرب ج (ص ٤٣، ج ٢ ص ٥، نفح الطيب ٢٥٤/١).

(٢) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس ص ٧١.

(٣) أخبار مجموعة ص ٦.

أن "إليان كان" يحمل أصحاب طارق في مراكب التجار التي تختلف إلى الأندلس، ولا يشعر أهل الأندلس بذلك، ويظنون أن المراكب تختلف بالتجار، فحمل الناس فوجاً بعد فوج إلى الأندلس^(١). ولا شك أن موسى استعان في العبور ببعض قطع من أسطوله الإسلامي الذي أنتجته دار الصناعة بتونس^(٢)، والقول بأن القيام بعملية فتح إقليم كبير مثل الأندلس يمكن أن يفي بحاجته استعارة سفن قول بعيد، فمن الراجح تماماً أنه كانت للمسلمين سفنهم، استعملها جيشهم في هذا الفتح^(٣).

تجمع الجيش الإسلامي - بعد العبور - عند جبل "كالبي" (CALPE) الذي عرف فيما بعد باسم "جبل طارق"، وأقام طارق بتلك المنطقة عدة أيام بنى خلالها سوراً أحاط بجيوشه سماه "سور العرب"^(٤)، وأقام قاعدة حربية بجوار الجبل على الساحل لحماية الجيش من الخلف في حالة الانسحاب، في موضع يقابل "الجزيرة الخضراء" وعليه أقيمت هذه المدينة فيما بعد. ((وهذا الميناء يسهل اتصاله بميناء "سبتة" المغربي، على حين يصعب اتصاله بإسبانيا لوجود مرتفعات بينهما))^(٥). ولم يمض وقت طويل حتى اشتبك الجيش الإسلامي مع قوات القوط في عدة معارك بالقرب من "الجزيرة الخضراء" انتصر فيها المسلمون. يقول الرازي - وهو من كبار المؤرخين الأندلسيين - ((لما بلغ لذريق خبر طارق ومن معه ومكانهم الذي هم فيه بعث إليهم الجيوش، جيشاً بعد جيش. وكان قد قود على أحدهم ابن أخت له يسمى (يَنْج) وكان أكبر رجاله، فكانوا عند كل لقاء يُهزمون ويُقتلون، وقَتِلَ (يَنْج) وهُزِمَ عسكره، ففوى المسلمون، وركب الرجال الخيل، وانتشروا بناحياتهم التي جازوا بها^(٦))).

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ج ٢ ص ٦.

(٢) هي دار الصناعة التي أقامها حسان بن النعمان لصناعة السفن اللازمة لمداخلة الروم في البر والبحر والإغارة على بلادهم. وبهذه السفن بعث موسى بن نصير قائده (عياش بن أخيل) إلى صقلية فغزاها (تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٧٢، راجع: البيان المغرب ج ١ ص ٤٢).

(٣) راجع: التاريخ الأندلسي لعبد الرحمن الحجي ص ٤٧-٤٩.

(٤) البيان المغرب ٩/٢ نفع الطيب ٢١٨/١.

(٥) المسلمون في الأندلس - للدكتور عبد الله جمال الدين ص ٧. وذكر الحميري أن مرسى الجزيرة أيسر المراسى للجواز وأقربها من بر العدو، ويحاذيه مرسى مدينة سبتة (الروض المعطار في خبر الأقطار للحميري ص ٧٤).

(٦) البيان المغرب ج ٢ ص ٨.

ثانيا : معركة وادي برباط (أو : وادي لكه) : الفاصلة :

وبينما كان لُذْرِيْق مشغولاً بإخماد بعض الثورات في "بَنْبُلُونَة" - في الشمال - جاءه الخبر بمجيء الجيوش الإسلامية وانتصارهم على قواته في عدد من المعارك، فهاله ما حدث، وأصيب بهلع ورعب شديدين، وكرَّر راجعاً إلى طليطلة، وبدأ يعبأ جيشه للقاء المسلمين. ويذكر المؤرخون أنه جمع مائة ألف مقاتل. وقيل سبعين ألفاً^(١). وقد وصلت أنباء تلك الحشود إلى طارق بن زياد، فكتب إلى موسى بن نصير يستمده، فأمدّه بخمسة آلاف جندي، على رأسهم "طريف بن مالك" وأغلبهم من الفرسان، وبهم كملت عدة الجيش الإسلامي اثني عشر ألفاً^(٢).

وقد واصل طارق بن زياد السير بجيوشه ومشى في محاذاة الساحل، وأقام معسكره في منطقة سهلية واسعة في كورة "شَنْوَنَة" جنوب غرب إسبانيا بالقرب من نهر "برباط" و"وادي لكه" الذي يصب في المحيط عند مدينة "قَاش" الساحلية^(٣). وفي هذه المنطقة تم اللقاء بين الجيش الإسلامي والجيش القوطي، ودارت معركة هائلة استمرت ثمانية أيام (من الأحد ٢٨ رمضان - إلى الأحد الخامس من شوال ١٩-٢٦ يوليو ٧١١م)، وانتهت بهزيمة القوط هزيمة ساحقة، بعد أن اقتتل الطرفان «اقتتالا شديدا حتى ظنوا أنه الفناء»، وتبع المسلمون فلول القوط بالقتل والأسر، ولم يرفعوا عنهم السيف ثلاثة أيام^(٤). وقد اختلفت الروايات في شأن مصير "لُذْرِيْق"، فقيل : إنه قتل غريقاً في "وادي لكه". ويذكر البعض أنه فر من الميدان والتقى بالمسلمين في معركة أخرى شمال إسبانيا في ولاية شَلْمَنْقَة وقُتل فيها، وهذا الرأي الأخير ضعيف، لا تدعمه الأدلة^(٥).

(١) أخبار مجموعة ص ٧، نفخ الطيب ١/٢٣٣، ٢٥٥-٢٥٧، دولة الإسلام في الأندلس ١/٤٢. ويذكر الحميري أن لُذْرِيْق جمع ستمائة ألف فارس (الروض المعطار ص ١٠) وهذه مبالغة واضحة (وراجع : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس للسيد عبد العزيز سالم ص ٧٥).

(٢) أخبار مجموعة ص ٧، نفخ الطيب ١/٢٥٧.

(٣) التاريخ الأندلسي للحجى ص ٥٦. ويطلق ابن عذارى على "وادي لكه" اسم "وادي الطين" (البيان المغرب ٧/٢) ويبدو أنه سمى كذلك لقلة مياهه وكثرة طينه. ويسميه ابن عبد الحكم "وادي أم حكيم" (فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٦). وراجع : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٧٩، المسلمون في الأندلس ص ٨).

(٤) البيان المغرب ٧/٢-٨، فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٦-٢٠٧، نفخ الطيب ١/٢٥٩.

(٥) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٨٠، ص ٩٧-٩٩ معالم تاريخ الأندلس لحسين مؤنس ص ٢٣٨، التاريخ الأندلسي للحجى ص ٥٧. دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للدكتور أحمد مختار العبادي ص ٣٤.

مواقع معركة وادي لكه
وخط سير طارق

المغرب العربي

البحر الأبيض المتوسط

مربله
اشتونه
جبل طارق
مصيق بجبل طارق
طريف
الغنيمة
راس طرف الغار
قبادس
شيش
شمال

البحر الأبيض المتوسط

مكتبة الميرزا محمد باقر الميرزا محمد باقر الميرزا محمد باقر

وتعدُّ معركة " وادي لكة " معركة فاصلة، توقف عليها مصير إسبانيا في يد المسلمين، بحيث يمكن القول «إن جميع المعارك التي حدثت بعد ذلك في بقية أنحاء شبه الجزيرة كانت بمثابة مناوشات بسيطة - وإن كان بعضها مهماً وقوياً - إذا قورنت بهذه المعركة الفاصلة، ولم يستغرق استيلاء المسلمين على إسبانيا بعد ذلك - رغم وعورة مسالكها وقسوة مناخها - أكثر من ثلاث سنوات، وهذا يدل على أن المقاومة كانت قد ضعفت تقريباً»^(١).

ثالثاً : الاتجاه نحو الشمال وفتح طليطلة عاصمة القوط :

وبعد هذا النصر العظيم الذي حققه طارق بن زياد وجنده كان لابد أن يجنى ثماره قبل أن تتجمع قلوب القوط مرة أخرى، فزحف إلى الشمال نحو مدينة " شُؤنة " وفتحها عنوة بعد حصار شديد، ومضى إلى " مَورُور " وافتتحها، ثم عطف على " قرمونة " ثم تقدم إلى " إشبيلية " فصالحه أهلها على الجزية، ومنها زحف على " إِسْتِجَّة " حيث دارت معركة حامية هزم فيها الجيش القوطي وافتتحت المدينة، «ولم يلق المسلمون فيما بعد حرباً مثلاً...، وقذف الله الرعب في قلوب المشركين، وسقط في أيديهم، وتطايروا عن السهول إلى المعازل، وصعد ذوو القوة منهم إلى دار مملكتهم طليطلة»^(٢).

وقد وجه طارق من " إِسْتِجَّة " سرايا وبعوثاً من جنده إلى عدة جهات، فبعث " مغينا الرومي " - في سبع مائة فارس - لفتح مدينة " قرطبة "، فافتتحها دون مشقة كبيرة. وأرسل جيشاً آخر إلى " مَالَقَة "، وثالثاً إلى كورة " البيرة "، حيث افتتح مدينتها " غرناطة "، عنوة^(٣).

أما طارق فقد سار بمعظم أجناده إلى كورة " جيان " في طريقه إلى " طليطلة " قبل أن يتدارك القوط الأمر، ويحكموا الدفاع عنها، فنخلها سنة ٩٣ هـ دون مقاومة تذكر فوجدها خالية «ليس فيها إلا اليهود في قوم قلة»^(٤) وقد فر منها حاكمها مع أصحابه من كبار القوط والقساوسة - في اتجاه شمال شرقي - حاملين معهم ذخائر الكنيسة، فترك طارق فرقة من جنوده في " طليطلة " ومضى بطارد الفارين في الطريق الذي يسميه

(١) العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٥.

(٢) نفع الطيب ٢٦٠/١، البيان المغرب ٩-٨/٢ بتصرف. وزاجع التاريخ الأندلسي للحجى ص ٦٣-٦٤.

(٣) نفع الطيب ٢٦٠/١-٢٦٤، الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب ١٠١/١، البيان المغرب ٩/٢-١١.

(٤) البيان المغرب ١٢/٢.

العرب "وادي الحجارة" وعند بلدة صغيرة تسمى "الكالا دي هنارس" - (ويسمونها العرب "قلعة عبد السلام" وتسمى أيضا بمدينة "المائدة" ^(١)) أدرك المسلمون فيها الهاربين من طليطلة، وغنموا ما كانوا معهم من ذخائر بالغة القيمة، ومن بينها "مذبح الكنيسة" الذي سموه مائدة سليمان، ولم تكن بمائدة ولا صلة لها بنبي الله سليمان عليه السلام، وإنما كانت منضدة فاخرة مصنوعة من الذهب، ومزينة بالجواهر، وتوضع في صدر الكنيسة لأغراض الصلاة، وقد حملها القساوسة عند فرارهم من طليطلة خشية أن تقع في أيدي المسلمين لنفاستها وقداستها ^(٢).

لم يتجاوز طارق بن زياد المنطقة التي وصل إليها، فلربما ((خشى أن يقطع عليه العدو الطريق في هذه البلاد الجبلية الوعرة، لا سيما وأن فصل الشتاء كان قد اقترب، وتعب المسلمون من الجهد الذي بذلوه، ونقلوا بالغنائم التي جمعوها)) ^(٣) فعاد إلى "طليطلة" في أوائل ٩٣ هـ (أواخر ٧١١). وقيل: إنه لم يرجع، بل اقتحم أرض "جليقية"، واخترقها حتى انتهى إلى مدينة "أستركة"، ثم قفل راجعا إلى طليطلة ^(٤). وإذا أردنا أن نحدد خط سير طارق بن زياد منذ عبوره المضيق إلى أن استقر في طليطلة فهو كالآتي:

- ١- سبتة (في البر الإفريقي).
- ٢- عبور المجاز (المضيق).
- ٣- النزول عند الجبل الذي عرف بجبل طارق.
- ٤- وادي بريباط / أو "وادي لكه" حيث وقعت المعركة الفاصلة في رمضان - شوال - ٩٢ هـ .
- ٥- مدينة شنونة. ٦- مورو
- ٧ - قرمونة ٨- إشبيلية

(١) تبعد قلعة "هنارس" - التي كانت تعرف بقلعة عبد السلام أو "المائدة" - تبعد عن مدريد (٣٤) كم شمالا (راجع: رحلة الأندلس للكتور حسين مؤنس ص ٣٣٥ - ٣٣٦ ، مدريد العربية ، للدكتور محمود علي منكي ص ٤١).
(٢) البيان المغرب ١٢/٢ فتوح مصر والمغرب ص ٢٠٧ ، نفح الطيب ١/١٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٧٢ ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٨٣ - ٨٤ ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٣٦ - ٢٣٧ ، المسلمون في الأندلس ص ٩ ، التاريخ الأندلسي للحجي ص ٦٥-٦٦.
(٣) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعبادي ص ٣٦.
(٤) نفح الطيب ١/٢٦٥ ، الروض المعطار ١٧٩.

٩- إِسْتِجَّةٌ، ومنها سارت البعوث إلى:

- أ- قرطبة. ب- مالقة. ج- غرناطة (فى كورة إلبيرة).
١٠- جَبَان. ١١- طُلَيْطَلَة.

١٢- منطقة وادى الحجارة (مدينة المائدة - قلعة عبد السلام - قلعة نهر هنارس).
١٣- العودة إلى طليطلة.

رابعاً: عبور موسى بن نصير إلى الأندلس واستكمال الفتح:

كتب طارق بن زياد إلى موسى بن نصير يحيطه بأنباء الفتح وما أحرزه من نجاح، ويطلب منه المدد. وعلى الفور قرر موسى التوجه إلى الأندلس، وأصدر أوامره إلى طارق بوقف الفتح حتى يلحق به. وهنا اختلفت أقوال المؤرخين فى تعليل البواعث التى حملت موسى على العبور إلى الأندلس وإصدار أوامره بوقف العمليات العسكرية. والراجع من هذه الأقوال وما عليه أكثر المؤرخين القدامى والمحدثين هو أن طارق بن زياد خالف الأوامر الصادرة إليه بالألا يتعدى قرطبة أو حيث تقع الهزيمة بالقوط^(١) وتوغل - بسرعة غير متوقعة إلى داخل البلاد دون نظر إلى العواقب، ومن ثم تخوَّف موسى بن نصير على جيش المسلمين من الترامى إلى هذا البعد فى بلاد فسيحة ومسالك مجهولة، فجاء قراره بالعبور تعزيزاً للجيش الإسلامى وسدّاً لمحاولات قطع الطرق عليه، وأخذاً فى الحيلة، وإتماماً للفتح^(٢).

أما ما يروى من أن موسى بن نصير كان يضمّر لقائده شراً، مدفوعاً إلى ذلك بعوامل الغيرة والحسد، وأنه - حينما التقى به فى طليطلة - أهانه وبالغ فى إساءته وضربه بالسياط وحبسه^(٣) فمغالى فيه، وليس له واقع تاريخى ولا تسمح بقبوله مجريات الأحداث، ولا يصدر مثل ذلك من تابعى جليل وفاتح عظيم كموسى بن نصير. ثم إن طارق بن زياد كان مولى لموسى، يعمل بأوامره ويمتثل لما يصدره إليه، وإذا كان حدث

(١) البيان المغرب ١٣/٢.

(٢) التاريخ الأندلسى للحجى ص ٨٧، معالم تاريخ الأندلس، لحسين مؤنس ص ٢٣٧، دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان ٥٢/١.

(٣) فتوح مصر والمغرب ص ٢١٠، أخبار مجموعة (المؤلف مجهول) ص ١٥، تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٩، العبر لابن خلدون ١١٧/٤، نفع الطيب المquiry ٢٣٣/١، ٢٤٢-٢٤٣، ٢٦٩ جذوة المقتبس للحميدى ص ٢٤٨ (ترجمة طارق بن زياد)

شئ فلا يعدو أن يكون موسى قد عتب على قائده: «ما دعاك إلى الإيغال والتقحم فى البلاد بغير أمرى؟»^(١). فما كان من طارق إلا أن اعتذر إليه بخطته العسكرية أمام الظروف المحيطة والضرورة الداعية لأسلوبه، فقبل موسى عذره، وسار - بعده - سويا إخوة مجاهدين يستكملون الفتح، وينشرون دين الله، ويعلون كلمته، ويبلغون الناس شريعته^(٢).

١- عبر موسى بن نصير الزقاق فى رمضان - وقيل فى رجب - (سنة ٩٣هـ/ ٧١٢م) على رأس جيش قوامه ثمانية عشر ألفاً، معظمهم من العرب، فيهم صحابى واحد هو "المنيزر الإفريقى" وعدد من التابعين^(٣). (على حين كان معظم جند طارق من البربر) وكان عبوره من "سبته" - وقيل من "طنجة" - إلى "الجزيرة الخضراء"، فأقام بها أياماً للراحة والتأهب لخوض المعركة القادمة، فلما عزم على المسير جمع حوله رايات العوب ووجوه الكتائب، وعددها يزيد على عشرين راية، وتفاوض الجميع فى رأى، وكيف يكون المسير، فأجمعوا على السير إلى "إشبيلية" وغزو ما بقى من غرب الأندلس.

٢- تحرك موسى بالجيش نحو "شذونة" فافتتحها عنوة، ثم توجه إلى مدينة "قرمونة"، وكانت غاية فى المناعة والحصانة، فاحتال فى فتحها بمساعدة جند من أتباع "يليان"^(٤). وبهذا تمت له السيطرة على المراكز الدفاعية الأمامية لمدينة "إشبيلية" فتقدم نحوها فحاصرها حصاراً شديداً، ولكنها امتنعت عليه أشهراً، ثم سقطت فى أيدى المسلمين، وهرب رجال حاميتها إلى مدينة "باجه". وكانت إشبيلية ((أعظم مدائن الأندلس شأنًا وخطبًا، وأعجبها بنيانًا وأثارًا، وكانت دار الملك قبل غلبة القوطيين على الأندلس، فلما غلب القوطيون عليها حولوا السلطان إلى طليطلة، وبقي شرف الرومانيين وفقههم ودينهم ورتاسهم فى دنياهم بإشبيلية))^(٥).

(١) تاريخ الأندلس (نصا بن الشباط) ص ١٤٩، اللخلة السيرة لابن الأبار ٢/٣٢٤. وراجع التاريخ الأندلسى للحجى ص ٩٠، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للسيد عبد العزيز سالم ص ٩١.

(٢) للتاريخ الأندلسى ص ٩٠.

(٣) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر القرطبي ٤/١٤٨٥ (رقم ٢٥٧١)، التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار ٢/٧٣١ (رقم ١٨٤٧)، تاريخ علماء الأندلس لابن القرضى ١/١٤٦، ١٤٨، ٢٥٠، ٢٥٤.

(٤) البيان المغرب ٢/١٣-١٤، نفح الطيب ١/٢٦٩.

(٥) أخبار مجموعة ص ١٦، البيان المغرب ٢/١٤، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للسيد عبد العزيز سالم ص

٣- مضى موسى بعد ذلك إلى "ماردة" إحدى قواعد الأندلس ومدائنه، وفي طريقه إليها نجح في الإستيلاء على بلدة "لقنت" دون حرب. أما "ماردة" فقد كانت مدينة حصينة، ذات أسوار منيعة وأبراج عالية^(١)، وبها حصون قوية، والمسالك إليها وعرة، وكان فلول القوط قد احتشدوا فيها لمناعتها، فحاصرها موسى طويلا وأعد كمائن عديدة في جهات صخرية مواجهة لها، واستشهد من جنده كثيرون، حتى استسلم أهلها ودخلها صلحا في مستهل شهر شوال (سنة ٩٤هـ / يونيو ٧١٣م) على أن تكون أموال الفارين وأموال الكنائس غنيمة للمسلمين، دية لمن قتل منهم^(٢).

وكان أهل اللزمة بإشبيلية (وهم العجم . وقد سموا فيما بعد بالمستعربين بسبب استعراهم مع احتفاظهم بدينهم)^(٣) قد انتهزوا فرصة انشغال موسى بن نصير بحصار "ماردة"، وانقضوا على الحامية المسلمة التي تركها فيها، وقتلوا من رجالها نحو ثمانين رجلا، وفر الباقون إلى موسى بماردة، وتوافد إلى إشبيلية عدد كبير من فلول جيشها ممن كانوا قد التجأوا إلى "باجة"، فتقوى بهم أهلها، وتحصنوا بدخلها، فانتظر موسى حتى أتم فتح "ماردة"، وبعث ابنه عبد العزيز على رأس جيش لاسترجاع إشبيلية، فنجح في دخول المدينة واستعادتها، وقبض على الثوار وقتلهم^(٤)، ثم مضى إلى "بلبة" و"باجة" و"أكشونبة"، وهذه المدن كانت أكبر مدائن الجنوب الغربي لشبه الجزيرة، ومنها يتكون النصف الجنوبي للبرتغال اليوم . وبذلك تكون الجيوش الإسلامية قد وصلت إلى ساحل المحيط الأطلسي في هذه الناحية^(٥).

(١) يذكر أبو عبيد البكري أن عرض سور مدينة ماردة - حين الفتح أوقبله - ١٢ ذراعا (٦,٥ متر) وارتفاعه ١٨ ذراعا (٩,٧٥ متر) [جغرافية الأندلس ولوروبا ص ١١٩].

(٢) أخبار مجموعة ص ١٦-١٨ ، البيان المغرب ١٤/٢ - ١٥ ، نفح الطيب ٢٧٠/١ ، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعبادي، ص ١٩٦ .

(٣) راجع حديثا عن التعريف بالمستعربين (ص ٣٥).

(٤) البيان المغرب ١٤/٢ . وراجع: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس للدكتور السيد عبد العزيز سالم ص ٩٦-٩٧ .

(٥) معالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسين مؤنس ص ٢٣٨ .

٤- وفي بداية ذي القعدة سنة ٩٤هـ - وبعد شهر من إقامة موسى بن نصير في "ماردة" تمهيداً لمتابعة الفتح - تحرك صوب "طليطلة"، وبلغ طارِقاً خبره، فخرج إليه في وجوه الناس، ولقيه في موضع من كورة "طليطلة" (١). ثم عاد بالجيش إلى "طليطلة"، وأقام بها طوال فصل الشتاء. وفي هذه الفترة بدأ موسى بن نصير عمله كأول والٍ مسلم يحكم قطراً أوروبياً، وقام ببعض التنظيمات الإدارية، فأمر بضرب عملة ذهبية - في دار السكة بطليطلة لصرف رواتب الجند، وعملة أخرى برونزية لتيسير التعامل اليومي. كما أنه رد على أبناء غيطشة - الملك القوطي الذي خلعه "لنريق" - ما انتزع من ضياعهم، وعين بعضهم في وظائف عليا، ونصب أخا "غيطشة" أسقفاً على "طليطلة"، وهو منصب مرموق في المجتمع الأندلسي آنذاك (٢). هذا، وقد بعث موسى رسولين من قبله إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يخبرانه بالفتح، وهما "مغيث الرومي" - مولى الوليد - و "علي بن رباح اللخمي" التابعي (٣).

٥- وحينما انقضى الشتاء عزم الفاتحان - موسى وطارق - على متابعة الفتح، فزحفا بالجيوش نحو الشمال الشرقي، واخترقا ولاية "أرلجون" (الثغر الأعلى) وافتتحا مدينة "سرقسطة" - الواقعة على الضفة اليمنى من نهر "إبره" - ومننا أخرى حولها، مثل "وشقة" و "لاردة" و "طرركونة" و "برشلونة". وغيرها من المدن والمعقل (٤).

٦- وبينما كان موسى يؤمن ممتلكات المسلمين شمالي "سرقسطة" ويعيد العدة للدخول في بلاد "جليقية" إذ أتاه مغيث الرومي رسول الوليد بن عبد الملك يأمره بالخروج من الأندلس والكف عن التوسع في البلاد، والعودة مع طارق بن زياد إلى دمشق. وقد استجاب موسى لهذا الاستدعاء، لكنه طلب إمهاله حتى يستكمل الفتح، ويتم له السيطرة على المعقل الجبلي الشمالية (٥). وهنا قسم جيشه إلى قسمين، قسم بقيادته، والقسم الآخر بقيادة طارق.

(١) نفح الطيب ٢٧١/١. وقد سار طارق مسافة قدرها ١٥٠ كم في الطريق الموصل بين طليطلة وطلبييرة. (تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٩٧).

(٢) نفح الطيب ٢٦٦/١، معالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس ص ٢٣٨، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ١٩٨، للتاريخ الأندلسي للحجى ص ٨٥. (٣) فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ص ٢١٠.

(٤) راجع عن هذه الفتوحات: البيان المغرب ١٦/٢، نفح الطيب ٢٣/١، الروض المعطار ص ١٩٥، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ١٠٠ - ١٠١، التاريخ الأندلسي ص ٩١-٩٤.

(٥) نفح الطيب ٢٧٥/١ - ١٧٦.

أما طارق فقد سار بجيشه محاذياً الضفة الجنوبية لنهر "إِيرُهُ" (إِيرُو) -
يمين النهر - باتجاه بلاد البَشْكَنْس (نِيكَارَّة / نَافَار) وعاصمتها مدينة "بَنْبُلُونَة" -
وقد اعتنق حاكمها "فَرْتُون" الإسلام - ثم سار نحو الغرب بمحاذاة سلسلة جبال
"كَنْتَبَرِيَّة" (كَنْتَبَرِيَّة) من جنوبها، وافتتح مدن "أَمَايَه" و "أَشْتُرْقَة" و "لِيُون" (١).

وأما موسى فقد سلك طريقه يسار نهر "إِيرُهُ" (الضفة الشمالية) نحو
الشمال والغرب في خط يكاد يتوازي مع سير طارق، وافتتح ما هنالك من مدن
في مناطق تسمى في المصادر العربية "أَلْبَة والقِلَاع"، وهي قشتالة القديمة أو
"قَشْتِيلَة" (٢)، والتقى بطارق في "أَشْتُرْقَة"، ثم انحرف - وربما معاً - نحو الشمال
عابراً جبال "كَنْتَبَرِيَّة"، ودخل إقليم "أَشْتُورِيش" حتى وصل إلى قلعة "لُكَّ"
Lugo بجليقة واستولى عليها.

ثم واصل موسى سيره فاستولى على "أُوبِيْط"، ووصل - أو وصلت
سراياه - إلى ساحل خليج "بَشْكَاي" عند بلدة "خِيخُون" على البحر المحيط في
أقصى الشمال (٣).

وفي هذه الأثناء بعث الوليد بن عبد الملك رسولاً آخر إلى موسى يتعجل قُفُولَه
إلى دمشق فاستجاب لرغبة الخليفة ولم يجد بداً من العودة، فوافاه طارق في الطريق
منصرفاً من الثغر الأعلى وأسرع السير، في ذى الحجة سنة ٩٥ هـ، فوصلا إلى
"طليطلة"، ومنها إلى "قرطبة" فإشبيلية ثم إلى عاصمة الخلافة دمشق، وترك موسى ابنه
عبد العزيز والياً على الأندلس (٤) ليقوم بما تقتضيه أحوال البلاد من التنظيم والإصلاح.
وبه يبدأ عصر الولاة.

(١) التاريخ الأندلسي للحجى ص ١٠١-١٠٣، معالم تاريخ الأندلس لحسين مؤنس ص ٢٣٩.

(٢) أما قشتالة الجديدة فهي التي شملت - فيما بعد - طليطلة وما حولها (راجع دولة الإسلام في الأندلس لمحمد عبد
الله عنان ٢١٦/١).

(٣) نفح الطيب ١/١٧١، ٢٧٦. وراجع : معالم تاريخ الأندلس ص ٢٣٩، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس
ص ١٠٢-١٠٣، التاريخ الأندلسي ص ١٠٣-١١١.

(٤) نفح الطيب ١/٢٧٦.

وهكذا نرى هذين الفاتحين العظميين قد خلفا الأندلس وراءهما بعد أن قاما بما يمكن اعتباره معجزة من معجزات الفتوحات الإسلامية في مدة قاربت أربع سنوات من الجهاد المتصل والحركة الدائمة . لقد استطاع هذان الرجلان - مع جيش من المسلمين ما بين عرب وبربر لا يزيد على ثلاثين ألف مقاتل - أن يفتحوا قطراً أوروبياً واسعاً يعتبر من أصعب الأقطار الأوربية من الناحية الجغرافية الطبيعية. وقد قام المسلمون بهذا الفتح العظيم بشجاعة تعتبر مضرب المثل، وساروا على خطة عسكرية وسياسية واضحة تدل على خبرة جيدة بمسائل الحروب وفتوح البلدان، وقاد موسى وطارق رجالهما بحزم ونظام وبصيرة تذكرنا بقيادة خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص وأبي عبيدة بن الجراح في فتوحات المشرق.

وفي ختام حديثنا عن مراحل فتح الأندلس يحسن أن نشير إلى ملاحظتين مهمتين :

الملاحظة الأولى: يذكر بعض المؤرخين الأندلسيين - كابن حيان - أن موسى بن نصير بعد أن افتتح "سرقسطة" عبر جبال "ألبرتات" (ألبرتات) إلى الأرض الكبيرة وهي أرض الفرنجة أو "غالة" - وأنه قاد هذا الجهاد بنفسه - أو بالسرايا التي أرسلها - إلى "قطالونيا"، فاستولت على "برشلونة"، ومن هناك افتقرت جبال "ألبرتات"، وتوغلت في بلاد "غالة" فاستولت على "أربونة"، و"قرقسونة" و"أينيون" وحصن "لوندون" على نهر "رودنة" (أو /وادي الرون) (١). وهنا فكر القائد الجريء في أن يخترق بجيشه جميع بلاد أوروبا غازياً فاتحاً حتى يصل إلى الشام عن طريق القسطنطينية وهو ما يجمله ابن خلدون بقوله: « وجمع - أي موسى بن نصير - أن يأتي المشرق على القسطنطينية، ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس، ويخوض ما بينهما من بلاد الأعاجم وأمم النصرانية مجاهداً فيهم، مستلحماً لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة » (٢).

(١) نفح الطيب ٢٧٣/١ - ٢٧٤ العبر لابن خلدون ٢٥٥/٤ وتشير معظم الروايات إلى أن موسى وقف في زحفه عند "أربونة" (وراجع : دولة الإسلام في الأندلس لمحمد عبد الله عنان ٣٥٣/١).

(٢) العبر ١١٧/٤، نفح الطيب ٢٣٣/١.

وللباحثين العرب - إزاء هذه الروايات - رأيان :

أولهما : لا يُستبعد أن تكون بعض قوات موسى قد افتتحت " بَرَشْلُونَة " و " لارِدة " وجزءاً من إقليم " قَطَالُونِيَة " وأنها وصلت إلى جبال " ألْبَرْتَات " واجتازتها إلى " قَرَقَشُونَة " ^(١)، بقصد جَرْد هذه المنطقة واستكشافها. أما ما ذُكر بشأن اقتحام موسى - أو سراياه - لأرض " الفرنجة " ووصوله إلى " لُونْدُون " فأمرٌ يصعب قبوله، وكل ما فى الأمر - على ما يبدو - أنه قد وقع خلط بين أعمال موسى من فتح " قَطَالُونِيَة " ووصول عسكره إلى " قَرَقَشُونَة " وبين أعمال " عَنبَسَة بن سُحَيْم الكلبى " (ت ١٠٧ هـ) " وعُذْرَة بن عبد الله الفهرى " وغيرهما من ولاة الأندلس الذين وصلوا بفتوحاتهم إلى تلك المناطق ^(٢).

ثم إن القول بوصول موسى إلى " لُونْدُون " واقتحامه إياها يتعارض مع خطة الفتح الإسلامى التى تقتضى التؤدة، ولا يغيب عن موسى - وهو الذى عاتب قائد طارفاً على توغله بسرعة داخل البلاد بدون نظر إلى العواقب - محاذير مثل هذه السرعة وما يترتب عليها من تأخير فتح الشمال الإيبانى. كما أن الذهاب فى عمليات حربية خلف جبال " ألْبَرْتَات " ومواصلة الجهاد فى بلاد " غالة " (الإفرنج) يحتاج إلى تحضيرات جديدة بعد الانتهاء من فتح شبه الجزيرة الإيبيرية وإقرار الأوضاع فيها، وهذا ما يتماشى مع سياسة المسلمين فى فتوحاتهم التى جرت على أن الجيوش الإسلامية لا تتطرق إلى ميدان جديد إلا بعد تأسيس قاعدة قوية ومستقرة تساعد على هذا الانطلاق وتحقيق النصر. والمعروف أن فتح إسبانيا لم يتم إلا بعد أن دعم موسى بن نصير فتوح المغرب.

ويذهب الدكتور حسين مؤنس فى إطار هذا رأى إلى أن موسى بعد انتهائه من فتح " سَرَقَسْطَة " سار نحو " لارِدة " واستولى عليها، وبدأ يستعد للسير نحو " بَرَشْلُونَة " فى إقليم " قَطَالُونِيَا "، لكن الظروف لم تمهله للاسترسال وراء " لارِدة "، حيث وصل إليه أمر من الخليفة بالحضور إلى دمشق. : هذا يعنى - طبقاً لهذا القول - أن جيوش موسى بن نصير لم تعبر جبال ألْبَرْتَات، واتجهت نحو إتمام فتح الشمال الشرقى والغربى من شبه الجزيرة. ويعلق الدكتور مؤنس على ما ذكر فى المصادر بخصوص تطلُّع موسى للإتيان إلى

(١) راجع تاريخ علماء الأندلس لابن الفرغى ١٤٦/١، فتح الطيب ١/٢٧٨، ٩/٣.

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٠٤، وراجع ما ذكرناه عن الجهاد خلف

جبال ألْبَرْتَات فى عصر الولاة ص

دمشق عن طريق الأندلس مروراً بروما، ثم القسطنطينية - قائلًا: «ويقال إن نيته كانت معقودة على أن يتابع الطريق القيصري حتى "أَرْجُونَة" ومنها إلى روما، وأنه كان يزمع الاستيلاء على القسطنطينية من الغرب. وهو إصراف في أحسن الظن كما هو واضح، لأن المسافة بين طليطلة والقسطنطينية لا تقل عن ٨٠٠٠ (ثمانية آلاف) كيلو متر، كلها جبال ومرتفعات يحتاج قطعها إلى إعداد وعدد يصعب تصورهما»^(١).

والرأى الثانی : للمؤرخ الكبير - محمد عبد الله عنان - يؤكد وصول موسى بن نصير بجيشه إلى مملكة الفرنجة وأنه غزا وادي الرُّون (رُونَنَة) حتى مدينة "لُونُون" (ليون)، فاضطرب أمراء الفرنج، وأخذوا في الأهبة لرد الغزاة^(٢).

ويرى "عنان" أن موسى كان بمقدوره أن يحقق آماله الكبار وينفذ مشروعه العظيم عن طريق جيش ضخم يخترق جبال البرّت، ويؤازره من البحر أسطول قوى، يسير بإزاء الساحل الجنوبي لأوروبا، فيسيطر على دولة الفرنجة ثم بلاد "النبيرد" (لومبارديا) في شمال إيطاليا، ثم روما، ثم سهول نهر الدانوب حتى القسطنطينية، ومنها يعبر آسيا الصغرى حتى يدخل دمشق، ولم يكن ثمة ما يحول دون تنفيذ هذا المشروع، فقد كان الإسلام يومئذ في ذروة الفتوة والقوة والبأس، وكانت جيوشه تقتحم أرجاء العالم القديم ظافرة أينما حلت. ومن جهة أخرى لم تكن أوروبا في ذلك الحين سوى مزيج من الأمم والقبائل المتنافرة، يسودها الضعف والانحلال، وتمزقها المطامع والأهواء المختلفة، ولم تقم فيها زعامة قوية تجمع كلمتها وتنظم قواها في جبهة دفاعية واحدة، فكان الإسلام يستطيع غزوها وفتحها، ولكن سياسة الإحجام والتردد التي اتبعتها بلاط دمشق نحو الفتوح في الجهة الغربية - والتي كادت تحول دون فتح إسبانيا - أودت بذلك المشروع البديع، وكتب الوليد بن عبد الملك إلى موسى يأمره بالعودة، فارتد موسى أسفاً، ولكنه تمهل في العودة حتى يتم إخضاع معقل "جَلْبِيقَة"، التي اعتصمت بها فلول القوط، ويطهر إسبانيا بأسرها من كل خروج ومقاومة^(٣).

(١) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٣٩.

(٢) محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس ٥٣/١.

(٣) محمد عبد الله عنان المرجع نفسه ص ٥٤. وراجع د. إبراهيم العلوي : موسى بن نصير مؤسس المغرب

العربي ص ١١٥-١١٦.

الملاحظة الثانية : ومع أن المسلمين وصلوا بفتوحاتهم إلى الركن الشمالى الغربى - وهو الإقليم المسمى "أشتوريش" فى منطقة "جليقية" وشارفوا سواحل المحيط عند خليج "بِسكَاى" - فإنهم فى الواقع لم يفرضوا سلطانهم تماماً على هذه النواحي كلها، لوعورة مسالكها، وبرودة مناخها. وقد حدث أن بعض فلول الجيش القوطى المنهزم بزعامه قائد منهم يُدعى "بلاى" "PELAYO" (ت ٧٣٧م) أن تعتصم بالجبال الشمالية فى هذه المنطقة، وهى التى يسميها الإسبان بقمم أوروبا - فى سلسلة جبال "قَنْتَبْرِية" -، وهى عبارة عن ثلاثة جبال شامخة، وبها مغارة تعرف بكهف "كُوفَا دُونجا"، ويسميها العرب "صخرة بلاى"، لأنه اختبأ فيها هو وأصحابه، وكان عددهم لا يزيد عن الثلاثين - فيما بدا للقاتحين - فلما حاصروهم المسلمون وأعياهم أمرهم تركوهم وانصرفوا، استقلالا لعددهم، واستخفافا بشأنهم^(١).

وفى هذه البؤرة الصغيرة "كُوفَا دُونجا" - أو صخرة بلاى - نبئت نواة دولة إسبانيا النصرانية، ونبئت معها حركة المقاومة الإسبانية التى أخذت تنمو وتتسع حتى استولت على مدينة "ليون"، ثم سيطرت على جميع المنطقة الشمالية الغربية التى صارت تعرف بمملكة "ليون"، ولقد أحاطت هذه المملكة نفسها بسلسلة من القلاع والحصون لحماية نفسها من هجمات المسلمين، وعرفت هذه الحصون فى المصادر العربية باسم منطقة "القلاع" وكان أمراؤها تابعين لملوك ليون، ولم تلبث أن اتحدت - فى القرن العاشر الميلادى / الرابع الهجرى - بزعامه أقوى أمرائها "فرنان جنثالث"، واستقلت عن "ليون" وصارت تعرف بإمارة CASTILLA "قشتالة". ثم أخذت هذه المملكة الصغيرة - فى فترات الضعف والانقسام فى الأندلس - تنمو وتتوسع شيئاً فشيئاً على حساب جيرانها المسلمين والمسيحيين على السواء، حتى سيطرت على جميع أنحاء الأندلس، وأنهت الوجود الإسلامى هناك^(٢).

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٦. وراجع البيان المغرب ٢/ ٢٩.

(٢) راجع : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس للدكتور العبادى ص ٤٠-٤١، العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية فى عصر بنى أمية وملوك الطوائف - للدكتور رجب محمد عبد الحليم ص ٢٧-٢٨، ص ٣٢-٣٩، الأندلس فى التاريخ للدكتور شاكر مصطفى ص ٢٤. وسيأتى مزيد بيان عن هذا الموضوع (ص ٥٧-٥٨، ص ٨٥ وما بعدها).

عناصر السكان فى المجتمع الأندلسى

ولعل من المناسب هنا - وقبل البدء فى تناول التاريخ الأندلسى عبر عصوره المختلفة - أن نتحدث بإجمال عن عناصر السكان فى الأندلس بعد أن استقر المسلمون فى أرضها. وقد تنوعت هذه العناصر من حيث الجنس والعقيدة والثقافة ((وكان من طبيعة الأشياء أن يتصل بعضها ببعض، سواء بالمصاهرة أو بالعشرة أو بالمجاورة، وأن يأخذ كل منها عن الآخر ويعطيه، مما كان له أثره فى طبيعة الحضارة الأندلسية، بحيث كانت أشبه ببيتقة انصهرت فيها عقليات شتى، وثمرات ثقافات متباينة))^(١). ويمكن تقسيم عناصر السكان فى المجتمع الأندلسى - بصورة رئيسية - إلى المسلمين، وغير المسلمين.

أولاً : المسلمون : (العرب - البربر - الموالى - المولدون - الصقالبة).

١- العرب : دخلوا الأندلس على موجات متتابعة، وانتشروا فى أقاليمها المختلفة انتشاراً متغلغلاً، وخاصة المناطق الخصبة التى تفيض بالخيرات، وكانوا يمثلون أكثر القبائل العربية المعروفة فى المشرق، العدنانية منها واليمينية (القحطانية) إلا أن اليمينية - كما يقول المقرئ - ((هم الأكثر، والملك فيهم أرسخ، إلا ما كان من خلفاء بنى أمية))^(٢). وأول طالعة من العرب دخلت الأندلس طالعة موسى بن نصير (فى رجب ٩٣هـ)، وكانت تتألف من ثمانية عشر ألفاً من وجوه العرب والموالى وعرفاء البربر^(٣). ثم طالعة الحرّ بن عبد الرحمن الثقفى (ثالث الولاة) - فى ذى الحجة ٩٧هـ - إذ قدم والياً ومعه أربعمائة رجل من إفريقية. وكان أغلب عرب هاتين الطالعتين من اليمينيين، وسموا بالبلديين، لأنهم استقروا فى بلاد الأندلس واعتبروا أنفسهم من أهلها وأصحابها^(٤). ثم تلتى طالعة "بلج بن بشر القشتيرى" فى سنة ١٢٤هـ، وأغلبهم من العرب القيسييين، وكان عددهم يقرب من عشرة آلاف، منهم ألفان من الموالى، وثمانية آلاف من العرب.

(١) لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ١٧.

(٢) المقرئ : نفع الطيب ٢٩٣/١ . وقد ذكر المقرئ قائمة طويلة بأسماء القبائل العدنانية واليمينية التى استقرت بالأندلس وأماكن، نزولهم بها (٢٩٠/١ - ٢٩٨) .

(٣) فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ص ٢٠٧، نفع الطيب ٢٦٩/١.

(٤) تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ١٩ وما يليها، أخبار مجموعة - لمجهول ص ٤٦، ٤٤، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للدكتور السيد عبد العزيز سالم ص ١٢٠.

وسُموا بالشاميين تمييزاً لهم عن البلديين^(١) وقد بدأ النزاع ينشب بين هاتين الكتلتين، ثم تحول إلى صراع بين العصبية اليمنية والعصبية القيسية مثلما كان في المشرق، على نحو ما سنراه فيما بعد.

وكانت موجة الأمويين وأنصارهم ممن أتوا خلال فترة تأسيس الإمارة الأموية بالأندلس عربية، كما كانت ذات عدد لا يتصور إلا كبيراً، نظراً لما هو معروف من اضطهاد العباسيين للأمويين وأنصارهم بالشرق، ولما هو معروف كذلك من ترحيب عبد الرحمن الداخل وأبنائه من بعده ببنى أمية الوافدين عليهم، وبكل اللاتنيين بهم من المشرق عموماً^(٢).

ويرى بعض الباحثين أن عدد العرب الذين أتوا إلى الأندلس من شمال إفريقيا والشام وصل إلى ما يقرب من ثلاثين (٣٠) ألفاً، وارتفع هذا الرقم ليصبح نحو (٣٠٠) ألف بعد سنوات^(٣).

٢- البربر : وهؤلاء قاموا بدور هام فى فتح الأندلس، إذ كان الجيش الذى قاده طارق بن زياد يتألف كله من البربر، وما كادت أنباء النصر الذى أحرزه على القوط تصل إلى المغرب حتى هرع إلى الأندلس عدد هائل منهم بغية التماس الغنائم أو الاستقرار فى هذه البلاد الغنية^(٤).

وينتمى هؤلاء البربر الذين دخلوا الأندلس إلى "مطفرة" و"مديونة" و"مكناسة" و"هواره" وكلها متفرعة من "زناتة". إضافة إلى "مغيلة" و"ملزوزة" و"تفزة" و"أوربة" و"مصنودة"^(٥). وهؤلاء تركز وجودهم فى المناطق الجبلية خاصة فى الشمال الغربى ووسط الأندلس، وأراضى "السهلة" ووادى الحجاره وإشبيلية وما حولها، وذلك لتشابه ظروفها مع ظروف الحياة والبيئة فى مواطنهم الأصلية. وقد اشتغلوا بالزراعة وتربية الماشية، ويسر لهم مواطنهم فى مناطق الحدود - وغيرها من المناطق الجبلية - القيام

(١) تاريخ إفتتاح الأندلس ص ١٥.

(٢) راجع، الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة للكثير أحمد هيكل ص ٣٢.

(٣) د. عبد الله جمال الدين : المسلمون فى الأندلس (موسوعة سفير للتاريخ الإسلامى ج ٧ ص ٨٢).

(٤) فتح الطيب ٢٥٩/١، راجع : د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٢٢.

(٥) ابن خلدون: العبر ١٠٦/٦، جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٤٩٨ - ٥٠٣ (ط دار المعارف).

بعده ثورات أفضت في النهاية إلى سقوط الخلافة الأموية (٤٢٢هـ / ١٠٣١م). واستأثر جماعة منهم بالأقاليم الجنوبية بالأندلس على عهد ملوك الطوائف^(١).

٣- الموالى: وهم مجموعة من عناصر مختلفة تجمع بينها رابطة الولاء بين المولى وسيده، أو التابع ومتبوعه. ويرجع هؤلاء إلى أصول مختلفة، فبعضهم رافق الشاميين الذين دخلوا الأندلس، وعرفوا - بذلك - باسم " موالى الشاميين ". وبعضهم كلن من البربر الذين أسلموا ورافقوا سادتهم في دخول الأندلس، فسُمُّوا باسم " الموالى البلديين " وبعضهم من الإسبان الذين دخلوا في ولاء بنى أمية بعد الفتح الإسلامي فأصبحوا موالى "اصطناع" أو " النعمة " الذين أنعم عليهم الأمويون بالولاء اعتزازاً وتقديراً أمثال "بنى قيسى" و "بنى غوميس" و "بنى مرتين"^(٢).

وقد أدى الموالى دوراً هاماً في تاريخ الأندلس الإسلامية، إذ اعتمد عليهم بنوا أمية وقلدوهم أهم مناصب الدولة، لتفانيهم في الإخلاص، فكان منهم الوزراء والكتّاب والقواد والقضاة، من أمثال " بنى عبدة " و " بنى شهيد " و " بنى مغيث " و " بنى جهور ".

وكان للموالى مشاركة في الثورات التي عمت الأندلس في عصر الاضمحلال الأول، أو دويلات الطوائف الأولى، وهي فترة امتدت ما يقرب من ثلثى قرن (٢٣٨-٣٠٠هـ / ٨٥٢-٩١٢م) تميزت خلالها وحدة الأندلس، وقام الثوار في سائر أنحاء بشق عصا الطاعة، واستقلوا بحكم المناطق التي ثاروا فيها، وتقلص نفوذ بنى أمية وأصبح سلطانهم لا يتعدى قرطبة ونواحيها. ومن هذه الثورات الثورة التي قام بها الموالى بإلبيرة في إمارة عبد الله بن محمد (٢٣٨هـ - ٢٧٣هـ) بقيادة عبد الوهاب بن جرج^(٣).

٤- المؤكّدون: وهم القوط والإسبان الذين أسلموا منذ بدايات الفتح، وصاروا جزءاً من نسيج المجتمع الإسلامي إلى جانب العرب والبربر. ويسمّون أيضاً "الأسالمة" أو "المسالمة" أو "أسالمة أهل الذمة" إذا كان إسلامهم حديثاً.

(١) راجع المسلمون في الأندلس (موسوعة سفير ٨٢/٧)، فجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس ص ٣٨٨، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس للسيد عبد العزيز سالم ص ١٢٣، الإسلام في إسبانيا للدكتور لطفى عبد البديع ص ٣٢.

(٢) د. عبد الله جمال الدين : مرجع سابق ص ٨٣ ، ود. السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ١٢٦، د. حسين مؤنس: فجر الأندلس ص ٤٠٧، ٤٠٤. وراجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٥٠٢-٥٠٣.

(٣) المقتبس في تاريخ الأندلس لابن حيان (قطعة نشرها د. إسماعيل العربي - ط المغرب ١٩٩٠م) - ص ٥٢ - ٥٣، البيان المغرب لابن عذارى ١٣٧/٢. وراجع تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس للسيد عبد العزيز سالم ص ٢٤٣. وسيأتى مزيد بيان عن هذه الفترة (ص ٧٦).

ويعرف أولئك "المُولَدون" فى الإسبانية بالخوارج والمرتدين (Renegados) أى الذين ارتدوا عن دينهم القديم، وهو النصرانية.

وقد اندمج "المُولَدون" فى المجتمع الإسلامى، بحيث أصبح من الصعب - بعد جيل أو اثنين - تمييزهم من المسلمين الأصليين، وغدوا بمضى الزمن عنصراً من أهم عناصر السكان إن لم يكن أهمها جميعاً، من حيث الكثرة أو المستوى الاجتماعى والحضارى^(١).

هذا هو الصحيح فى التعريف بالمولدين. ويرى بعض الباحثين أنهم جيل جديد ولدوا من آباء مسلمين (سواء كانوا عرباً أو بربر) وأمهات أعجميات (سواء كن إسبانيات أو غير ذلك) ونشأوا على الإسلام، ثم تنامي عددهم نتيجة كثرة اعتناق أهل البلاد الإسلام، وشيوع ظاهرة الزواج المشترك^(٢).

وحرى بنا ألا ننسى - فى تحليل نشاط المصاهرة بين الفاتحين (العرب والبربر) وأهل البلاد الأصليين - أن هؤلاء الفاتحين (وخاصة من العرب) دخلوا إسبانيا جيوشاً منظمة، ولم يصطحبوا معهم نساءهم وأولادهم إلا القليل النادر منهم، ومن ثم لم يكن لهم بدءاً من اتخاذ النساء من أهل البلاد، ومن هنا أصبح التزاوج بين الجانبين أمراً لا مفر منه^(٣).

أما عن النواحي التى تركز فيها المولدون فقد كانوا يشكلون الغالبية العظمى من السكان المسلمين فى الجنوب والشرق، وخاصة فى كورة "البيرة" التى شهدت معارك طاحنة بينهم وبين الدولة فى زمن الفتنة الكبرى التى عمت أقطار الأندلس خلال القرن الثالث الهجرى واستمرت ستين عاماً تقريباً (٢٣٨-٣٠٠هـ/٨٥٢-١٨٦م)^(٤) وكان من

(١) راجع: دولة الإسلام فى الأندلس، لمحمد عبد الله عنان ٢٠٦/١.

(٢) راجع: تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للدكتور السيد عبد العزيز سالم ص ١٢٨، المجتمع الإسلامى فى العصر الأموى للدكتور حسين يوسف دويدار ص ٤١، المسلمون فى الأندلس، للدكتور عبد الله جمال الدين (موسوعة سفير ٨٣/٧).

(٣) راجع: تاريخ الفكر الأندلسى - لجنتا لثالث بالنتيا (ترجمة د. حسين مؤنس) - الصفحة الأولى من الفصل الأول. وقد تتبع الدكتور أحمد مختار العبّادى ظاهرة زواج العرب من الإسبانيّات على مستوى الولاة والأمراء والعلماء والقضاة والكتاب وعامة الشعب (راجع بحثاً له بعنوان "الإسلام فى أرض الأندلس" - مجلة عالم الفكر - عدد مختار منها تحت عنوان: دراسات إسلامية - ص ٩٦-٩٩).

(٤) تاريخ النصارى فى الأندلس للدكتور عبادة كحيلة ص ٣٩-٤٠.

أخطر الحركات الثورية التى قاموا بها فى تلك الفترة حركة عمر بن حفصون المرتد - زعيم المولدين - فى الفترة من (سنة ٢٦٥هـ / ٨٨١م) إلى (سنة ٣٠٥هـ / ٩١٧م). وسيأتى الحديث عن الفتن والثورات التى قام بها "المولدون" فى قرطبة وإشبيلية وطليطلة وغيرها من المدن الأندلسية^(١).

وقد كان من شأن كثرة أبناء هذا الجيل المولد انتشار اللغة العجمية أو "اللطينية" - كما يسميها المؤرخون العرب - بين الأندلسيين من عرب وبربر، وهى ما يطلق عليها اسم اللغة "الرومانثية" (الإسبانية العامية). ومن طريق المولدين تداخلت العربية والرومانثية تداخلا كان من مظاهره ظهور "العامية العربية الأندلسية" ونشأة فن الموشحات والأزجال^(٢).

٥- **الصقالبة**: وتطلق هذه الكلمة على الشعوب السلافية، ثم أصبح العرب يطلقونها على الأرقاء الذين يجلبون من الأمم المسيحية ويستخدمون فى القصور أو الجيش عن طريق الشراء بواسطة تجار اليهود، أو عن طريق الحملات العسكرية. وكان أغلبهم يؤتى بهم أطفالا من حوض نهر الدانوب وبلاد الفرنجة، فتتعهده الدولة برعايتهم وينشأون نشأة إسلامية ويدربون على أعمال البطانة وشئون القصر^(٣).

وقد عمد أمراء بنى أمية منذ تأسيس دولتهم إلى اصطناع الموالى والرفيق الصقالبة والاستعانة بهم فى تدعيم سلطانهم.

وأول من استجلب الصقالبة إلى الأندلس الأمير عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) (١٣٨-١٧٢هـ / ٧٥٥-٧٨٨م)^(٤)، ثم استكثر منهم الأمير الحكم بن هشام المعروف بالحكم الربضى (١٨٠-٢٠٦هـ / ٧٩٦-٨٢٢م)، جلب منهم خمسة آلاف وأطلق عليهم اسم "الخرس" لعجمتهم^(٥) واستعان بهم فى إخماد ثورة "الربض" بقرطبة^(٦).

(١) راجع عن ذلك ص ٦٧، ص ٧٦ - ٨٣.

(٢) د. لطفى عبد البديع: الإسلام فى إسبانيا ص ٢٥، د. حسين مؤنس: فجر الأندلس ص ٣٧٧، البير حبيب مطلق: الحركة اللغوية فى الأندلس من الفتح حتى نهاية عصر ملوك الطوائف ص ٣١-٣٢. وراجع عن فن الموشحات: الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة للدكتور أحمد هيكال ص ١٤٣ وما بعدها.

(٣) د. عبد الله جمال الدين: المسلمون فى الأندلس (موسوعة سفير ج ٧ ص ٨٣)، الحجى: التاريخ الأندلسي ص ٢٨٤. وراجع: صورة الأرض (أو: المسالك والممالك) لابن حوقل ص ١٠٥-١٠٦، ص ٣٣٣. مروج الذهب للمسعودي ٣٠٥/١.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب ٢٨/٢.

(٥) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس ٢٥٠/١. (٦) سيأتى الحديث عن هذه الثورة ص

ثم أخذت أعدادهم فى الازدياد، وخاصة فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) حيث روى أن عددهم وصل فى قرطبة وحدها فى عهده نحو ثلاثة عشر ألفا وسبعمائة وخمسين^(١).

وقد نبغ عدد كبير منهم، ووصل الكثيرون إلى مناصب هامة وقبائية فى الإدارة والجيش، واشتدت شوكتهم، وكان لهم دور بارز فى الحياة السياسية، حيث تدخلوا فى تولية الأمراء وعزلهم، وشاركوا - مثل البربر - فى غمار الفتن والمؤامرات التى اندلعت فى قرطبة وغيرها. كما كان لهم مشاركة جيدة فى الحياة العلمية، وبرز من بينهم أسماء عديدة لامعة فى كثير من فنون العلم - وقد صنف أحدهم كتابا فى فضائلهم وسماه "الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقلية" لحبيب الصقلية، وهو من صقلية الخليفة هشام المؤيد (٣٦٦-٤٠٣هـ)^(٢).

ثانيا: غير المسلمين:

١- العجم أو المستعربون: هم نصارى الإسبان الذين كانوا يعاشرون المسلمين ويتكلمون العربية مع احتفاظهم بدينهم، وكان العرب يسمونهم بعجم النمة. أما من كان لهم عهد منهم فقد سموا بالمعاهدين^(٣).

وكان المستعربون - أو العجم - فى الأندلس يؤلفون جمهرة سكان البلاد فى السنوات الأولى التى تبعت الفتح الإسلامى، ولكن عددهم أخذ يتناقص تدريجيا، بينما أخذ عدد "المسالمة" يزداد يوما بعد يوم. وما لبث المستعربون أن أصبحوا بمرور الزمن أقلية بالنسبة للمسالمة والمولدين. وقد عومل هؤلاء المستعربون منذ الفتح معاملة طيبة، وتمتعوا بنعمة الإنصاف والسياسة العادلة. وضمنت حرياتهم فى إقامة شعائرهم، وأقروا على أموالهم ودينهم بأداء الجزية وعاشوا مع المسلمين جنبا إلى جنب فى أحياء خاصة بهم، وكان لهم رئيس فى كل مدينة يعرف "بالقُومس"، كما كان لهم قاض نصرانى يعرف بقاضى النصارى أو العجم، يفصل فيما يكون من منازعاتهم بمقتضى القانون القوطى.

(١) أعمال الأعمال للسان الدين بن الخطيب ص ٤٠.

(٢) من الأبحاث الجيدة عن الدور السياسى والعسكرى والثقافى والاجتماعى للصقلية فى الأندلس بحث الدكتور وفاء عبد الله سليمان، بعنوان "نفوذ الصقلية فى الأندلس فى عصرى الإمارة والخلافة (١٣٨-٣٦٦هـ) - ندوة الأندلس قرون من الثقلبات والعطاءات" الرياض ١٩٩٣م.

(٣) د. السيد سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٣٠.

وإذا كان المتخصصون مسلمين ومسيحيين فيفصل بينهم قاض مسلم يعرف بقاضى الجماعة^(١).

والاستعراب يمثل وسيلة من وسائل تأثير الثقافة العربية الإسلامية فى غير المسلمين من الأديان، حيث كان المستعربون يستعملون اللغة العربية فى مخاطباتهم ومعاملاتهم، ويتعلمون آدابها وعلومها، ويأخذون بأساليب الحياة الإسلامية. وقد بلغ الأمر بهم أن صاروا مولعين بالتراث العربى من أدب وشعر، حتى جأ المطران "ألبرو القرطبى" بشكواه من انتشار الثقافة العربية بين شبيبة النصارى، بحيث لا يروقه إلا الشعر والتقصص العربى، ولم يعودوا يقرءون إلا كتب المسلمين^(٢).

والمستعربون بحكم معرفتهم للغتين العربية واللاتينية كانوا أداة اتصال بين شطرى إسبانيا، وهم - منذ الفتح الإسلامى لشبه الجزيرة الإيبيرية - لم ينقطعوا عن الهجرة إلى الممالك المسيحية فى الشمال، وقد كثر ذلك فى عهدى المرابطين والموحدين، فقد هاجر من سكان بلنسية منها إلى قشتالة (سنة ٤٩٦هـ/١١٠٢م)، وخرجت طائفة كبيرة منهم من غرناطة تبلغ عشرة آلاف مع جيش ألفونسو الأول ملك "أرغون" إبان حملته سنة (٥١٩هـ/١١٢٥م) التى اجتاحت فيها أرض الإسلام حتى أدرك قرطبة وإشبيلية. وخرجت طائفة أخرى من إشبيلية إلى قشتالة (سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م). وكان من شأن هذه الهجرات وأمثالها انتشار الحضارة العربية والإسلامية بين أهل الشمال من المسيحيين^(٣).

٢- اليهود: استوطن عدد كبير منهم فى "قرطبة"، ولهم فيها باب يعرف باسمهم وسكن عدد آخر فى إشبيلية، واستوطنت جماعة كبيرة منهم فى "طليطلة" و"برشلونة" و"طرُكُونة". وقد عانى اليهود كثيراً من اضطهاد الرومان والقوط لهم قبل الفتح الإسلامى.

(١) د. السيد سالم: المرجع السابق ص ١٣٠-١٣١، د. لطفى عبد البديع: الإسلام فى إسبانيا ص ٢٨، د. عبد الرحمن الحجى: التاريخ الأندلسى ص ٢٨٤، وراجع تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٥، ص ٣٨.

(٢) د. لطفى عبد البديع: المرجع نفسه ص ٢٨، وراجع: جنتال بالنتيا: تاريخ الفكر الأندلسى (ترجمة د. حسين مؤنس) ص ٤٨٥-٤٨٦، د. عبادة كحيلة: تاريخ النصارى فى الأندلس ص ١١٥-١١٦.

(٣) د. لطفى عبد البديع: المرجع نفسه ص ٣٠-٣١ وراجع حديثاً مطولاً عن إسهامات المستعربين فى نقل العلوم الإسلامية - كالأدب والرياضيات والفلك - إلى إسبانيا النصرانية ثم إلى أوروبا كلها - راجع عن ذلك: الجوانب الحضارية فى بغداد وقرطبة فى القرنين الثالث والرابع الهجريين (دراسة فى الحياة العلمية)، رسالة دكتوراة - كلية دار العلوم - من إعداد طه عبد المقصود عبد الحيد ص ٩٤٢-٩٤٦ (المجلد الثانى) .

أما فى ظل الإسلام فقد تمتعوا بقدر كبير من الحرية، واندمجوا فى المجتمع الإسلامى، وتعلموا العربية وثبتوا تقاليد المسلمين، وكان لهم نشاط كبير ومؤثر فى نقل التأثيرات الحضارية بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية فى جميع مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية؛ إذ كانوا يجيدون بالإضافة إلى اللغة العبرية اللغتين العربية واللاتينية، وكان منهم التجار والحرفيون والمترجمون، وشاركوا فى مناصب الدولة، فكان منهم الوزراء والكتاب والسفراء، ونىغ عدد كبير منهم فى مجالات الطب والفلسفة والفلك والرياضيات^(١).



(١) راجع طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ص ٨٧-٩٠، المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد ٤٤١/٢-٤٤٤ (باب: العلوم فى بنى إسرائيل)، المسلمون فى الأندلس - للدكتور عبد الله جمال الدين (موسوعة سفير ٨٣/٧)، طه عبد المقصود عبد الحميد : الجوانب الحضارية فى بغداد وقرطبة فى القرنين ٤،٣هـ - (رسالة دكتوراه) ص ٩٤٦-٩٤٩ .

الفصل الثاني

عصر الولاة (٩٥-١٣٨هـ/٧١٤-٧٥٥م)

يقصد بالولاة: حكام الأندلس الذين عيّنتهم الحكومة الأموية بدمشق، أو (والى) الشمال الإفريقى الذى كانت الأندلس تابعة له أحياناً. وقد استمر عهد الولاة اثنتين وأربعين سنة، تولى خلالها عشرون والياً (حكم اثنان منهم مرتين)، وهذا يعنى أن متوسط حكم الوالى يقل عن سنتين، وهذا يعنى أيضاً أن عدم الاستقرار السياسى هو السمة الغالبة على هذه الفترة. وستعرف الأسباب التى دفعت إلى ذلك.

وهذه قائمة بأسماء الولاة الأندلسيين بعد الفتح الذى قاده موسى بن نصير وطلّح بن زياد وآخرون؛ مع ذكر تواريخ بداية ولاياتهم وانتهائها^(١):

- ١- عبد العزيز بن موسى بن نصير = سنة وعشرة أشهر (ذى الحجة ٩٥هـ - رجب ٩٧هـ/٧١٤-٧١٦م).
- ٢- أيوب بن حبيب اللخمى = ستة أشهر (رجب ٩٧هـ - ذى الحجة من العام نفسه).
- ٣- الحر بن عبد الرحمن الثقفى = سنتان وثمانية أشهر (ذى الحجة ٩٧هـ - رمضان ١٠٠هـ/٧١٦-٧١٩م).
- ٤- السمع بن مالك الخولانى = سنتان وثلاثة أشهر (رمضان ١٠٠هـ - ذى الحجة ١٠٢هـ/٧١٩-٧٢١م).
- ٥- عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى (الولاية الأولى: شهران - إلى صفر ١٠٣هـ).
- ٦- عنبسه بن سحيم الكلبي = أربع سنين وستة أشهر (صفر ١٠٣هـ - شعبان ١٠٧هـ/٧٢٥-٧٢١م).
- ٧- عذرة بن عبد الله الفهرى = شهران (حتى شهر شوال ١٠٧هـ).
- ٨- يحيى بن سلمة الكلبي = سنتان وستة أشهر (شوال ١٠٧هـ - ربيع الأول ١١٠هـ/٧٢٦-٧٢٨م).

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٣٥-٢٣٨، ٢٩٨-٢٩٩.

- ٩- حذيفة بن الأحوص القيسي = ستة أشهر أو أكثر (ربيع الأول ١١٠هـ — — —
شعبان من العام نفسه).
- ١٠- عثمان بن أبي نُسَعة الخثعمي = خمسة أشهر (شعبان ١١٠هـ — المحرم ١١١هـ/٧٢٩م).
- ١١- الهيثم بن عُبيد الكنانى (المحرم ١١١هـ ولمدة عشرة أشهر).
- ١٢- محمد بن عبد الله الأشجعي = شهران (ذى الحجة ١١١هـ — المحرم ١١٢هـ/٧٢٩-٧٣٠م).
- ١٣- عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي = الولاية الثانية لمدة سنتين وثمانية أشهر (صفر ١١٢هـ — رمضان ١١٤هـ/٧٣٠-٧٣٢م).
- ١٤- عبد الملك بن قُطَن الفهري = الولاية الأولى لمدة سنتين (شوال ١١٤هـ — شوال ١١٦هـ/٧٣٢-٧٣٤م).
- ١٥- عقبة بن الحجاج السُّلُولى = خمس سنوات وشهران أو أكثر (شوال ١١٦هـ — صفر ١٢٢هـ/٧٣٤-٧٤٠م).
- ١٦- عبد الملك بن قُطَن الفهري = الولاية الثانية لمدة سنة واحدة وشهر واحد (صفر ١٢٢هـ — ١٢٣هـ/٧٤٠-٧٤١م).
- ١٧- بُلُج بن بشر القشيري = أحد عشر شهراً أو أقل (ذى القعدة ١٢٣هـ — شوال ١٢٤هـ/٧٤١-٧٤٢م).
- ١٨- ثعلبة بن سلامة العاملي = عشرة أشهر أو أقل (شوال ١٢٤هـ — رجب ١٢٥هـ/٧٤٢-٧٤٣م).
- ١٩- أبو الخطَّار حسام بن ضرار الكلبى = أربع سنوات وستة أشهر أو أقل (رجب ١٢٥هـ — ١٢٧هـ/٧٤٣-٧٤٥م).
- ٢٠- ثُوبة بن سلامة الجذامي = سنة واحدة أو أكثر (رجب ١٢٨هـ — ١٢٩هـ/٧٤٥-٧٤٧م).
- ٢١- عبد الرحمن بن كثير اللخمي = بضعة أشهر (أوائل سنة ١٢٩هـ/٧٤٦م).
نصبه أهل الأندلس "للحكام خاصة"^(١)، أى للقضاء.

(١) نفح الطيب ٢٣٨/١، البيان المغرب ٣٥/٢.

٢٢- يوسف بن عبد الرحمن الفهرى (آخر الولاة) = تسع سنوات وتسعة أشهر
أو أكثر (ربيع الثاني ١٢٩هـ - ١٣٨هـ/٧٤٧-٧٥٥م). وجدّه هو عقبه بن
نافع صاحب "إفريقية" ومؤسس مدينة "القيروان".

الملاح العامة لعصر الولاة:

أولاً: تنظيم البلاد وإصلاحها:

١- قبل أن يغادر موسى بن نصير الأندلس (مع طارق بن زياد) عيّن
ولده عبد العزيز والياً عليها، فكان أول ولاتها من المسلمين، وقضى فى ولايته زهاء
عامين غنى فيها بتحسين الثغور، وافتتح عدة أماكن وحصون، وأبدى همة فى تنظيم
الحكومة وإدارتها، وأنشأ ديواناً لتطبيق الأحكام الشرعية وتنسيقها، واختار "إشبيلية"
عاصمة للأندلس^(١). وبقيت كذلك حوالى ثلاث سنوات حتى انتقلت إلى قرطبة فى ولاية
أيوب بن حبيب اللخمى (الوالى الثانى) - وهو ابن أخت موسى بن نصير - أو فى ولاية
الحرّ بن عبد الرحمن النقي^(٢). واستمرت قرطبة عاصمة للأندلس حتى نهاية عهد
الخلافة الأموية أوائل القرن الخامس الهجرى.

٢- كانت الأندلس ولاية تابعة لإشراف الشمال الإفريقى وتُحكم من قبل والى
إفريقية، فظلت كذلك إلى زمن الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ)، فقرر
أن تكون ولاية مستقلة عن "إفريقية" تابعة للخلافة مباشرة إدراكاً منه لأهمية الأندلس،
وللدور الذى تقوم به فى الفتوحات، ولصراعها مع ملوك الفرنجة.. وقد عيّن السمع بن
مالك الخولانى والياً عليها (فى رمضان سنة ١٠٠هـ - ذى الحجة ١٠٢هـ) «وأمره أن
يحمل الناس على طريق الحق، ولا يعدل بهم عن منهج الرفق»^(٣).

ولما توفى عمر عاد تعيين والى الأندلس إلى والى إفريقية، لكن بموافقة الخليفة،
وبعد موقعة "بلاط الشهداء"^(٤) - سنة ١١٤هـ/٧٣٢م. عادت الخلافة إلى تعيين والى

(١) دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان ٧١/١، التاريخ الأندلسى للحجى ص ١٣٦، وراجع البيان
المغرب، ٢٣/٢-٢٤.

(٢) البيان المغرب ٢٥/٢.

(٣) البيان المغرب ٢٦/٢.

(٤) سيأتى الحديث عن هذه الواقعة قريباً ص ٤٩.

"الأندلس" من جديد، ولما اضطربت الأمور أصبح والى إفريقية هو الذى يعينه حيناً، وأحياناً جماعة الزعماء والقادة فى شبه الجزيرة، فقد استقر رأيهم - مثلاً - على تعيين يوسف بن عبد الرحمن الفهرى سنة (١٢٩هـ/٧٤٧م) خشية تفاقم الفتن دون موافقة، لا من والى إفريقية ولا من الخلافة^(١).

٣- وقد قُسمت الأندلس - إدارياً - إلى ولايات كبرى، على ضوء تقسيمها القديم أيام الرومان والقوط، وتضم كل ولاية عدداً من المدن^(٢).

أ- فولاية الجنوب تمتد بين البحر المتوسط ونهر الوادى الكبير، وما يلى هذا النهر حتى وادى "أنة" - أو (بانه). وتضم: "قرطبة"، و"إشبيلية"، و"مالقة".

ب - ومتوسطة الأندلس: من البحر المتوسط شرقاً لى حدود "لوزيتانيا" (البرتغال القديمة) غرباً، ثم إلى نهر "تويزة" شمالاً. ومن أشهر قواعدها: "طليطلة"، و"قونية" و"بلنسية"، و"مرسية"، و"لوزقة"، و"بسة"، وغيرها.

ج- والثالثة: جليقية ولوزيتانيا (البرتغال القديمة). وأشهر قواعدها: ماردة، و"باجة"، و"أشبونة"، و"قلمرية"، و"سلمنة"، و"أسترة" وغيرها.

د- وتمتد الولاية الرابعة من نهر "تويزة" إلى جبال "البرت" على ضفتى نهر "إيزرو" وأشهر قواعدها: "سرقسطة"، و"طرطوشة"، و"طركونة"، و"برشلونة"، و"وشقة"، و"بشتر"، وغيرها.

هـ- ولما اتسع نطاق الفتوح الإسلامية شمالاً أنشأت ولاية خامسة شمالى جبال البرت، شاملة "أربونة" و"قرقسونة" وغيرها^(٣).

٤- وفى هذه الولايات والمدن تفرقت القبائل والعشائر المختلفة، عربية وبربرية واستقرت بها، وكان أكثرهم من مسلمى البربر، وقد استقروا فى كل ناحية، وليس صحيحاً أن المسلمين العرب استأثروا بأحسن النواحي. ولعل سكنا بعض النواحي الجبلية من قبل مجموعات من مسلمى البربر قد تم بناءً على رغبتهم، وذلك يتناسب مع ما اعتادوا عليه

(١) البيان المغرب ٣٥/٢، المسلمون فى الأندلس للدكتور عبد الله جمال الدين (موسوعة سفير ٨٤/٧).

(٢) راجع: دولة الإسلام فى الأندلس ٧٠/١.

(٣) راجع أسماء هذه المدن وأماكنها على الخريطة.

فى الشمال الإفريقى ((إذ كانوا يرغبون عن سكنى المدن والقرى، وإنما بغيتهم سكنى الجبال والصحارى^(١)).

وأغلب العرب استقروا فى قرطبة وإشبيلية، وجيَّان، وشذونة، والجزيرة، و"رية"، و"مالقة"، و"طليطلة"، و"شُرِش"، و"إلبيرة" (غرناطة)، و"تَنْمِير"، و"ماردة"، و"أشبونة" (الشبونة). وأما البربر فقد نزل أغلبهم بالأطراف الغربية، وفى نواحي "لاردة" و"بُطْلَيْوس" وأراضى البرتغال، ونواحي الثغر الأوسط شمالى طليطلة فيما وراء نهر التاجه. وفى بعض أنحاء الثغر الأعلى، وفى قطاع "قُونَقَة" و"السَّهْلَة"^(٢).

٥- وبالرغم من الظروف الصعبة التى مر بها المسلمون فى هذه الفترة، وكثرة مشاكل الحكم، وقلة المدد الذى تلقوه من الحكومة المركزية فإنهم استطاعوا تسيير الأمور على نحو لا بأس به، فلم يظلموا من أهل البلاد أحداً. بل نشروا دينهم عدلاً لم تعرفه البلاد قبل ذلك، وعنوا بالكثير من المرافق كالقناطر والطرق وشبكات الري، وأنشأوا المساجد فى كل نواحي الأندلس تقريباً. يقول محمد عبد الله عنان: ((كان فتح الإسلام لإسبانيا فاتحة عصر جديد، وبدأ تطوُّر عظيم فى حياتها العامة، وفى نظمها الاجتماعية... وبالرغم من أن العرب شغلوا حيناً بتوطيد الفتح الجديد وتوسيعه فإنهم استطاعوا فى أعوام قلائل أن يقمعوا عناصر الشر والفوضى، وأن ينظموا إدارة البلاد المفتوحة، وأن يبثوا فى الجزيرة روحاً جديداً من العزم والأمل، فنشطت الزراعة والصناعة والتجارة بعد ركودها، وهبَّت ريح من الرخاء على مجتمع أضناه العنف والفاقة مدى عصور^(٣)).

ومن أمثلة الإصلاحات التى قام بها الولاة فى المجال المالى والعمرانى والنشاط الاقتصادى: ما قام به السَّحْج بن مالك الخولانى (١٠٠-١٠٢هـ) من النظر فى أراضى الأندلس فقد عمل حصراً شاملاً لها، ومسح كثيراً من مدنها وجبالها وأنهارها، وطبيعة أرضها ومنتجاتها، وميَّز ما فُتِح صلحاً مما فُتِح عنوة، وخمَّس جميع أراضى الأندلس، أى

(١) البيان المغرب ٢٣/٢ ونفع الطيب ٢٧٦/١، ٢٨٠. وراجع: التاريخ الأندلسى للحجى ص ١٣٧ - ١٣٩.

(٢) دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان ٧٠/١-٧١. وقد أعطى ابن حزم فى كتابه "جمهرة أنساب العرب" بياناً مفصلاً عن القبائل والبطون البربرية التى نزلت فى شبه الجزيرة والنواحي التى نزلت بها (راجع الجمهرة ٤٦١ - ٤٦٦ ط دار المعارف، القاهرة ١٩٤٨م).

(٣) دولة الإسلام فى الأندلس ٦٢/١.

قرر عليها الخراج بنسبة الخمس، ووزع بعض الأراضي على الزراع على أساس المزارعة (أى المناصفة فى الغلة)^(١). كما أنه أعاد بناء قنطرة قرطبة الشهيرة على نهر الوادى الكبير التى تصل بين مدينة قرطبة وربضها "شُقُندة"، وهى التى وصفها الرازى - المؤرخ الأندلسى - بأنها من أعظم آثار الأندلس وأعجبها^(٢).

ولعل من أهم التحولات الاقتصادية المبكرة فى الأندلس إلغاء نظام عبيد الأرض، إذ تمّ تحرير هؤلاء من العبودية، ولم يعد ملاك الأرض يتحكمون فيهم، بل صاروا يستأجرون الأراضي، ويعملون فيها، مقابل إخراج جزء من الغلة للمسلمين، وكان لذلك أثره البالغ فى إحساس الناس بالعدالة والرفاهية^(٣).

أما عن سياسة الولاة مع أهل البلاد الأصليين (غير المسلمين) بعد الفتح الإسلامى فقد كانت على درجة عالية من العدل والإنصاف والتسامح والوفاء بالعهود. وقد كثرت أقوال المفكرين الغربيين فى الإشادة باعتدال السياسة الإسلامية وتسامحها فى الأندلس، ونكتفى هنا بذكر شهادة المستشرق العلامة "رينهارت دوزى" فى كتابه (المسلمون فى الأندلس) إذ يقول: ((كان الفتح العربى خيراً على إسبانيا، فقد أحدث ثورة اجتماعية خطيرة، وقضى على شطر كبير من المساوئ التى كانت البلاد ترزح تحتها منذ عدة قرون. أما سلطان أصحاب الامتيازات والكهنوت والأشراف فقد تضاعف إلى حد التلاشى، وظهرت الملكيات الصغيرة نظراً لتوزيع الأراضي على عدد كبير جداً من الناس، مما انطوى على الخير العميم، وكان ذلك من أحد الأسباب التى أدت إلى ازدهار الزراعة. كذلك عمل الفتح على تحسين حال الطبقات الدنيا، وكان الإسلام أميل من النصرانية لتحرير العبيد الذين يسوا من تحريرهم على أيدى القسوس أيام الحكم القوطى))^(٤).

ويقول دوزى فى موضع آخر: "وعلى وجه العموم فإنه يمكن القول بأن المسيحيين احتفظوا بمعظم أملاكهم، بل لقد أصبح لهم الحق فى التصرف فيها بالبيع، وهو

(١) البيان المغرب ٦٢/٢، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس - القسم الأندلسى للدكتور عبد الفتاح فتحى عبد الفتاح ص ٢١٣.

(٢) نفح الطيب ٤٨٠/١، البيان المغرب ٢٦/٢.

(٣) دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٢١٣.

(٤) رينهارت دوزى: المسلمون فى الأندلس (ترجمة د. حسن حبشى) ج ١ ص ٤٨-٤٩.

حق كان محرماً عليهم أيام القوط، غير أن الحكومة فرضت عليهم دفع جزية سنوية تقسم على أقساط (شهرية) يَبْدَأُ أنها رفعتها عن النساء والأطفال والرهبان والزُّمْتَى والعُمَى والمرضى. أضف إلى ذلك أنه كان مفروضاً على الملاك دفع الخراج، وهو ضريبة تُجْبَى عن المحصول وتحدد طبقاً لطبيعة أرض كل كورة، ووضعت الجزية عمن يسلمون. أما الخراج فيستمر رغم إسلام المالك... وقد كان العرب شديدي التسامح، فلم يضيقوا الخناق قط على أحد ما في الناحية الدينية، ولم تكن الحكومة تميل لدفع المسيحيين إلى اعتناق الإسلام، ولم يجدد النصارى جميلها هذا، فكانوا راضين عنها لتسامحها واعتدالها، وآثروا حكمها على حكم القبائل الجرمانية والفرنجية^(١).

ثانياً : العمل على نشر الإسلام في شبه الجزيرة الإيبيرية:

وبالرغم من قلة المعلومات عن جهود المسلمين في مجال الدعوة إلى الإسلام والعمل على نشره في شبه الجزيرة بعد استقرار عمليات الفتح، وأننا نجهل الكثير عن هذه الجهود - فإنه يمكن القول بوجه عام - من خلال نَتَفٍّ وأخبار متناثرة - ((إن الإسلام أخذ طريقه للانتشار في إسبانيا، واتبع الفاتحون - الذين عبَّروا عنه، وشرحوه بسلوكمهم - خطة لنشره، وبذلوا جهداً في بيانه والدعوة إليه، وكان ذلك هدفاً واضحاً لدى الفاتحين في أعمالهم كافة، فأنقنوا مهمتهم وحسنت مقدرتهم في إظهار جمال الدعوة الإسلامية قولاً وعملاً، وحافظوا على إشراقه وجاذبيته، فأقبل الإسبان على دين الله سبحانه، مختارين حريصين، ودخلوه أفواجا، حتى إن من لم يسلم منهم مارس بعض العادات الإسلامية، وتسمَّوا بأسماء المسلمين، وتكلموا لغتهم^(٢).

وقد لمس الناس من غير المسلمين حسن معاملة المسلمين لهم، فأثار ذلك دهشتهم وقادهم إلى تقبُّل الإسلام وحب أهله، وكان من نتائج ذلك أن عاش المسلمون مع الآخرين بهذه الأخلاق، لا اعتداء على حقوقهم، بل عدل ووفاء، ولا انتقاص أو غمز، بل تكريم وتعليم، وإنصاف ورعاية في كل الأمور، حتى في الأمور العادية الجانبية، فضلاً عن الأساسية الضرورية^(٣).

(١) دوزى: المرجع نفسه ٤٧/١-٤٨. وراجع أقوال أخرى في هذا الصدد لبعض المستشرقين الإيبان في كتاب (دولة الإسلام في الأندلس ٦٤١-٦٦٠).

(٢) راجع: التاريخ الأندلسي للدكتور عبد الرحمن الحجي ص ١٥٦ (بتصرف يسير).

(٣) الحجي: المرجع نفسه ص ١٥٧-١٥٨، أندلسيات (للحجي) ٢٤/٢.

ويتفق المؤرخون على أن الجيوش الإسلامية التي توجهت لفتح الأندلس كانت مصحوبة بعدد غير قليل من التابعين، وهم الجيل الذي تلقى العلم عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، نذكر منهم: حنّش بن عبد الله بن حنظلة الصنعاني (من صنعاء الشام) (ت ١٠٠هـ) وهو الذي اختطّ (أسّس) جامع سرقسطة من ثغور الأندلس^(١). و"حيان بن أبي جبلة القرشي - مولاهم - أبو رزق" (ت ١٣٢هـ)، كان أحد عشرة من التابعين أرسلهم عمر بن عبد العزيز يفتحون أهل إفريقية، وشارك في فتح الأندلس حتى وصل إلى حصن قرشونة، ويروى عن عمرو بن العاص وعبد الله بن عمرو من الصحابة^(٢).

وقد كان هؤلاء النفر من التابعين الذين جاءوا إلى الأندلس في صحبة الجند، أو دخلوها وفوداً بعد الفتح، واستقر بعضهم فيها - وعددهم ثمانية وعشرون رجلاً كما ذكر ابن بشكوال في كتابه "التببيه والتعيين لمن دخل الأندلس من التابعين"^(٣). - على حظ وفير من المعرفة بالإسلام. وكانت المهمة الرئيسية لهم - إلى جانب المشاركة في الجهاد - تعليم المسلمين الجند الدين الإسلامي، وشرحه لهم، وتوجيه الدعاة إليهم، فرأى الناس من صفاء العقيدة وخلوصها لله تعالى والتشريع والقيم والأخلاق السامية ما لم يسمعوا عنه من قبل.

ومن النصوص القليلة التي تشير إلى الانتشار المبكر للإسلام في الأندلس ما يروى أن عمر بن عبد العزيز رغب في إجلاء المسلمين من الأندلس لانقطاعهم بها وعزلتهم فيما وراء البحر، ف قيل له: ((إن الناس قد كثروا بها، وانتشروا في أقطارها))^(٤). وكتب إليه السمع بن مالك - الوالي على الأندلس (١٠٠-٢٠٠هـ) يعرفه بقوة الإسلام، وكثرة مدائنها، وشرف معاقلها

(١) تاريخ العلماء والرواة بالأندلس، لابن الغرضي ١٤٨/١-١٥١، جذوة المقتبس للحميدى ٣١٥/١، نفح الطيب ٨-٧/٣.

(٢) تاريخ العلماء والرواة بالأندلس ٤٦/١، نفح الطيب ٩/٣.

(٣) راجع: نفح الطيب ١٠/٣، ٦٠، ٦٤، التكملة لابن الأبار ٢٨٢/١.

(٤) البيان المغرب لابن عذاري ٢٦/٢.

فعدل عمر عن رأيه^(١). ويذكر المقرئ في (نفع الطيب) - في حديثه عن والي الأندلس عقبة بن الحجاج السلولى (١١٦-١٢١هـ) - أنه كان إذا أسرَ الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام، ويُبَيِّن له عيوب دينه، فأسلم على يده ألفا رجلاً^(٢).

ثالثاً: مواصلة الجهاد في الأندلس والتوسع الإسلامى فيما وراء جبال البرتات:

استمرت موجة المد الإسلامى بالأندلس فى عصر الولاة، إذ لم يكن المد الإسلامى حركة غزو وغنائم وسيطرة سياسية، بل هو موكب دعوة منير، وامتداد متصل، وجهاد دائم، ليعم نور الله المبين، وشرعه المكين أهل الأرض أجمعين.

وقد شمل جهاد هذا العهد موضعين، أو جهتين:

الأول : داخل الأندلس، ولا سيما الشمال.

الثانى : خلف جبال البرتات فى فرنسا (بلاد الغال - أو الأرض الكبيرة).

١- الجهاد فى شبه الجزيرة الأندلسية:

لم يفتح المسلمون جميع أنحاء شبه الجزيرة، فقد بقيت فى البلاد مناطق لم تصل إليها جيوش الإسلام بعد، كما تألفت فى بعض الأقاليم مراكز للمقاومة ضد المسلمين، واقتضى الأمر إخماد تلك المراكز وإتمام فتح الأندلس. وقد أخذ عبد العزيز بن موسى بن نصير على عاتقه هذا العبء. وكان قد باشر قبل ولايته - ففتح عدة مدن فى شرق الأندلس والجنوب الشرقى مثل كورة تميمير (إقليم مرسية) وحاضرتة "أوريولة". وفى مدة ولايته (ذى الحجة ٩٥هـ - رجب ٩٧هـ) استكمل فتح بلاد غرب الأندلس (البرتغال حالياً)، غير أن المصادر العربية لم تزودنا بمعلومات عن المدن التى افتتحها، وإنما جاءت الإشارة عامة، كقول ابن القوطية: ((أقام يفتح ما بقى عليه من مدائن الأندلس))^(٣)، وقول المقرئ: ((افتتح فى ولايته مدائن كثيرة))^(٤). وقال الرازى: ((لما قفل موسى بن نصير استخلف ابنه عبد العزيز على الأندلس، فضبط سلطانها، وسد ثغورها، وافتتح مدائن كثيرة، وكان من خير الولاة، إلا أن مدته لم تطل))^(٥).

(١) تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٣٩.

(٢) نفع الطيب ١٩/٣، البيان المغرب لابن عذارى ٢٩/٢، وعنده (ألف رجل).

(٣) تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٦.

(٤) نفع الطيب ٢٣٤/١. وراجع: تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للدكتور السيد عبد العزيز سالم.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب ٢٤/٢.

ص ١١٠-١٠٩.

ولا تعطينا المصادر معلومات واضحة عن جهاد بقية الولاية داخل الجزيرة الأندلسية لكن - وبوجه عام - لم يخل عهد الولاية من عمليات جهاد متفرقة - جديدة أو متممة - داخل الإقليم، تتمثل في فتح جيوب صغيرة في بعض المناطق الشمالية، أو التصدي لبعض الفلول التي تتجمع للمقاومة وتتحصن في مناطق نائية. ومن النصوص الواردة في ذلك ما قاله صاحب كتاب (أخبار مجموعة في تاريخ الأندلس) عقب الحديث عن كل من ولاية الأندلس: ((وكان من وصفنا من الولاية يجاهدون العدو، ويتوسعون في البلاد حتى بلغوا إفرنجة، وحتى افتتحت عامة الأندلس))^(١). ويذكر ابن عذارى أن الوالي عقبة بن الحجاج السلولى (شوال ١١٦-١٢٢هـ) ((كان يجاهد المشركين كل عام، ويفتح المدائن، وهو الذى افتتح مدينة أربونة، وافتتح جليقية وبنبلونة، وأسكنها المسلمين، وعمت فتوحاته جليقية كلها غير الصخرة))^(٢).

٢- الجهاد خلف جبال البرتات:

كانت الأراضي الممتدة خلف جبال البرتات (بلاد غالة) منقسمة إلى عدة ولايات، منها^(٣):

- أ- ولاية "سبتمانية"، وتشتمل على سبعة مدن، وعاصمتها "أربونة".
- ب- ولاية (أكيتانية) - تقع إلى الشمال الغربى من "سبتمانية" - وعاصمتها "برديل" الواقعة على مصب نهر الجارون.
- ج- إقليم "بروفانس"، يقع إلى الشمال الشرقى من "سبتمانية". وعاصمته: مدينة "أبنيون"، وتقع على وادى رودنة (نهر الرون).
- د- إقليم "برغندي" غربى نهر لارون، وعاصمته مدينة "لوزون" (ليون).
- هـ - المنطقة الواقعة شمال نهر اللوار حتى ألمانيا الحاضرة، وكانت خاضعة للدولة "الميروفنجية".

وأول من غزا (بلاد غالة) من الولاية: السمع بن مالك الخولانى (١٠٠-١٠٢هـ)، فقد بدأ بالاستيلاء على "أربونة"، ثم مضى فى تقدمه حتى فتح "طولوشة"

(١) أخبار مجموعة ص ٢٥.

(٢) البيان المغرب ٢٩/٢، نفح الطيب ١٩/٣.

(٣) تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للدكتور السيد عبد العزيز سالم ص ١٣٧. وراجع الخريطة (ص ٥٠).

(تولوز)، واستولى على ولاية سبتمانية كلها، وأقام بها حكومة مسلمة فى هذا الوقت المبكر. وقد اتخذ من "أربونة" قاعدة للجهاد وراء جبال البُرت، وتوغل فى إقليم "أكيتانيا"، غير أنه استشهد فى موقعة بالقرب من "طولوشة" انهزم فيها المسلمون، وقتل منهم عدد كبير، وذلك فى يوم عرفة (سنة ١٠٢هـ)، فتولى القيادة عبد الرحمن بن عبد الله الغلفقى، وأقروه والياً للأندلس حتى يأتى الوالى الجديد، وكانت هذه هى ولايته الأولى ولم يدم فيها أكثر من شهر (١).

تولى عنبسة بن سُحَيْم الكلبى (سنة ١٠٣هـ)، وكان كالسمح بن مالك صالحاً قوياً، ففوضى أربع سنوات من ولايته فى تنظيم أمور الدولة وإصلاح الجيش وإعدادة لمواصلة غزو بلاد الفرنجة، وقد عبر عنبسة بجيوشه جبال البرتات، وتابع حركة الفتوح لإقليم سبتمانية بمدنه السبع، وافتتح إقليم "بروفانس"، واتجه شرقاً حتى بلغ نهر "الرون" ثم صعد مع النهر شمالاً حتى بلغ مدينة "ليون"، وتوغل بعدها حتى كان على بُعد سبعين كيلو متر من جنوبى باريس الحالية، وهى أبعد نقطة وصل إليها المسلمون شمالاً، وتبعد نحو ثمانمائة كيلو متر شمال جبال البرتات. وفى طريق عودته تصدت له جموع كبيرة من الفرنجة، فاستشهد فى إحدى المعارك (سنة ١٠٧هـ)، فقام بقيادة الجيش والعودة إلى "أربونة" (عُذرة بن عبد الله الفهرى) الذى حكم حتى ربيع الأول سنة ١١٠هـ (٢).

وبالرغم من أن وصول الجيوش الإسلامية إلى هذا الحد، وأن ذلك يعد دليلاً قاطعاً على ما امتازوا به من جرأة وقوة إيمان فإننا لا نستطيع القول - كما يرى الدكتور حسين مؤنس - بأن "عنبسة" فتح جنوبى غالة أو حوض الرون (بالمعنى الحقيقى)، لأنه فى الواقع لم يفعل شيئاً لتثبيت أقدام المسلمين فيما وصلوا إليه من البلاد، ولكنه على أى حال الفاتح المسلم الوحيد الذى وصل إلى هذا المدى فى فتوحه. وكان لا بد من حملات ضخمة أكثر نظاماً ليمت فتح هذه النواحي كما أتمت حملات زهير بن قيس، وحسان بن النعمان وموسى بن نصير عمل عقبة بن نافع فى المغرب (٣).

(١) عن جهاد السمع بن مالك وراء البرتات راجع: تاريخ العلماء والرواة بالأندلس لابن القضى ٢٣٠/١، نفح الطيب ٢٣٥/١، البيان المغرب ٢٦/٢، تاريخ المسلمين وآثارهم بالأندلس ص ١٣٧-١٣٨، للتاريخ الأندلسى للحجى ص ١٨٥-١٨٨، دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان ٨١/١.

(٢) راجع: البيان المغرب ٢٧/٢، معالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس ص ٢٥٤، المسلمون فى الأندلس - للدكتور عبد الله جمال الدين (موسوعة سفير ١٤/٧).

(٣) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ الأندلس ص ٢٥٥.

وقد أثارت حملة عنيسة مخاوف أوروبا كلها، حيث إنه اقتحمها اقتحاماً، وأوغل بجيشه في داخل بلادها دون أن يستطيع أحد مقاومته، الأمر الذي جعل القائم بمملكة الفرنجة إذ ذاك -وهو "شارل مارتل" أو "كارل"، وتسميه مصادرها العربية "قارلّه"- يشعر بأنه لابد من القيام بعمل حاسم إذا عاد المسلمون مرة أخرى. وبالفعل بدأ يستعد لهذا اللقاء، فأخذ يجمع القوات والسلاح والأزواد، وصالح أمراء "برغندية"، واتفق مع رجال "سبتمانية"، ومع دُوق (حاكم) "أكيتانية" ليقوموا معاً بعمل حاسم ضد المسلمين^(١).

وبعد أن توالى على الأندلس سبعة من الولاة بين سنتي (١٠٧-١١٢هـ/٧٢٥-٧٣٠م) تفاقمت خلالها المشكلات وازدادت الاضطرابات وانتشر الخلل والخلاف بين الزعماء ورجال القبائل^(٢) عُيِّن عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي والياً في صفر ١١٢هـ، وهذه هي ولايته الثانية، وكان من أعظم قواد المسلمين في الأندلس عدلاً وصلاحاً وقدرة وكفاءة، وقد قضى ما يقرب من عام نظم خلالها شؤون البلاد، ثم أعلن الجهاد ضد الفرنجة، وكون جيشاً هائلاً يتراوح عدده ما بين سبعين ألفاً ومائة ألف، جلهم من البربر.

معركة بلاط الشهداء (١١٤هـ/٧٣٢م):

وفي أوائل سنة ١١٤هـ/٧٣٢م سار الغافقي بجيوشه نحو الشمال، وعبر جبال "ألبرت" من طريق "بنبلونة" متجهاً إلى دوقية "أكيتانيا" أعظم ولايات غالة في ذلك الوقت، فاكتسحها، ودخل عاصمتها "برديل" عنوة، ثم واصل زحفه حتى أشرف بجيشه على نهر اللوار واستولى على مدينتي "بواتييه" و "تور"، وما كاد يخرج الجيش الإسلامي من "بواتييه" في طريقه نحو باريس حتى فوجئ عبد الرحمن الغافقي بوصول جيش هائل من الفرنج والمرتزة يقوده "شارل مارتن" (قارلّه).

وعلى بُعد عشرين كيلومتر شمال "بواتييه" في الطريق إلى "تور" جنوبى مجرى اللوار في موضع قريب من طريق روماني قديم هو المسمى "بالبلاط" حدثت المعركة الكبرى بين الجيشين في أواخر شعبان ١١٤هـ/أكتوبر ٧٣٢م. وقد تكون هذه المعركة وقعت بالقرب من موضع يطلق عليه اليوم اسم "مواسيه لاباتاي" Moussais la bataille . وتضمنت المصادر العربية عن ذكر تفاصيل هذه الموقعة الفاصلة، ولعل

(١) حسين مؤنس: المرجع نفسه ص ٢٥٥.

(٢) راجع البيان المغرب ٢٧/٢-٢٨، نفع الطيب ٢٣٦-٢٣٥/١.



السبب فى ذلك يرجع إلى أنها كانت كارثة على جيش المسلمين، بحيث نفر قدامى المؤرخين من مجرد ذكرها، فاندرجت أخبارها فى زوايا النسيان .

وقد استمرت المعركة ثمانية أيام، مما يدل على أنها كانت معركة حامية. والحق أن كلاً من الجانبين بذل أقصى وسعه فى القتال، وصبر المسلمون صبراً طويلاً حتى تجمعت عليهم قوات نصرانية من كل ناحية، ولم يقتصر الأمر على الفرنجة، بل انضم إليهم كثيرون من أجناس أخرى (المان، وسواف وسكسون). وآخر مراحل المعركة كان هجوماً عنيفاً على مؤخرة الجيش الإسلامى، فانتهبت الغنائم، وترعرع نظام الجيش، وبينما يحاول الغافقى إعادة النظام إلى جيشه أصابه سهم قتلته، فعم الاضطراب بين المسلمين وكثر القتل فيهم، واشتد الفرنج عليهم، لكنهم صبروا حتى جن الليل وتحاجز الفريقان دون فصل، ثم انسحب المسلمون نحو مراكزهم فى "سبتمانيا" تاركين غنائمهم، وأصبح الفرنجة فلم يجدوا لهم أثراً سوى الجرحى ومن لم يتمكنوا من مرافقة الجيش المنسحب، فأجهزوا عليهم، وانتهبوا ذخائر عظيمة، ولم يفكروا فى تتبع المسلمين^(١).

ومهما قيل من أسباب لتعليل خسارة المسلمين فى معركة "بلاط الشهداء" - من مثل ما قيل عن وجود خلاف فى الجيش الإسلامى (العرب والبربر)، وابتعاد الجيش عن بلاد الإسلام بحيث أصبح على بعد (٤٠٠ كم) شمال جبال ألبرت التى تبعد عن قرطبة مسافة (٩٠٠ كم) مما جعل مواصلاته بالمؤن والإمداد أمراً عسيراً، بينما كانت خطوط إمداد الفرنجة سهلة ومتصلة، إضافة إلى أن المناخ لم يكن مناسباً لخوض الجنود والخيول العربية تلك المعركة القاسية، وأن المسلمين ساروا متقلين بغنائم المعارك السابقة، مما دفع العدو إلى ضرب مؤخرة الجيش الإسلامى فارتبكت صفوفه، هذا إلى أن إمارات "غالة" كانت قد تكثرت جميعاً لمواجهة جيوش الإسلام وصدها عن الجنوب^(٢) - أقول: مهما قيل

(١) عن معركة بلاط الشهداء راجع بتوسع: دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان ٩٢/١-١١١، معالم تاريخ المغرب والأندلس للسيد سالم ص ١٤٠-١٤٧، التاريخ الأندلسى للحجى ص ١٩٣-٢٠٣، المسلمون فى الأندلس لعبد الله جمال الدين (موسوعة سفير ١٥/٧-١٦)، الأندلس فى التاريخ لشاكر مصطفى ص ٢٦. وراجع: للكامل لابن الأثير ٤٠٤/٤ (ط دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧م)، البيان المغرب ٢٨/٢، فتح الطيب ١٦-١٥/٣، ٢٣٦/١.

(٢) راجع معالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس ص ٢٥٧، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للسيد سالم ص ١٤٣.

من مثل هذه التعليقات وغيرها، وبعيداً عن مدى صحة بعضها وواقعيتها فإن معركة بلاط الشهداء كانت أعظم لقاء بين الإسلام والنصرانية، وبين الشرق والغرب، ففي سهول (تور)، و(بواتييه) فقد المسلمون سيادة العالم بأسره، وتغيرت مصائر العالم القديم كله، وارتد نيار الفتح الإسلامي أمام الأمم الشمالية كما ارتد قبل ذلك بأعوام أمام أسوار قسطنطينية، وأخفقت بذلك آخر محاولة بذلتها الخلافة لافتح أمم الغرب وإخضاع النصرانية لصولة الإسلام، ولم تتح للإسلام المتحد فرصة أخرى، لينفذ إلى قلب أوروبا في مثل كثرته وعزيمته واعتزازه يوم مسيره إلى بلاط الشهداء. وبينما شغلت إسبانيا بمنازعاتها الداخلية إذ قامت فيما وراء الألبات إمبراطورية فرنجية عظيمة موحدة تهدد الإسلام في الغرب، وتنازعه السيادة والنفوذ^(١).

الجهاد خلف الألبات بعد وقعة بلاط الشهداء:

ولم تكن معركة "بلاط الشهداء" آخر نشاط الجهاد الإسلامي وراء جبال الألبات في عهد الولاة، فقد تولى عبد الملك بن قطن الفهري ولايته الأولى (١١٤-١١٦هـ) بعد استشهاد الغافقي، فغزا أرض "البشكنس" سنة ١١٥هـ^(٢)، ثم عبر جبال الألبات، واستطاع أن يعيد الهدوء في إقليم سبتمانيا وما يليه من بلاد غالة، وعمل على تحصين المدن والمعازل التي كانت في أيدي المسلمين، وتمكن في وقت قصير من أن يتلافى الكثير من الآثار السيئة التي خلفت عن هزيمة "البلاط". وفي الوقت نفسه شغل شارل مارتل (قارله) بمداغة أعداء كثيرين من أبناء جنسه في شمال مملكته، فأتيح للفرصة للمسلمين ليعيدوا تنظيم أنفسهم من جديد^(٣).

ويُعَدُّ عقبة بن الحجاج السُلُومي (١١٦-١٢١هـ) خاتمة الولاة المجاهدين وراء جبال الألبات، وكان عقبة قائداً عظيماً مثل الغافقي، فإلى جانب توغله في إقليم جليقية في شمال غربي الأندلس وتحصينه لجميع المواقع الإسلامية منح عناية خاصة لشجر "أربونة"، واتخذ قاعدة للجهاد، وكان يخرج كل عام على مدار خمس سنوات في الجنوب والشمال الشرقي من فرنسا حتى أصبح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) د. محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ١١١/١.

(٢) نفع الطيب للمقرئ ١١٩/٣. وسياي التعريف بالبشكنس (ص).

(٣) معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٥٨ وفجر الأندلس ١٧٦، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ١٤٦-١٤٧.

نهر "الرُون" (رودنه) رباط المسلمين ومعقل فتوحاتهم. ولم يشمل جهاده غرب فرنسا حيث مقاطعة أكيثانية (أقيطانية)، واستشهد في معركة عند مدينة "قرقشونة" إحدى مدن مقاطعة "سبتمانية" سنة ١٢١هـ / ٧٣٩م^(١). وقد جرت بعد ذلك في الأندلس أحداث شغلت المسلمين عن متابعة هذا الجهاد، بل هددته وأتت على كثير منه إن لم يكن كله.

رابعاً: الفتن والعصبيات القبلية وأثرها في انحسار المد الإسلامي في شمال الأندلس وخلف جبال البرّيات:

ومن أهم ما تتسم به فترة الولاة - في بعض سنواتها - من الناحية السياسية أنها فترة المنافسة على الولاية والمنازعة في السلطة، بين العرب والبربر من ناحية، ثم بين العرب أنفسهم البلديين (اليمنية) والشاميين (القيسيين) من ناحية أخرى.

١- بدأ النزاع بين القيسية (الشاميين) واليمينية يظهر بصورة واضحة عندما أرسل أبو عبيدة القيسى (حاكم إفريقية) بقرية الهيثم بن عبيد الكنانى والياً على الأندلس (المحرم ١١١هـ)، وكان من أشد الولاة تعصباً للشاميين (القيسيين)، فأنحاز إليهم، واضطهد اليمينية، وسجن زعماءهم^(٢).

٢- وفي ولاية عبد الملك بن قطن الفهرى - الولاية الثانية له (١٢٢-١٢٣ هـ) كثرت الفتن والاضطرابات، وقام البربر بثورة عارمة، لا بسبب ما قيل إن عرب الأندلس اختصوا أنفسهم بأحسن الأراضي، تاركين للبربر أسوأها، أى المناطق الجبلية القاحلة (فهذا غير صحيح، فإن أراضى الأندلس الخصيبة كانت من الكثرة بحيث تتسع لكل المهاجرين عرباً وبربر، ولم يكن المسلمون إذا دخلوا بلداً اقتسموا أراضى الناس فيما بينهم) وإنما السبب الحقيقي هو أن بعض العرب الذين استقروا في نواحي الأندلس تمسكوا بعصبيتهم وتعالوا على غيرهم، ظناً منهم أن الدولة الأموية دولتهم وكان معظم هؤلاء من الشامية أى من القيسية. أما العرب البلديون - ومعظمهم من اليمينية - فكانوا بعيدين عن هذه النزعة، لأنهم كانوا أهل أرزاق ومعاش، في حين أن الشامية كانوا يرون أنهم أهل حرب وسياسة وحكم^(٣).

(١) المسلمون في الأندلس للدكتور عبد الله جمال الدين (موسوعة سفير ١٦/٧)، التاريخ الأندلسي للحجى ص ٢٠٤-٢٠٥، وراجع فتح الطيب ٢٣٦/١، ١٩/٣، البيان المغرب ٢٩/٢.

(٢) راجع معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٣-٢٤٤، العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية ص ٣١.

(٣) معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٤-٢٤٥.

وكان البربر قد ثاروا بالمغرب فى ولاية عبيد الله بن الحَبَاب (١١٦-١٢٣هـ / ٧٣٤ م) وكان قيسياً متعصباً للعرب ضد البربر، وعيّن عمر بن عبد الله المرادى حاكماً على (طنجة)، " فأساء السيرة، وتعذّى فى الصدقات والعشور، وأراد تخميس البربر، وزعم أنهم فئ للمسلمين، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله، وإنما كان الولاة يُخَمِّسون من لم يُجِبْ للإسلام، فكان فعله الذميم هذا سبباً لنقض البلاد، ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير القتل فى العباد^(١). وفى أثناء ذلك كثر مجئ الخوارج إلى بلاد المغرب لبعدها عن مركز الخلافة، وتسفلوا بين قبائل البربر، وأخذوا يبتئون مبادئهم وتعاليمهم بينهم، واقتنع البربر بهذه المبادئ، فاعتنقوها، وظهر لهم رئيس يعرف بميسرة المدغرى (= المطغرى) قادهم إلى الثورة، واستولوا على طنجة وقتلوا عاملها^(٢). ثم إن البربر فى المغرب وگوا أمرهم قائداً آخر منهم هو خالد بن حميد الزناتى، وهذا الرجل استطاع أن يهزم العرب فى معركة حامية تسمى "معركة الأشراف" سنة ١٢٢هـ، وسميت كذلك لكثرة من قتل فيها من "حماة العرب وفرسانها وكماثها وأبطالها"^(٣).

وقد انعكست أصداء هذه الثورة على الأندلس، فتجراً من كان بها من البربر، وثاروا على العرب، وأخرجوهم من المناطق البعيدة عن مركز الإمارة الواقعة فى أطراف الأندلس، مثل المناطق الشمالية فى جَلِيْقِيَّة وأَسْتُورِيَش وغرب الأندلس، وهى المناطق التى يسكنها أغلبية بربرية^(٤).

وكان الوالى على الأندلس إذ ذاك-كبير العرب البلديين-يظن هو ومعظم من معه من اليمنية أن الثورة قامت على الشاميين، ثم ما لبث أن تبين أنها موجهة إلى العرب جميعاً، وأن البربر يسرون فى جيوش ثلاثة، متجهة إلى طليطلة وقرطبة والجزيرة الخضراء، فخاف الرجل سوء العاقبة^(٥).

(١) البيان المغرب ٥٢/١.

(٢) البيان المغرب ٥٢/١-٥٣، تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٤.

(٣) فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ص ٢١٧-٢١٨، البيان المغرب ٥٣/١-٥٤. وراجع: معالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسين مؤنس ص ٦٣-٦٥، التطور السياسى للمغرب من الفتح الإسلامى إلى آخر القرن العاشر الهجرى، للدكتور طاهر راغب حسين ص ١١٤-١١٧.

(٤) أخبار مجموعة ص ٣٨، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣١، البيان المغرب ٣٠/٢، وراجع: تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٥٧-١٥٨.

(٥) أخبار مجموعة ص ٣٨.

وفى تلك الأثناء كان أحد القادة العرب فى المغرب- ويدعى "بلج بن بشر القشبرى" وهو شامى قيسى - محاصراً فى مدينة (سبتة) من قبل البربر بعد هزيمة "الأشراف"، وقد اشتد هذا الحصار عليه حتى أشرف هو ومن معه على الهلاك، وكانوا عشرة آلاف من الشاميين، فاستجد "بلج" بعبد الملك بن قطن- والى الأندلس- واستأذنه فى العبور إليه هو وأصحابه، ونكر له ما صاروا إليه من الجهد، فخافهم على سلطانه. فلما ثار بربر الأندلس على عربها وزحفوا إلى وسط البلاد خاف ابن قطن أن يكون مصير العرب بالأندلس مصير "بلج" ورفاقه فى "سبتة"، فاضطر إلى التعاون مع الشاميين للقضاء على العدو المشترك، شريطة أن يباحوا الأندلس بعد انتهاء مهمتهم. وقد حقق هؤلاء- مع عبد الملك بن قطن- انتصارات على البربر فى "شذونة" و"قرطبة"، ثم فى معركة حاسمة قرب "طليطلة" عند وادى "سليط" (سنة ١٢٤هـ/٧٤٢م)^(١). ثم أخذ أولئك العرب الشاميون يطاردون البربر، فتركوا أراضيهم فى الوسط والشمال الغربى، وعادوا إلى إفريقية فى هجرات جماعية كان لها أسوأ الأثر على مستقبل الإسلام فى الأندلس، إذ كان من نتيجة تلك الهجرات أن تركت الأراضى شمالى نهر "تاجه" خالية من المسلمين تقريباً، فامتد إليها نفوذ نصارى الشمال، فساحوا فيها، ولم يمر وقت طويل حتى أصبحت تلك الأراضى نصرانية، وخسر المسلمون بذلك ربع شبه الجزيرة، دون أن يخرجهم منه عدو، وإنما نتيجة انقسامهم وبغض بعضهم بعضاً^(٢).

٣- انتهت مهمة الشاميين أصحاب "بلج بن بشر" ورفضوا العودة إلى إفريقية عن طريق سبتة، وقالوا لعبد الملك بن قطن: ((تعرضنا لبربر طنجة؟! اقذف بنا فى لجة البحر أهون علينا. فلما رأوا ما يريد بهم ثاروا عليه وأخرجوه من القصر وبايعوا (بلجاً) صاحبهم))^(٣). وعندئذ اختلط أمر الناس فى الأندلس، وقتل عبد الملك، ونشبت معارك بين الشاميين والبلديين، قتل فيها "بلج"، لكن انتصر الشاميون، وولوا على الأندلس "ثعلبة بن سلامة العاملى" (١٢٤هـ/٧٤٢م)، ولم ينجح فى الحرب من جديد، وانقسمت البلاد إلى مناطق نفوذ، وإلى أن جاء "أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي والياً على الأندلس (فى رجب ١٢٥هـ/مايو ٧٤٣م)"^(٤).

(١) البيان المغرب ٣٠/٢-٣١. وراجع: معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٥.

(٢) راجع: معالم ص ٢٤٥، المسلمون فى الأندلس (موسوعة سفير ١٧/٧).

(٣) أخبار مجموعة ص ٤١.

(٤) راجع البيان المغرب ٣٢/٢-٣٣.

وقد بدأ هذا الرجل ولايته بتأمين العرب البلدانيين والبربر على ممتلكاتهم ومصالحهم، وحال بين الشاميين وبين إيداعهم، واجتهد في القضاء على المنازعات القبلية بين السكان عامة، وقام بتقريب العرب الشاميين (وقد تجمع أكثرهم في قرطبة وإقليمها) في مناطق لا ينزلها من البلدانيين وأهل اليمن أحد، بحيث يستقر كل فريق منهم بناحية، ويحصل على ثلث الخراج الذي يؤديه نصارى الذمة والمزارعون، في مقابل أن يمدوا الوالى بعدد من الجند كلما طلب منهم ذلك^(١). غير أن أبا الخطار ما لبث أن تخلى عن تلك السياسة الحكيمة، ومال إلى قومه من اليمنية، وتحامل على المضربة، وأسخط القيسية، فعادت المعارك بينه وبين خصومه من جديد، وقتل بعضهم بعضا، وعمت الفوضى البلاد إلى أن اتفقت الكلمة على تولية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى (١٢٩هـ/٧٤٧م) دون مصادقة من ولاية إفريقية أو من الخلافة في دمشق، إذ كانت الدولة الأموية مشغولة بكثرة وثورات الخوارج وبخطر الدعوة العباسية، فلم تتمكن من الإشراف على الولايات، فاستقلت الأندلس بشئونها^(٢).

٤- وقد كان للقيسيين (الشاميين) زعيم يسمى "الصميل بن حاتم بن شمر" ويلقب "بذى الجوشن"، وهو رجل عرف بالشجاعة والبأس والشهامة والجود، غير أنه كان عنيفا في خصومته، شديد الحقد على شائتيه، ولا ينسى ثأره. وقد هداه نظره في أحوال الأندلس إلى أن يتعاون مع يوسف الفهرى زعيم البلديين، على أن تكون الإمارة ليوسف ويكون هو مستشاره وصاحب رأيه. ولم تستقر الأمور لهما إلا بعد حرب طويلة مع زعيم يمنى يسمى "يحيى بن حريث الجذامي" وكان حاكما على كورة "ريه" - بلغت عصبيته مبلغا جعله غير قادر على احتمال أهل الشام بأى سبيل، فتضامن مع أبى الخطار الكلبي اليمنى (الأمير المعزول من قبل) ضد الصميل ويوسف الفهرى، وبالعكس كل فريق فى حشد الجموع، والتقوا فى "شقنبة" بالقرب من قرطبة سنة ١٣٠هـ/٧٤٧م، ونشبت موقعة هائلة

(١) هذه المناطق هي - كما ذكرها ابن عذارى فى (البيان المغرب) - ١٠- البيرة: وينزلها أهل دمشق/ ٢- رية (المعروفة بمالقة) وينزلها أهل الأردن / ٣- شونة: وينزلها أهل فلسطين/ ٤- إشبيلية: وينزلها أهل حمص/ ٥- جيان: وينزلها أهل قنسرين/ ٦- تكمير (المعروفة بمرسية): وينزلها أهل مصر. وقيل نزل أهل مصر بباجة وبعضهم بتكمير" (البيان المغرب ٣٣/٢. وراجع: نفح الطيب ٢٣٧/١).

(٢) نفح الطيب ٢٣٨/١، البيان المغرب ٣٣/٢-٣٥.

وصفها المؤرخون بأنه «لم يعهد حرب مثلاً في المسلمين بعد حرب الجمل وصِفِّين»^(١)، وانتهت بهزيمة اليمينية ومقتل ابن حريث وأبى الخطار الكلبي، وخلا الأمر بعد ذلك للصميل، وأصبح هو الوالى الفعلى للأندلس، فكانت له الرئاسة والتكبير، ولم يحظ يوسف الفهرى بشئ سوى لقب الولاية، دون أن يكون له تأثير، وبعبارة المؤرخ ابن عذارى: «فكان ليوسف الاسم، وللصميل الرسم»^(٢)، وهذأت الأحوال إلى حين.

وقد أدت الحروب المتوالية بين العرب بعضهم بعضاً، وبينهم وبين البربر إلى وقوع مجاعة شديدة بلغت أقصاها (سنة ١٣٦هـ/٧٥٣م)، وترتب عليها تزايد حركة الهجرة إلى المغرب، وقلة عدد المسلمين في شبه الجزيرة عما كان. وقد شملت المجاعة جميع أنحاء الأندلس، باستثناء مدينة «سَرْقُطَة». وأكثر أهلها يمنيون، اعتزلوا الفتنة، واستقروا في الأرض، وزرعوها وكثرت خيراتها^(٣).

وأثناء هذه الفتن استطاع الفرنج الاستيلاء على جميع القواعد الإسلامية وراء جبال البرنات، ماعدا "أربونة" أمنع قلاع المسلمين هناك، وقد قاوم المسلمون بها وصبروا على مدار أعوام عديدة حتى استولى الفرنج عليها وخرّبوا مساجدها ودورها (سنة ١٤٢هـ/٧٥٩م). وبذلك انتهى الوجود الإسلامى فيما وراء جبال "البرنات" بعد أن استقر هناك ما يقرب من نصف قرن . حدث هذا فى الوقت الذى كانت فيه قوى الإسلام فى شبه الجزيرة الأندلسية مشغولة بتمزيق بعضها بعضاً^(٤).

وقد استفادت المجموعة القوطية التى اعتصمت فى جبال أَسْتُورِيش بجُلَيْقِيَّة فى شمالى غرب إسبانيا- والتى عرفت بمجموعة "بلاى"^(٥)- من هذه المنازعات القبالية، فخرجوا من كهوف الجبال، وأخذوا يحتلون الأراضى التى تركها البربر وراءهم حتى قويت شوكتهم، وتكاثرت أعدادهم، وثبتت أقدامهم، وتمكن "بلاى" من هزيمة المسلمين فى موقعة "كوفادونجا" (١٣٣هـ/٧٥٠م) وأخرجهم من جُلَيْقِيَّة كلها، فتقهقروا إلى "أَسْتُرُقَة".

(١) البيان المغرب ٣٦/٢.

(٢) البيان المغرب، نفس الجزء والصفحة. وراجع نفح الطيب ٢٣٨/١، دولة الإسلام فى الأندلس لعنان ١٣١/١، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للسيد سالم ص ١٦٣-١٦٤.

(٣) البيان المغرب ٣٨/٢. وراجع معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٨.

(٤) راجع المسلمون فى الأندلس (موسوعة سفير ١٨/٧).

(٥) راجع ما ذكرناه عن هذه المجموعة ص ٥٥.

وقد اعتبر بعض المؤرخين أن انتصار نصارى الشمال فى هذه المعركة - التى ضخم الإسبان قيمتها، ولم تخرج عن كونها مناوشات حدثت بين المسلمين و"بلاى" - هو البداية الحقيقية لقيام مملكة "جَلِيْقِيَّة" (أو دولة أشتوريس)، والبداية الحاسمة لحركة المقاومة النصرانية فى شبه الجزيرة التى تعرف عادة بـ "حركة الاسترداد"^(١).

والخطر فى الأمر أن تراجع المسلمين لم يقف عند حدود "أشتوريس"، بل إنه زاد فى عهد الملك ألفونسو الأول^(٢) (١٣٥-١٤٢هـ/٧٥٢-٧٦٠م) الذى حكم بعد "بلاى" بعلمين، وضم إلى الدولة الناشئة بعض المدن والمراكز الهامة مثل "ليون" (Leon) و"سُمُورَة" (Zamora) و"سَلْمَنْقَة" (Salamanca)، و"سَقُوبِيَّة" (Segovia) و"سَلْدَانِيَا" (Saldana) وغيرها. وكلها مراكز هامة أتعب المسلمون أنفسهم فى فتحها، ثم ضاقت فى غمرة النزاع المقيت، وأصبحت منطقة الثغور - أى الحدود التى تفصل ملك المسلمين عن ملك النصارى قبل تأسيس دولة بنى أمية فى الأندلس - تبدأ من "بَنْبُلُونَة" فى الشمال الشرقى، وتتحدّر إلى "تُطْبِلَة"، ثم "وَادِي الْجَارَة"، ثم "هَنَارَس"، ثم "طَلِيْطْلَة" ثم "طَلْبِيْرَة"، "قُورِيَّة"، وتنتهى عند "قَلْمَرِيَّة"^(٣)، أى أن المسلمين فقدوا ربع شبه الجزيرة على وجه التقريب قبيل قدوم عبد الرحمن الداخل (١٣٨هـ/٧٨٥م) وعلى هذا الأساس نشأ وضع جديد سيكون محورا من أهم محاور التاريخ الأندلسى كله، وهو أن شبه الجزيرة الإيبيرية لن تكون منذ ذلك التاريخ قطرا إسلاميا خالصا، وإنما ستكون قسمة بين الدولة الإسلامية والدولة النصرانية، وأن كلا من الدولتين ستسير فى طريقها. وأن النزاع بينهما سيستمر ويطول حتى ينتهى أخيرا - وبعد ثمانية قرون - بالقضاء على الدولة الإسلامية، وعودة إسبانيا نصرانية كما كانت^(٤).

(١) راجع العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية للدكتور رجب محمد عبد الحليم ص ٣٨، ٣٩.

(٢) تسميه المراجع العربية عادة بـ "أنفونش" أو "ألفونش". وهو جد بنى ألفونس الذين اتصل حكمهم بعد ذلك، ووحّدوا المناطق الشمالية كلها واستطاعوا أن يستردوا بلادهم بقيادة الملكين الكاثوليكين (فرلند) ملك أرغسون - و(إيزابيل) ملكة "قشتالة" و"ليون".

(٣) راجع الخريطة (ص ٨٦).

(٤) راجع : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٦٨-١٧٠، العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية فى عصر بنى أمية وملوك الطوائف ص ٣١-٣٩.

الفصل الثالث

عصر الإمارة الأموية (١٣٨ - ٣١٦ هـ / ٧٥٦ - ٩٢٩ م)

مدخل: استمر عصر الإمارة الأموية بالأندلس مدة قرن وثلاثة أرباع القرن، ويبدأ من (سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٦ م)، وينتهي في السنة التي أعلن عبد الرحمن الناصر فيها الخلافة الأموية، وهي (سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٩ م). ويعتبر بعض الباحثين فترة الإمارة مع فترة الخلافة عصرًا واحدًا، هو عصر الدولة الأموية (١٣٨ - ٤٢٢ هـ / ٧٥٦ - ١٠٣١ م). وقد سمي عصره الإمارة بهذه التسمية لأن الأندلس كانت تحكم بواسطة أمراء أمويين مستقلين عن الخلافة العباسية بالشرق. ويمكن تقسيم هذا العصر إلى فترتين رئيسيتين:

الأولى: فترة تأسيس الإمارة. وأهم ما تمتاز به من الناحية السياسية أنها كانت فترة علاج لكثير من الأمراض والمشاكل التي عاناها الحكم الأندلسي في عهد الولاة. وتتمثل هذه الفترة في أربعة من الأمراء الأمويين هم:

- ١- عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (عبد الرحمن الأول - الداخل - صقر قریش) (١٣٨ - ١٧٢ هـ / ٧٥٦ - ٧٨٨ م).
- ٢- هشام بن عبد الرحمن بن معاوية (هشام الرضا) (١٧٢ - ١٨٠ هـ / ٧٨٨ - ٧٩٦ م).
- ٣- الحكم بن هشام (الربضي) - الحكم الأول (١٨٠ - ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ - ٨٢٢ م).
- ٤- عبد الرحمن بن الحكم (عبد الرحمن الثاني - الأوسط) (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ / ٨٢٢ - ٨٥٢ م).

والثانية: فترة صراع الإمارة، وأهم ما تمتاز به من الناحية السياسية هو الصراع على تلك الإمارة الأموية الناشئة التي تعرضت لعدد من الأحداث الجسام، وخاصة أيام آخر أمرائها حتى أوشكت على السقوط. ويسمى بعض الباحثين هذه الفترة الثانية بعصر الاضمحلال الأول، أو دويلات الطوائف الأولى، حيث تولى الأندلس أمراء ضعاف مدة تقرب من ثلثي قرن، تمزقت خلالها وحدة الأندلس، حتى أصبح نفوذ بني أمية لا يتعدى قرطبة ونواحيها. وقد حكم في هذه الفترة من تاريخ الأندلس ثلاثة من أمراء بني أمية الأندلسيين، وهم:

- ١- محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ - ٨٥٢ - ٨٨٦ م).

٢- المنذر بن محمد بن عبد الرحمن (٢٧٣-٢٧٥هـ/٨٨٦-٨٨٨م).

٣- عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن (٢٧٥-٣٠٠هـ/٨٨٨-٩١٢م). وتولى من بعده عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد (عبد الرحمن الناصر - الثالث)، وبقي أميراً إلى السنة التي أعلن فيها الخلافة (٣١٦هـ/٩٢٩م) وصار يُلقب بأمير المؤمنين.

دخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس وبداية عصر الإمارة

سقطت الدولة الأموية بالمشرق سنة (١٣٢هـ/٧٤٩م)، وأخذ العباسيون يتعقبون أمراء بني أمية ويطاردونهم في كل مكان. لكن واحداً منهم - وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان - نجح في الإفلات من العباسيين، رغم المحاولات العديدة التي قام بها هؤلاء لمطاردته، واستطاع أن يصل إلى مصر، وفي صحبته غلامه "بدر" و"سالم" غلام شقيقته، ثم سار منها إلى "برقة" والتجأ إلى أخواله من "بنى نفزة" - من برابرة طرابلس - وأقام عندهم مدة^(١)، ثم انتقل إلى إفريقية (تونس)، لكنه لم يستقر طويلاً إذ إن عاملها عبد الرحمن بن حبيب - الذي استقل بولاية المغرب كله بعد سقوط الدولة الأموية - خاف على إمارته من الأمراء الأمويين الذين أخذوا يفدون إلى بلاده لتطرفها عن مركز الخلافة العباسية، فأسرف في مطاردتهم، وقتل ابنى الوليد بن يزيد بن عبد الملك الأموي، وعزم على قتل عبد الرحمن، ففر من القيروان، واستقر به المطاف أخيراً في المغرب الأقصى، في "سبتة" أو "مليّة"، وبدأ يُعدّ العدة لدخول الأندلس، وكان قد عرف الكثير من أخبارها وأحوالها وما تعانيه من اضطراب وخلاف على الرياسة، وثورات مستمرة.

وبعيداً عن التفاصيل التي يذكرها المؤرخون في معرض الحديث عن دخول عبد الرحمن الأندلس، وتغلبه على قادتها حتى استقر له الأمر وبويع بالإمارة نكتفى هنا بما نقله المقرئ في كتابه (نفح الطيب) حيث قال: ((وبعث - أي عبد الرحمن - بـدراً مولاه إلى من بالأندلس من موالى المروانيين (الأمويين) وأشياعهم، فاجتمع بهم، وبنوا له في الأندلس دعوة، ونشروا له ذكراً، ووافق قدومه ما كان من الإحن بين اليمينية

(١) كانت أم عبد الرحمن بربرية، من سبى قبيلة نفزة، وتسمى "راح" أو "رداح" (أخبار مجموعة ص ٥٥، البيان المغرب ٤١/٢).

والمضرية، فأصفت (أجمعت) اليمنية على أمره، ورجع بئر مولاه إليه بالخبر، فأجاز البحر سنة ثمان وثلاثين ومائة، ونزل بساحل المنكب، وأتاه قوم من إشبيلية فبايعوه، ثم انتقل إلى كورة رية، فبايعه عاملها عيسى بن مساور، ثم إلى شذونة، ثم إلى موزور، ونَهَدَ إلى قرطبة، فاجتمعت إليه اليمنية، ونُمِيَ (تُلغ) خبره إلى (والى) الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري الذى دعا إلى الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور، فرجع إلى قرطبة، وأشار عليه وزيره الصُميل بن حاتم بالتطف له، والمكر به، لكونه صغير السن، حديث عهد بنعمته، فلم يتم ما أراده، وارتحل عبد الرحمن من المنكب، فاحتل بمالقة فبايعه جندها، ثم رندة، ثم شريش، ثم إشبيلية، وتوافت له جنود الأمصار، وتسايلت المضرية إليه، حتى إذا لم يبق مع يوسف بن عبد الرحمن غير الفهرية (قومه) والقيسية لمكان الصميل منه زحف عبد الرحمن (الداخل) بجيشه، وناجزهم الحرب (فى معركة حاسمة عرفت بمعركة المسارة أو المصاراة فى طرف قرطبة الغربى عند الوادى الكبير، فى التاسع من ذى الحجة ١٣٨هـ) فانكشف يوسف، ونجا إلى غرناطة، واتبعه الأمير عبد الرحمن فنازله، ثم رغب إليه يوسف فى الصلح، فعقد له على أن يسكن قرطبة، وأقفل معه، ثم نقض يوسف عهده، وخرج (سنة ١٤٢هـ) ولحق بطليطلة، واجتمع إليه زهاء عشرين ألفاً من البربر، فقتل عبد الرحمن للقاءه عبد الملك بن عمر المروانى وابنه عمر بن عبد الملك، فكانت الدائرة على يوسف، وأبعد المقر، واغتاله بعض أصحابه بناحية طليطلة، فاستقام الأمر لعبد الرحمن، وثبت قدمه فى الملك ... وكان يُعرف بالداخل، لأنه أول من دخل من بنى مروان إلى الأندلس (حاكماً)، وكان أبو جعفر المنصور يسميه: صقر قریش، لما رأى أنه فعل بالأندلس ما فعل، وما ركب إليها من الأخطار، وأنه نَهَدَ إليها من أنأى ديار المشرق من غير أنصار، فغلب أهلها على أمرهم وتناول الملك من أيديهم بقوة شكيمة ومضاء عزم، حتى انقاد له الأمر، وأورثه عقبه^(١).

ولم يكن عُمر "عبد الرحمن الداخل" حين حقق هذا الإنجاز يتجاوز السادسة والعشرين، لكنه كان رجل الموقف، شحذت همته الخطوب والمحن، وأعدته لحياة النضال

(١) نفح الطيب ٣٢٨/١-٢٣٠ بشئ من التصرف اليسير. وراجع التفاصيل فى البيان المغرب ٤٠/٢-٤٧، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٧٩-١٩٦، تراجم إسلامية شرقية وأندلسية لمحمد عبد الله عنان ص ١٢٩-

والمغامرة، ففضى بقية عمره - اثنين وثلاثين عاماً - فى كفاح مستمر، لا يكاد ينتهى من معركة حتى يخوض معركة أخرى، ولا يقيم ثورة إلا تلتها ثورة، ولم تبق فى الأندلس ناحية أو مدينة إلا نازعته فى الرئاسة، فكانت الأندلس طوال عهده بركاناً يشتعل بنيران الحرب والثورة، لكنه صمد لتلك الخطوب جميعاً، واستطاع بما أوتى من حزم وحسن سياسة وعلو الهمة والجلد والإقدام أن يغالب تلك الأخطار والقوى، وأن يقبض على زمام الأمور بيده القوية.

ولا نستطيع - فى هذا الموجز - أن نتتبع تلك المعارك والفتن التى اضطر عبد الرحمن الداخل إلى خوضها والعمل على التخلص منها، ويبقى أن نقول: كانت تلك الشخصية التى قامت على كاهلها دعائم الدولة الجديدة من أعظم شخصيات الحرب والسياسة فى تاريخ الإسلام، إذ كان يتمتع بعبقريّة ممتازة وخلال نادرة مكنته من أن يضع لنفسه ولمن جاء من بعده سياسة حكيمة لدولة سليمة البناء، تقوم على أسس ومبادئ سياسية وإدارية ومالية تمكنها من مقاومة عوامل الضعف والتدهور، وقد أجمل ابن حبان شيخ المؤرخين الأندلسيين (ت ٤٦٩هـ) صفاته فى قوله: ((كان عبد الرحمن راجح الحلم، فاسح العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، ناقد العزم، بريئاً من العجز، سريع النهضة، متصل الحركة، لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، ولا يكل الأمور إلى غيره، ثم لا ينفرد فى إبرامها برأيه، شجاعاً مقداماً، بعيد الغور، شديد الجدة، قليل الطمأنينة، بليغاً مقوِّهاً، شاعراً محسناً، سمحاً سخياً، طلق اللسان، وكان قد أعطى هبة من وليّه وعدوه، وكان يحضر الجنائز، ويصلى عليها، ويصلى بالناس - إذا كان حاضراً - الجُمُوع والأعياد، ويعود المرضى، ويكثر مباشرة الناس والمشى بينهم))^(١).

وبهذا التعامل سار عبد الرحمن الداخل فى الأندلس، وأخضع الثائرين، وثبت أركان الدولة، وكف العادية عنها، فعادت لها وحدتها واستقرارها. وسيأتى الحديث عن جانب من جهوده فى مواجهة الخارجين عليه.

أبرز الأحداث في عصر الإمارة:

وقد وقعت في هذا العهد عدة أحداث. وتشتمل هذه الأحداث في الأغلب الأخطار التي داهمت الأندلس من الخارج، والفتن والثورات المتنوعة التي كان لها ارتباط بالحياة في الداخل. ونبدأ بذكر أهم الأحداث الداخلية.

أولاً: أهم الأحداث الداخلية:

(أ) في عهد الأمير عبد الرحمن الداخل (١٣٨-١٧٢هـ/٧٥٦-٧٨٨م):

١- عرفنا قبل قليل - في سياق الحديث المنقول عن المقرئ - أن عبد الرحمن الداخل اعتمد في إقامة دولته على البلديين من العرب اليمنيين والبربر. وقد تصور اليمنيون أن من حقهم - ماداموا قد ناصروا عبد الرحمن وأعانوه على إقامة الدولة - أن يفعلوا ما يشاءون، فينشروا الفوضى، ويثيروا الفتن ويفرقوا البلاد في العصبية القبلية كما كان الحال من قبل. لكن عبد الرحمن أثبت أنه لا يفرق بين شامي وبلدي، أو بين بربري ويمني فجميعهم يضمهم وطن واحد، وعليهم أن يخضعوا للعاصمة المركزية. غير أن تلك السياسة الجديدة لم تعجب اليمنيين، وعثوها لونا من الجحود والنكران لفضلهم، فتوالت ثوراتهم على عبد الرحمن من كل ناحية، لكنه تمكن من قمع هذه الثورات في "الجزيرة الخضراء" و"إشبيلية" و"طليطلة" و"باجة" معتمداً على مقاتلي بني أمية وحشود البربر وأهل البلاد^(١).

ولعل من أخطر الثورات التي واجهت عبد الرحمن الداخل هي:

٢- ثورة "العلاء بن مغيث اليحصبي" في "باجة" بغرب البلاد، (سنة ١٤٦ هـ)، وهو من وجوه أهلها ونوى الرئاسة بها. وكان قد كاتب أبا جعفر المنصور (الخليفة العباسي) واستصدر منه سجلاً بولاية الأندلس، وقام بالدعوة العباسية بها، وجمع حوله جنداً عظيماً، ورفع الراية السوداء شعار العباسيين وعظم أمره جداً ((إلى أن كادت دولة الأمير أن تتصرم)) كما يقول ابن عذارى في (البيان المغرب)، ويواصل كلامه قائلاً: ((وخرج إليه عبد الرحمن من قرطبة، وصار بقرمونة، فتحصن بها مع مواليه وثقات

(١) راجع عن ثورات اليمنية: البيان المغرب ٥٠/٢، ٥٣-٥٤، أخبار مجموعة ص ١٠١. وراجع معالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس ص ٢٦٢، المسلمون في الأندلس للدكتور عبد الله جمال الدين (موسوعة سفير ٢٠/٧).

رجالہ، فنازلہ العلاء بن مغیث منازلہ شدیدہ، وحاصرہ بها آیاماً عدیدہ، فلما طال الحصار هنالك، وتخلخل عسكر العلاء لذلك، وعلم عبد الرحمن ما هم عليه من الانزعاج، وأنهم قد هموا بالإلجام والإسراج، أمر بنار فأوقدت، ثم أمر بأعمدة سيوف أصحابه فأحرقت، وقال لهم: اخرجوا معي لهذه الجموع، خروج من لا يحدث نفسه بالرجوع. وكانوا نحو سبعمائة من الرجال ومشاهير الأبطال، فأخذوا معه سيوفهم بأيديهم، وخرجوا مفحصين إلى أعاديهم، فدارت الحرب بينهم طويلاً، إلى أن صنع الله جميلاً، وزلزل قوم العلاء وأصحابه، فولوا منهزمين، وقتل العلاء فيمن قتل من أولئك الأقبام، وطيف برأسه في ذلك المقام^(١).

٣- ثورة "شقيقا بن عبد الواحد المكناسي البربري" في منطقة "شنتبرية". وكانت من أخطر الثورات التي هددت عبد الرحمن الداخل وأطولها، إذ استمرت من (سنة ١٥١هـ) إلى (سنة ١٦٠هـ) (٧٦٨-٧٧٧م)، وامتدت ما بين "ماردة" و"قورية" غرباً، إلى ثغور "وادي الحجارة" و"كونكة" شرقاً، أي في جميع الهضبة التي تتوسط شبه الجزيرة. وكان هذا التأثير فقيها معلم صبيان، وكانت أمه تسمى "فاطمة"، فادعى أنه من ولد فاطمة رضي الله عنها، ثم من ولد الحسين بن علي رضي الله عنه، وتسمى بعبد الله بن محمد، وقد سير عبد الرحمن الداخل جيوشاً كثيرة لمحاربته، ولم يتمكن من القضاء عليه إلا بتدبير دبره بعض أصحاب له فاغتالوه (سنة ١٦٠هـ). ولعل هذه الثورة هي أول محاولة لإقامة دولة شيعية في الغرب الإسلامي، إذ أنها سبقت تكوين دولة الأدارسة العلوية بالمغرب بنحو عشرين سنة، ولسنا نعلم شيئاً مفصلاً عن تعاليم هذا الثائر، إلا أن ابن عذارى يسميه "الداعي الفاطمي". ويذكر صاحب "أخبار مجموعة" أن القائد الأموي "دحية الغساني" - وهو الذي بعثه عبد الرحمن لمحاربة الثار البربري - اقتنع بدعوته وأمن بها وصار من أكابر أعوانه، وظل مخلصاً له حتى بعد قتله، إذ هرب إلى جبال "البيرة" وما زال يقاتل جيوش عبد الرحمن باستبسال حتى قتل^(٢).

(١) البيان المغرب ٥١/٢، ٥٢، وراجع: نفح الطيب ٣٢٢/١.

(٢) البيان المغرب ٥٤/٢، ٥٥، أخبار مجموعة ص ١١١، الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢٠٠/٥، وراجع د.

محمود على مكي: التشيع في الأندلس (مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمريد - المجلد الثاني (١٩٥٤م) ص

٩٨-٩٩، دولة الإسلام في الأندلس لمحمد عبد الله عنان ١٦٤/١-١٦٧).

(ب) في عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن (١٧٢-١٨٠هـ/٧٨٨-٧٩٦م):

خلف هشام بن عبد الرحمن بن معاوية أباه على حكم الأندلس، وكان اختياره له لا لأنه أكبر أبنائه، بل لما توسمه فيه من المزايا الخاصة. وقد كان هذا الأمير ليناً ورعاً، حسن السياسة، بصيراً بالأمور، وجذب الناس إليه بإقامته للحق، وتحريره للعدل، ومعاقبته للولاء المقصرين. وفي ذلك يقول المقرئ: ((كان هشام يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز، وكان يبعث يقوم ثقات إلى الكور فيسألون الناس عن سير عماله، ويخبرونه بحقائقها، فإذا انتهى إليه حيف من أحدهم أوقع به، وأسقطه وأنصف منه، ولم يستعمله بعد))^(١). ووصفه ابن عذارى بقوله: ((كان رحمه الله بسط البنان، فصيح اللسان، وسيع الجنب، حاكماً بالسنة والكتاب، قبض الزكوات من طرقها، ووضعها في حقها، لم يأخذ في الله لوم، ولا تعلق به ظلم))^(٢).

ومن هنا كانت أيام هشام - كما يقول أحد القضاة الأندلسيين - ((من الدعة والعافية والهدوء بحيث لم يعلم لها مثل))^(٣). ولم يعكر صفوها إلا بعض الثورات التي من أهمها:

ثورة سليمان بن عبد الرحمن على أخيه هشام. وكان الأمير عبد الرحمن قد عقد العهد لابنيه "سليمان" و"هشام"، وكان هشام عند وفاة أبيه "بماردة"، بينما كان سليمان بطليطلة. وذكر المؤرخون أن عبد الرحمن لما حضرته الوفاة أوصى ابنه "عبد الله" المعروف بالبلنسي - وكان موجوداً بالقصر يومئذ - بأن يسلم خاتم الإمارة لمن يسبق من ولديه هشام وسليمان في الوصول إلى قرطبة، وكان يرى أن كلاهما جديراً بالإمارة، فهشام لأن له ((فضل دينه وعفافه، واجتماع الكلمة عليه))، وسليمان لأن له ((فضل سنه ونجدته وحب الشاميين له)). فلما علم هشام بوفاة أبيه أسرع في العودة إلى قرطبة فوصلها بعد ستة أيام قبل وصول أخيه سليمان، فبايعه الخاصة والعامة^(٤). فلما علم سليمان بذلك (وكانت بينه وبين هشام جفوة ومباعدة من أجل تفضيل عبد الرحمن لهشام)^(٥) حشد

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) نفح الطيب للمقرئ ١/٣٣٦-٣٣٧. وراجع البيان المغرب ٢/٦٦.

(٢) البيان المغرب ٢/٦٥.

(٣) البيان المغرب ٢/٦٦.

(٤) البيان المغرب ٢/٦١.

(٥) راجع بعض المواقف التي تدل على أن عبد الرحمن كان يميل إلى هشام ويفضله على سليمان (نفح الطيب ١/٣٣٤).

الحشود. وجند الأجناد، وبأبيه أهل طليطلة وما جاورها، ثم زحف نحو قرطبة، والتقى مع أخيه هشام في "جيان"، فانهزم سليمان، وعاد إلى "طليطلة"، ثم انضم إليه أخوه "عبد الله البلسى"، حيث طمع هو الآخر في الإمارة بعد سبعة أشهر من وفاة أبيهم. وهنا غير هشام من سياسته اللينة إزاء أخويه الثائرين، على الرغم من بغضه لسياسة العنف، فخرج على رأس جيش كثيف لمحاربة أخويه، وحاصر طليطلة، ففر منها سليمان إلى "ماردة"، ثم اضطر إلى طلب الأمان، فاشتترط عليه الأمير الرحيل عن الأندلس، وأعطاه ستين ألف دينار، فنزل بأولاده وأهله ببلاد المغرب، ثم اتبعه هشام بأخيه عبد الله بعد أن عرضه مالا جزيلاً^(١).

ج) في عهد الأمير الحكم بن هشام المعروف بالرئضى (١٨٠-٢٠٦هـ / ٧٩٦-٨٢٢م) :

وفي عهد الحكم بن هشام - (الحكم الأول) المعروف بالرئضى - كثرت الثورات والفتن، واختلفت أنواعها، ولكنها كانت في الغالب ثورات اجتماعية أو إقليمية، لا فتن عشائرية أو قبائلية كان يقوم بها هذا الفريق أو ذاك من العرب أو من البربر، بغية خلع طاعة الأمير والتخلص من النظام^(٢).

وقد كان (الحكم) - كما وصفته المصادر - أميراً شديد الحزم، ماضى العزم، عظيم الصولة، حسن التدبير في سلطانه، وتولية أهل الفضل والعدل في رعيته. ومن كلامه الذى ينسب إليه: "ما تحلى الخلفاء بمثل العدل". وكان أفضل أمراء بنى أمية، وأشدّهم إقداماً ونجدةً وصرامةً وأنفةً وأبهةً وعزةً. وهو أول من جند بالأندلس الأجناد والمرترقة، وجمع الأسلحة والعدد، واستكثر من الحشم والحواشى، وارتبط الخيول على بابيه، واتخذ المماليك (الصقالبة)، وكان يسميهم "الخرص" لعجمتهم، وبلغت عدتهم خمسة آلاف، وكان يباشر الأمور بنفسه، وهو الذى وطأ الملك، لعقبه بالأندلس. ويُسبّهُونه بلبى جعفر المنصور (الخليفة العباسى) فى شدة الملك، وتوطيد الدولة، وقمع الأعداء^(٣).

(١) البيان المغرب ٦٢/٢ - ٦٣. وراجع: تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للسيد عبد العزيز سالم ص ٢١٤-٢١٥.

(٢) راجع: معالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس ص ٢٧٣.

(٣) البيان المغرب ٧٨/٢، ٧٩. نفع الطيب ٣٤٠/١، ٣٤١، ٣٤٢. أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ١٤.

ويروى ابن عذارى أن "الحكم" كان له ألف فرس مرتبطة بباب قصره الجنوبي المطل على نهر الوادي الكبير بقرطبة ((عليها عشرة من العُرفاء، تحت يد كل عَرِيف مائة فرس، فإذا بلغه عن ثائرٍ ثار في أطرافه عاجله قبل استفحال أمره، فلا يشعر حتى يُحاط به^(١)). وبهذه الصفات جميعاً استطاع "الحكم" أن يطفئ نيران الفتن والثورات بالأندلس وحمايتها من الأخطار الخارجية. ولعل أهم الفتن التي واجهها بحزم:

١- ثورة عمه "سليمان بن عبد الرحمن بن معاوية" الذي كان منفياً بالمغرب في زمن أخيه "هشام". وقد عاد إلى الأندلس (سنة ١٨٢هـ/٧٩٨م)، أي بعد أن تولى "الحكم" الإمارة بسنتين، واستطاع أن يجمع جيشاً ليهاجم به قرطبة. وفي شوال من السنة نفسها انهزم سليمان بعد معركة شديدة، ومع ذلك عاود القتال من جديد عدة مرات في (سنة ١٨٣هـ). وفي كل مرة يبوء بالفشل والهزيمة. وفي سنة (١٨٤هـ) حشد سليمان جيشاً كبيراً من شرق الأندلس، واستولى به على "جيان" ثم "البيرة"، وانضم إليه جمْعٌ من أهل المدينتين، فلما التقى بجيش الأمير، ودام القتال أياماً، انهزم سليمان، وقتل في الموقعة عدد كبير من أنصاره، وتمكن هو من الفرار، فأرسل "الحكم" وراءه من يطلبه، فقبض عليه في "ماردة" وجيء به إلى "الحكم" فأمر بقتله^(٢).

٢- فتنة "المولدين" في طليطلة^(٣) (سنة ١٨١هـ/٧٩٧م) : وقد كانت هذه المدينة مركزاً لإثارة الفتن، وملاذاً للزعماء الخوارج منذ عهد عبد الرحمن الداخل، وفي عهد "الحكم" عادت إلى سابق سيرتها. وكان بين أهلها كثرة من "المولدين" و"المُسْتَعَرَبِينَ" (المعاهدين النصاري)، وهؤلاء كانوا يَسْتَخْفُونَ بولاتهم، ويميلون إلى الاستقلال عن حكم بني أمية، معتمدين على حصانة مدينتهم. وقد حدث أن ثار فيها "عُبَيْدَةُ بْنُ حُمَيْدٍ"، فوجّه "الحكم" قائده "عمروس بن يوسف" لمحاربته، فالتقى بالثوار في عدة وقائع، ولما رأى ثباتهم لجأ إلى سلاح الغيلة، واستمال إليه بعض وجهاء المدينة بالمنح والعود، ودفعهم إلى اغتيال "عُبَيْدَةَ بْنِ حُمَيْدٍ"، وبذلك أخمدت الثورة إلى حين. ولكن بعد عدة أعوام عادت طليطلة إلى الثورة، فلم ير "الحكم" وسيلة لإخضاعها سوى تعيين

(١) البيان المغرب ٧٩/٢.

(٢) البيان المغرب ٧٠/٢.

(٣) راجع ما ذكرناه عن التعريف بالمولدين (ص ٣٣-٣٣).

"عمروس بن يوسف" حاكما لها . وكان عمروس (مولدا) من أهل "وشقة"، ذا واجهة وبأس، وكان قد ظهر بالثغر الأعلى، وأظهر طاعة "الحكم" ودعا له، خلافا لكثير من زعماء الثغر الخوارج، فاختصه الأمير وقربه إليه، وولاه على "طليطلة" حتى يطمئن إليه سكانها "المولدون"، فعمل "عمروس" على استمالتهم، وتظاهر أمامهم بكرامية بنى أمية، حتى أنسوا إليه وأمنوا جانبه، ثم إنه عمل على نكبتهم والإيقاع بهم، وأنشأ قصرا خارج المدينة - بالقرب من الجسر - وأقام فيه مأدبة دعا إليها الكبراء والأعيان، ورتب الدخول من باب، والخروج من باب آخر، ووقف السيفون على شفير حفرة في مؤخرة القصر، وأخذوا يتلقون كل من دخل منهم فيضربون عنقه، فقتل في هذه المنبحة المروعة عدد كبير من وجوه "طليطلة" وخيرة رجالها، وبلغ عدد القتلى سبعمائة على أقل تقدير (وقيل : خمسة آلاف وثلاثمائة رجل). وسميت هذه الواقعة بوقعة "الحفرة" . وقد ضعفت بعدها شوكة أهل "طليطلة" طوال عهد "الحكم بن هشام" وعهد ابنه "عبد الرحمن" من بعده^(١).

ولا نستطيع أن نحكم على هذه الحادثة (إذا صحت الروايات التي جاءت بشأنها، والغالب أنها صحيحة) إلا بأنها حادثة نكراء، وَعَدْرٌ بَيْنَ، ومهما قيل من أن المسئول عنها هو "عمروس" أو هي من تدبير "الحكم" وأوعز بتنفيذها إلى "عمروس" في خطاب أرسله إليه سرا مع ولده "عبد الرحمن بن الحكم". ومهما قيل أيضا عن الأسباب التي دفعت بالسلطة إلى اتخاذ هذه الوسيلة للتخلص من المعارضين فإن "الحكم" لا يُعْفَى من المسؤولية، وكان بالإمكان - بدلا من اللجوء إلى العنف والحيلة - أن يتعقل الأمور، ويتعرف الأسباب التي دفعت بأهل طليطلة إلى التمرد، ويسعى إلى التقاهم معهم ليقف على الظروف التي أدت إلى القلق والتوتر، لكنه أساء إلى نفسه وحكمه إساءة بالغة، وفقد الناس الثقة به^(٢).

(١) البيان المغرب ٦٩/٢-٧٠، أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ١٤-١٥. وراجع: دولة الإسلام في الأندلس لمحمد

عبد الله عنان ٢٣٩/١-٢٤٠، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس للسيد سالم ص ٢٢٢.

(٢) راجع: معالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسين مؤنس ص ٢٧٨، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس

(للقسم الأندلسي للدكتور عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح) ص ٢٢١.

٣- وقعة (هَيْج) الرِّبَض (سنة ٢٠٢ هـ/٨١٨ م):

وقد لجأ "الحكم بن هشام" إلى القسوة والعنف في إخماد فتنة أخرى وقعت في الربض الجنوبي من قرطبة المسمى "ربض شقندة" على الضفة الأخرى من الوادى الكبير^(١) وذلك في (١٣ رمضان ٢٠٢ هـ/ ٢٥ مارس ٨١٨ م)، وكانت سببا فى تلقيبه "بالحكم الربضى".

كان "الحكم" قد صلب اثنين وسبعين رجلاً من أهل قرطبة (سنة ١٨٩ هـ/٨٠٥ م). والسبب فى ذلك كما يقول ابن الفرضى - (أنهم أرادوا خلع الحكم بن هشام)^(٢). وقال ابن عذارى: ((أرادوا الغدر به، وهموا بالخلاف عليه، وطلبوا رئيساً يقومون به))^(٣)، فلما علم "الحكم" بأمرهم وتثبت من شأنهم أخذهم وصلبهم جميعاً على جذوع منصوبة بطول الرصيف الممتد بين جدار الجامع (جامع قرطبة) والنهر حتى القنطرة. وعددها مائة وأربعون جذعاً. وكان من بينهم الفقيه أبو زكريا يحيى بن مضر القيسى، وهو أحد الرواة عن الإمام مالك بن أنس^(٤). وسميت هذه الحادثة بـ "هيج الربض الأول" تمييزاً له عن "هيج الربض الثانى" الذى وقع بربض شقندة فى جنوب العاصمة (سنة ٢٠٢ هـ/٨١٨ م) وسيأتى الحديث عنه فى هذا السياق.

(١) الرِّبَض: كلمة تطلق على ما حول المدينة. وقيل: هو الفضاء حول المدينة. وتطلق على الضاحية أو الحى. وجمعها (أرباض). وقد بلغت مدينة قرطبة من الاتساع إلى أن كانت أرباضها إحدى وعشرين ربضاً كل ربض منها يعد مدينة من المدن، وفى كل منها من المساجد والأسواق والحمامات ما يقوم بأهله، ولا يحتاجون إلى غيره، وكانت تلك الأرباض تحيط بقصبة قرطبة المسورة (المدينة القديمة)، وهى: عدوة النهر، وربض شقندة، وربض منية عجب (وكلها فى الجنوب). أما الجهة الغربية فتشتمل على تسعة أرباض: هى: ربض حوائيت الریحان، وربض الرقاقين، وربض مسجد الكهف، وربض بلاط مغيث، وربض مسجد الشفاء، وربض حمام الإلبيرى، وربض مسجد مسرور، وربض مسجد الروضة، وربض المسجن القديم. وفى الجهة الشمالية ثلاثة أرباض هى: ربض باب اليهود، وربض مسجد أم سلمة، وربض الرصافة. وفى الجهة الشرقية سبعة هى: ربض شبلار، وربض قرن بريل، وربض البرج، وربض منية المغيرة، وربض الزاهرى، وربض المدينة العتيقة، وفى وسط هذه الأرباض كلها (قصبة قرطبة) التى تختص بالسور دونها (راجع: أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ١٠٣، قرطبة فى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى للدكتور محمد عبد الوهاب خلاف ص ١٨-٢٠).

(٢) تاريخ العلماء والرواة بالأندلس ١٧٤/٢.

(٣) البيان المغرب ٧١/٢.

(٤) تاريخ العلماء والرواة بالأندلس ١٧٤/٢.

وقد ذكر المؤرخون عدة أسباب أدت إلى وقوع هيج السكان في هذه الضاحية، وكان أكثرهم من "المولدين" أي الأسبان المسلمين . فبينما يذكر ابن عذارى قول من يقول ((إن ذلك الهيج كان أصله الأكثر والبطر؛ إذ لم يكن ثمَّ ضرورة من إجحافٍ في مال، ولا انتهاكٍ لحرمة ٠٠٠ ولم يكن على الناس وظائف ولا مغارم ولا سُخْرٍ ولا شيء يكون سببا لخروجهم على السلطان، بل كان ذلك أثراً وبطراً، وملاً للعافية، وطبعاً جافياً، وعقلاً غيبياً، وسعيّاً في هلاك أنفسهم))^(١) : نجد لسان الدين بن الخطيب يذكر في كتابه (أعمال الأعلام) أن الناس ((أنكروا على الحَكَم أموراً، منها إطلاق يد ربيع القُومس - متولى المعاهدين من النصارى بالأندلس - وكان حظياً في رجاله، سوغه افتراض المغارم على المسلمين، فنار به أهل الربض ونابنوه وجأهروا بخلعه^(٢))). ويشير المقرئ في (نفح الطيب) إلى أن "الحكم" انهمك في لذاته، فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة مثل يحيى بن يحيى الليثي (وهو أحد من رووا الموطأ عن الإمام مالك) وطالوت بن عبد الجبار الفقيه وغيرهما، فناروا به وخلعوه^(٣).

يضاف إلى ذلك ما عرف عن الحَكَم من العنف والقسوة والاعتداد بنفسه، وهى صفات تصطبغ مع طبيعة الشعب الأندلسي الذي تولى أمره، وهى طبيعة عنيدة صلبة، وتحرص على أن يكون للدين مكان ظاهر في سلوك الحكم . وقد بانّت قسوته في الإيقاع بأهل طليطلة سنة ١٨١هـ لإرغامهم على الطاعة (حادثة الحُقرة) وفي حروبه الطويلة مع عميه سليمان وعبد الله، وسجنه عميه "مسلمة" (الملقب بكليب) "وأمية" ابنى عبد الرحمن الداخل، ثم في صلبه لاثنتين وسبعين رجلاً على قارعة الطريق (وفيهم فقهاء) فيما يعرف بهيج الربض الأول. كل ذلك - وغيره - أثار عليه غضب الناس.

وكان السبب المباشر - وهو القشة التى قصمت ظهر البعير أو الشرارة التى أشعلت الحريق - مشادة وقعت بين أحد المماليك الذين استجابهم الحكم واستكثر منهم ورجل من العامة يعمل (صيقل سيوف)، وأدت إلى قتل العامى،

(١) البيان المغرب ٧٦/٢.

(٢) أعمال الأعلام ص ١٥.

(٣) نفح الطيب ٣٣٩/١. وراجع تاريخ العلماء والرواة بالأندلس لابن الفرضي ١٧٧/٢ (ترجمة يحيى بن يحيى الليثي).

فثار الناس وهبوا مرة واحدة، وتجمعوا على المملوك فقتلوه، وخرجوا إلى قصر الإمارة يهتفون بخلع الأمير . وأول من شهر السلاح ضده أهل الربض الجنوبي - سُقُنْدَة - ثم ثار أهل المدينة والأرباض، وكادوا يقضون على الأمير والإمارة، جميعا، لولا أن تنبه "الحكم" إلى حيلة تجمع بين الدهاء والقسوة معا، فقد أرسل بعض أعوانه على رأس فرقة من الفرسان إلى الربض، فأشعلوا فيه النيران، فبادر الثوار بالعودة لإنقاذ أولادهم ونسائهم ونوبيهم، فأخذتهم السيوف من أمامهم، وتلقاهم حرس القصر من خلفهم، وقتلوا منهم عددا كبيرا، وتتبعوا الفارين في الأَزَقَّة والطرق، وتمكنوا من القبض على ثلاثمائة، فصلبوا على نهر الوادي الكبير صفًا واحدًا، ثم أمر "الحكم" بالربض فهُيِّم وصيِّره مزرعة، ثم أمر بطرد أهله من قرطبة، فتنفروا في الثغور، وخصوصا في طليطلة وعبر بعضهم إلى المغرب ونزلوا في "قاس"، كما ركب نحو خمسة عشر ألفا منهم سفنا رست بهم في ميناء الإسكندرية، حيث قاموا فيها، لكن عبد الله بن طاهر (الوالي) على مصر أجبرهم على الرحيل سنة ٢١٢هـ، فتوجهوا إلى جزيرة إقريطش (كريت)، حيث أسسوا دولة دامت نحو (١٣٥) سنة، إلى أن استولى عليها البيزنطيون (سنة ٣٥٠هـ / ٩٦١ م)^(١).

هكذا كانت ثورة الربض، وهي ثورة أدرك "الحكم" خطورتها، ولم تأخذه في إخمادها هوادة ولا رافة، وأصدر عقب إخمادها كتابا إلى الأقاليم^(٢) يشرح فيها الواقعة وظروفها، وقيل: إن الحكم ندم بعد ذلك أشد الندم على ما وقع منه، وجعل يتمنى لو أنه لم يتصرف مع أهل قرطبة على هذا النحو، ويذكر الرواة أنه قد أصيب بعد هذا الحادث بعلّة طاولته أربعة أعوام، أى حتى وفاته (سنة ٢٠٦هـ / ٨٢٢ م). ويقول ابن عذارى: ((ولما دنت وفاته عتب نفسه فيما تقدم منه عتابا، وتاب إلى الله متابا، ورجع إلى الطريقة المتلى، وقال: إن الآخرة هي

(١) راجع أحداث هيج الربض في البيان المغرب ٧٥/٢-٧٧، نفح الطيب ٣٣٩/١، أعمال الأعلام ص ١٥-١٦، المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الرحمن المراكشي ص ١٢ وما بعدها (مطبعة السعادة - القاهرة ١٣٢٤هـ).

(٢) راجع نص الكتاب في: دولة الإسلام في الأندلس لمحمد عبد الله غنان ٢٤٥/١-٢٤٦. وقد نقله من قطعة مخطوطة من (المقتبس في تاريخ الأندلس) لأبن حيان الأندلسي.

الأبقى والأولى، فتزين بالتقوى، واعتصم بالعروة الوثقى، وأقر بذنوبه واعترف^(١).

د - فى عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام (٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢٢-٨٥٢م).

تولى عبد الرحمن بن الحكم الإمارة فى الحادية والثلاثين من عمره، وعرف بعبد الرحمن الأوسط، لأنه ثانى ثلاثة سموا بهذا الاسم وقاموا بأمر الأندلس، وقد اكتسب عبد الرحمن كثيرا من صفات أبيه وجده، لكنه كان وسطا بين اللين والشدّة، ولم يكن فيه غدر أو قسوة، ولكنه كان فيه حزم وقدرة على اتخاذ القرار المناسب وقد أثرت نشأته وتربيته الأولى فى تكوين شخصيته، فكان رجلا على مستوى عال من الثقافة والعلم، متبحرا فى علوم الشريعة والأدب واللغة، وضم العلماء إليه واستقدم كثيرا منهم من المشرق، وكان فوق ذلك أميرا رفيع الخلال والكفاية، وافر الخبرة بشئون الحرب والإدارة، يحسن اختيار الرجال للمناصب، فكان يحشد حوله خيرة رجال الدولة من الوزراء والقادة والولاة والقضاة، ولذا كانت أيامه أيام هدوء وسكون، وكان عهده عهد سلم ورخاء بعد عهد فتن وثورات، وكثرت الأموال لديه، فاتخذ القصور والمنتزهات، وبنى فى ربوع الأندلس مساجد كثيرة، وهو الذى أسس مدينة "مرسية" فى شرق الأندلس، وأول من أحدث فى قرطبة دار الشكّة وضرب النقود باسمه، ورتب رسوم المملكة، وكسا الإمارة أبهة الجلالة، واستجلب إليها روائع التحف التى كانت فى قصور بغداد عند قتل الأمين بن هارون الرشيد (سنة ١٩٨هـ). وفى الجملة أصبحت الأندلس فى عهده فى عداد الدول العظمى آنذاك فى العالمين الإسلامى والمسيحى على السواء^(٢).

ولم يقطع الهدوء الذى كان يسود عصر عبد الرحمن سوى بعض الفتن والثورات الداخلية، أهمها:

(١) البيان المغرب ٨٠/٢. راجع: تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٥٥، راجع: الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة ١٥٢/٤، الحلة السيرة لابن الأبار ٤٦/١.

(٢) راجع فتح الطيب ٣٤٧/١-٣٤٨، البيان المغرب ٩٠/٢-٩١، أصال الأعلام لابن الخطيب. ٢٠. راجع: تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للسيد عبد العزيز سالم ص ٢٢٨-٢٢٩.

١- فتنة بين المضربة واليمنية في مدينة "تدمير" دامت سبع سنين، بداية من (سنة ٢٠٧هـ/٨٢٣م) إلى (سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م) وكان سببها المباشر أن يمنيًا قتل مضربا، فاستفحل الشر بين العصبيتين، وقتل كثير من الفريقين، واستمرت الفتنة على أشدها، وغلب على "تدمير" أبو الشماخ زعيم اليمنية، ولبت بضعة أعوام يتحدى سلطة قرطبة، والبعوث تتردد إليه في كل عام دون أن تتال منه شيئا، ولم تهدأ الفتنة إلا في (سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م) حيث خضع أبو الشماخ وغيره من الزعماء، وطلبوا الأمان وعادوا إلى الطاعة. ثم عمد عبد الرحمن بن الحكم إلى هدم مدينة (ألة) حاضرة "تدمير" التي انبثقت منها الفتنة، وأمر ببناء مدينة "مرسية" (سنة ٢١٦هـ/٨٣١م)^(١).

٢- ثورة أهل "ماردة" (سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م) بقيادة محمود بن عبد الجبار (من البربر) ومعه أحد المولدين يسمى "سليمان بن مارتين" ويعرف بابن قعنب. وانضم إليهم النصاري المعاهدون. وقد توالى الحملات العسكرية على "ماردة" حتى تمكنت من إخماد ثورتها وقتل زعيم الثورة (سنة ٢١٩هـ/٨٣٤م)^(٢).

٣- فتنة المستعربين (النصاري) بقرطبة:

وفي أواخر عهد عبد الرحمن بن الحكم وقعت في قرطبة حادثة تعرف عند المؤرخين الأوربيين القدامى والمحدثين "بحركة الشهداء". ولم تتحدث عنها المصادر الإسلامية، ومنها المصادر الأندلسية. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن هذه الحادثة لم تكن ذات خطر كبير كما ذهب المصادر الأوربية، بل اعتبرها الأندلسيون حادثة عارضة ومن ثم أغفلوها.

ويطول المقام بذكر التفاصيل التي أوردتها المصادر النصرانية عن حادثة "الشهداء" كما يسمونها^(٣). ومجمل القول فيما حدث أن جماعة من غلاة النصاري كانوا ينقمون على الإسلام سيانته على الأندلس، فكانوا يسبون رسول الله صلى الله عليه وسلم،

(١) راجع أحداث هذه الفتنة في البيان المغرب ٨١/٢. وانظر دولة الإسلام في الأندلس لمحمد عبد الله عنان ٢٥٥/١.

(٢) البيان المغرب ٨٣/٢ (أحداث سنة ٢١٧هـ)، ثورات البربر في الأندلس في عصر الإمارة الأموية للدكتور حمدي عبد المنعم حسين ص ٣٥-٣٧.

(٣) ذكرنا تعبير "الشهداء" هنا - رغما عن تحفظاتنا عليه - لأنه صار تعبيراً اصطلاحياً في الكتابات التاريخية، وبخاصة الغربية منها. ويمكن الرجوع إلى تفاصيلها إلى كتاب (دولة الإسلام في الأندلس) لمحمد عبد الله عنان =

وينكرون عليه نبوته ويطعنون في دين الإسلام ويستخفون به، ويفعلون ذلك علنا عند أبواب المساجد وفي الطرقات العامة، طلبا للاستشهاد، حيث كانت العقوبة التي يلقيها أمثال هؤلاء هي الموت بعد أن يطلب منهم - أمام القضاء - ترك أقوالهم، لكنهم يرفضون ويكررون السب والتجريح، وقد كثر عدد هؤلاء الغلاة، خاصة من الشباب والفتيات. وكان يؤجج من حماسهم نفر من النصارى المتعصبين مثل (سان إيولوخيو/ San Eulogio) و(ألبرو القرطبي/ أو ألفارو Alvaro de Cordoba). وقد أثارت هذه الأحداث استياء غالبية النصارى المستعربين، وقالوا: ((إن

السلطان يسمح لنا بمزاولة شعائر ديننا ولا يضطهدنا، فلماذا - إذن - هذا المسمى التعصبي، إن هؤلاء الذين تدعونهم شهداء ليسوا كذلك، إنما هم انتحاريون، يحفزهم الزهو، وهو أصل الخطايا كلها)).

والواقع أن طائفة النصارى بالأندلس الذين أقاموا في ظل المسلمين وتأثروا بالثقافات العربية، وتعربوا تعريبا أنساهم لغتهم اللاتينية تمتعوا في عصر بني أمية بحرية العقيدة وعدم التدخل في شئونهم التعبدية وأحوالهم الشخصية، وعاشوا في ظل سياسة تقوم على العدل والإنصاف كما أوضحنا من قبل.

ولكى تحسم هذه الفتنة أمر عبد الرحمن بن الحكم بعقد مجمع ديني كنسي (في حدود سنة ٢٣٨هـ/ ٨٥٢م) يحضره أساقفة الأندلس، برئاسة مطران إشبيلية (ريكافريديو Recafredo) وناب عن الأمير عبد الرحمن في حضور المجمع كاتبه (قومس أنتينان النصراني) - أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه^(١) - تحدث فيه داعيا المستعربين إلى التزام الهدوء والطاعة، وإلى عدم جنوى ما يقوم به بعض متطرفي النصارى. وانتهى الأمر

١ = ٢٦٧-٢٧٣. وكتاب (تاريخ النصارى في الأندلس) للدكتور عبادة كحيلة (أفرد لها للفصل الثامن من الكتاب ص ١٩٩-٢١١)، المسلمون في الأندلس، لنوزي (ترجمة د. حسن حبشي ج ١ ص ٨٥ وما بعدها). ومن المؤرخين الإسبان القدامى الذين أفاضوا في التاريخ لهذه الحادثة (سيمونيت) في كتابه (تاريخ المستعربين). وللقس (إيولوخيو) - وهو أحد المعاصرين لهذه الأحداث والمؤججين لنارها - كتاب مجموع بعنوان تاريخ الشهداء.

(١) ترجم له ابن حيان في (المقتبس في تاريخ الأندلس) - القطعة التي نشرها د. محمود على مكى - ص ١٤٢. وقد وردت معلومات عن قومس بن أنتينان (أو/ أنطونيان) في تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٨٢-٨٣، تاريخ قضاة قرطبة للخشني ص ٧٥ (ط. الهيئة العامة للكتاب). وراجع ما كتبه عنه د. محمود على مكى في تعليقاته على المقتبس ص ٥٢٢-٥٢٦.

بإصدار قرار كنسى يحرم على النصارى قذف الإسلام أو النبى، والتعرض للموت فى غير مبرر.

ويرى الباحثون أن الدافع لإشعال هذه الفتنة هو ضيق بعض القساوسة من اتساع نطاق الإسلام، (إذ كانوا يؤكدون لأتباعهم قبل ذلك أن الإسلام باطل وأن دولته لن تلبث أن تزول، ولكنهم رأوا أمر الإسلام يشتد يوما بعض يوم، وإمارته تزدهر، ومجتمعه يزداد رخاء وثباتا، كما رأوا الثقافة العربية تغزو قلوب الشباب من أبناء دينهم، فلا يكاد أحد منهم يحفل باللغة اللاتينية أو آدابها، بينما ينفقون جهدا كبيرا فى دراسة العربية ومطالعة آدابها، بل برع الكثيرون منهم فى كتابة العربية. فلما وجد أولئك الأحرار المتعصبون أبناء دينهم لا يابھون لأمرهم، بل يزدادون عنهم انصرافا، ويدخل الكثيرون منهم فى خدمة الإمارة القرطبية ويُسَلَّمون ويُصَلُّون إلى الرتب العالية فى المجتمع والإدارة إذا بهم يجاهرون بالعداوة للإسلام ونبيه علنا أمام الناس...) (١).

هـ- أبرز الأحداث الداخلية فى فترة صراع الإمارة (الفتنة الكبرى):

لقد حافظ الأمراء الثلاثة الأوائل - من أمراء بنى أمية بالأندلس بعد عبد الرحمن الداخل - على وحدة الدولة إلى حد كبير، واستطاعوا إخماد الفتن الداخلية ومواجهة الأخطار الخارجية، ونجحوا فى أن يوقفوا التوسع المسيحى فى مناطق الشمال (كما سيأتى)، وأن يحافظوا على التفوق السياسى والحربى لدولة الإسلام فى الأندلس. ولا شك فى أن يقظة هؤلاء الأمراء وقوة مراسهم وعلو همهم قد أتاح للدولة الأندلسية فرصة الحياة والبقاء وسط العواصف المدمرة، فلما توفى الأمير عبد الرحمن بن الحكم (٢٣٨هـ / ٨٥٢م) وتولى الإمارة أمراء ضعاف - امتد حكمهم ما يقرب من ثلثى قرن من الزمان (٢٣٨-٣٠٠هـ / ٨٥٢-٩١٢م) - تمزقت وحدة الأندلس، وقام الثوار فى سائر أنحاءها بشق عصا الطاعة على الحكومة المركزية، واستقلوا بحكم المناطق التى ثاروا فيها، وتقلص نفوذ أمراء بنى أمية، وأصبح سلطانهم (فى زمن الأمير عبد الله بن محمد خاصة) لا يتعدى قرطبة ونواحيها، وأتيح للفرصة لممالك الشمال النصرانية لأن تتوسع على حساب المسلمين (٢).

(١) د. حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٨٣. وراجع: تاريخ النصارى فى الأندلس للدكتور عبادة

كحيلة ص ٢٠٨، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للدكتور السيد عبد العزيز سالم ص ٢٤١-٢٤٢.

(٢) راجع: تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للدكتور السيد عبد العزيز سالم ص ٢٤٣ (بتصرف).

ولم تكن هذه "الفتنة الكبرى" ^(١) (التي وصلت ذروتها في إمارة عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن ٢٧٥-٣٠٠هـ / ٨٨٨-٩١٢م) قاصرة على المناطق الجبلية، بل تجاوزتها إلى القواعد والمدن الكبيرة، مثل "إشبيلية" و "بطلئوس" و "جيان" و "لورقة" و "مُرسية" وغيرها. وقد شارك فيها عناصر المجتمع، فلم تكن قاصرة على زعماء "المولدين"، ولكنها امتدت إلى زعماء القبائل العربية أنفسهم، إذ رأوا الفرصة سانحة لاستقلالهم وتدعيم سلطانهم، وظهر البربر في ساحة الفتنة، فاستعصم كثير من زعمائهم إلى الحصون النائية، ونشبت المعارك بين العرب والمولدين حينما التقت حشودهم، كما حدث في كورة "ريه" و "إشبيلية"، كما نشبت مثل هذه الخصومات بين العرب والبربر، وفيما بين العرب أنفسهم.

وهكذا كانت جزيرة الأندلس تضم عناصر مختلفة لم يندمج بعضها ببعض بصورة كافية، فإذا قويت الحكومة المركزية بقرطبة أمكن لهذه العناصر أو الأجناس أن تعيش إلى حد كبير في وئام مع بعضها، وإذا ضعفت السلطة المركزية ظهرت أطماع هذه الأجناس على شكل استقلال محلي في الجهة التي يعيشون فيها، وكانت طبيعة الأندلس الجغرافية الجبلية تساعدهم على ذلك ^(٢).

أما عن أسباب ذبوع الثورة في الأندلس في هذه الفترة فقد انفرد الوزير المؤرخ لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦هـ / ٣٧٤م) بتوضيحها، وجمّعها في ثلاثة أمور، فيقول: «والسبب في كثرة الثوار يومئذ ثلاثة وجوه، الأول: منعة البلاد، وحصانة المعقل، وبأس أهلها بمقاربتهم عدو الدين، فهم شوكة وحذّ بخلاف سواهم. والثاني: علوهم، وشموخ الأنوف، وقلة الاحتمال لثقل الطاعة، إذ كان من يحصل بالأندلس من العرب والبرابرة أشرفاً يأنف بعضهم من الإذعان لبعض. والثالث: الاستناد عند الضيقة والاضطرار إلى الجبل الأشم والمعقل الأعظم من ملك النصارى الحريص على ضرب المسلمين بعضهم ببعض» ^(٣).

(١) لم يطلق على هذه الفتنة في مصادرنا تعبير محدود، ولما كانت قد عمت أقطار الأندلس، وشملت عناصر السكان جميعها واستطالت نحو ستين سنة فقد أطلق عليها البعض تعبير "الفتنة الكبرى" (راجع: دولة الإسلام في الأندلس لمحمد عبد الله عنان ٣٣٥/١، تاريخ النصارى في الأندلس للدكتور عبادة كحيلة ص ٢١٥).

(٢) د. العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس ص ١٦٨.

(٣) أعمال الأعلام في من بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام لابن الخطيب ص ٣٦.

ومن بين الأسباب التي أدت إلى اشتعال الفتنة - إضافة إلى ما ذكره ابن الخطيب:

١- لم تكن سياسة الدولة تجاه الأزمات الاقتصادية التي واجهتها تتم عن الحرص على معالجتها وتخفيف وطأتها، وكان لذلك تأثير بالغ على المولدين والنصارى المعاهدين، لأنهم كانوا أكثر أفراد المجتمع الأندلسي المنتجين.

وقد شهدت الأندلس خلال القرن الثالث - وبخاصة في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ / ٨٥٢-٨٨٦م) سنوات متتالية سادها القحط، مما ترتب عليه هلاك كثير من الناس، أو هجرتهم من البلاد. وكانت المجاعة التي وقعت سنة (٢٦٠هـ / ٨٧٣م) هي أشدها. وفي هذه السنة كان الوالى على مدينة قرطبة هو (وليد بن غانم)، فاستشاره الأمير محمد بن عبد الرحمن فقال له: ((العشور ما ترى فيها ؟ . قال: إنما يؤخذ العشور بسبب الزراعة والرفع، ولم تزرع رعيك ولا رفعت (أى: ولا جنيت)، فأنفق من أهرائك^(١) وبيوت أموالك، فلعل الله أن يأتى فى العام المستقبل بخير، فزأمه (أى: نهره) وقال: لا والله لا تقلدت تحريك حبه واحدة منه^(٢)). فلما ذاع الخبر بين الناس تقدم "حمدون بن بسيل" المعروف بالأشهب إلى الأمير وسأله أن يوليه على المدينة، على أن يضمن له إيراد العشور. وقد كان حمدون من البغاة ((فهتك الستور، وضرب الظهور، وقتل الأنفس، ففر الناس إلى الله عز وجل منه، وأماته الله بغتة وقبضه إلى سخطه^(٣)). وأراد الأمير أن يستعين مرة أخرى بوليد بن غانم ليصلح ما أفسده ابن بسيل فرفض العودة، فولى الأمير غيره "فاضطربت الأحوال فى آخر أيامه...^(٤).

٢- سوء سيرة بعض الوزراء فى تدبير شئون الدولة ومعاملة الثائرين. وأوضح مثال لذلك الوزير "هاشم بن عبد العزيز" فى زمن الأمير محمد بن عبد الرحمن. وتتفق النصوص التاريخية على إدانته، وتذهب إلى سوء سيرته، ومن ذلك ما ذكره عمدة المؤرخين الأندلسيين ابن حيان نقلاً عن ابن القوطية حيث قال: ((كان الأمير محمد من

(١) الأهرام: مفرداً (هزئ) وهو البيت الكبير الضخم، يجمع فيه طعام السلطان (لسان العرب: هزئ).

(٢) تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ١٠٠.

(٣) ابن القوطية ص ١٠٠.

(٤) المرجع نفسه، ونفس الصفحة. وراجع: تاريخ النصارى فى الأندلس للدكتور عبادة كحيل ص ٢١٥-٢١٦.

أهل الأناة والحلم، واليقظة والفهم، وقلة العجلة والتزهد عن العقوبة، مكرماً لأعلام الناس من أهل العلم والموالي والأجناد، متخيراً لعماله ورجال خدمته من أهل الحزم والنصافة، شديد المذاهب في السيرة السلطانية، قطع بذلك مدة من دولته في انتظام، واستقام إلى أن ألقى بأمره إلى هاشم بن عبد العزيز أثير (أى المفضل لديه) من الوزراء، فلم يلبث أن أفسد عليه أمره بشربه وصلفه، وحمله على غير المنهج من محمود طرقة، وعدل عن اختيار ثقات العمال من الشيوخ والكهول وأولى السوابق والأصول إلى الأحداث واللاحقين من أولى الشره والخيانة ودناءة الأصول والبراعة من عهدة الحياء والمروءة ... فلم يلبث الأمر أن فسد بذلك، حالاً بعد حال، فنجمت الفتنة بأكثر البلاد، وكثر في الأرض الفساد، فما إن هلك الأمير محمد إلا وأكثر الأرض من الأندلس مضطربة ناراً^(١).

وإذا تحدثنا عن الثورات والفتن التي ظهرت في فترة صراع الإمارة (دويلات الطوائف الأولى) فإن المجال لا يتسع، لكن نذكر منها أهم ما يمثل العناصر الثلاثة الكبيرة في المجتمع الأندلسي، وهى "المولدون"، و "العرب" و "البربر"^(٢).

١- فالمولدون: كونوا عدة دويلات مستقلة عن قرطبة نذكر منهم :

(أ) بنو قسي (أو بنو موسى). وقد استقلوا بمنطقة "سرقسطة" في "الثغر الأعلى" التي كانت ثغراً على "أراجون" و "قطالونيا" في شمال شرق الأندلس^(٣).
(ب) بنو مروان الجليقي. وقد استقلوا بولاية "بطلوس" و "ماردة" في غرب البلاد، وتقع حالياً على الحدود البرتغالية^(٤).

(ج) بنو حفصون، وزعيمهم عمر بن حفصون. وحركته كانت أخطر الحركات في فترة الفتنة الكبرى. وقد استقلوا بالمرتفعات الجنوبية الممتدة بين مدينتي "رندة" غرباً و"مالقة" شرقاً. وكانت قاعدتهم قلعة "ببستر" (Bobastro).

(١) المقتبس من أخبار الأندلس - لابن حيان (القطعة التي نشرها الدكتور محمود على مكى - ص ١٢١-١٣٢).

(٢) ذكر الدكتور السيد عبد العزيز سالم في كتابه (تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٢٥٣-٢٥٩) قائمة بأسماء الثوار ومناطق نفوذهم، وقد بلغ عددهم في زمن الأمير عبد الله بن محمد (٢٧٥-٣٠٠هـ) فقط، خمسة وعشرين ثائراً. وراجع المقتبس (القطعة التي نشرها د. إسماعيل العربي) من ص (٢٤) إلى ص (٥٣)، البيان المغرب لابن عذارى ١٣٣/٢-١٣٨.

(٣) راجع المقتبس ص ٣٢-٣٣.

(٤) المقتبس، ص ٣٦-٣٩.

٢- أما زعماء البربر الذين استقلوا عن قرطبة نذكر منهم:

أ- (بنو ذى النون) فى الثغر الأدنى (طليطلة) الذى كان ثغراً على بلاد الجَلَالقة ومنطقة القلاع (قشتالة) فى الشمال الغربى.

ب- بنو الملاح الذين استقلوا بمدينة "جيان".

٣- أما الزعماء العرب الذين استقلوا عن قرطبة فى تلك الفترة فنذكر منهم:

أ- بنو حجاج فى "إشبيلية" و "قرمونة". وكان بلاطهم فى إشبيلية لا يقل عن بلاط بنى أمية فى قرطبة، حيث أحاطوا أنفسهم بهالة من العظمة والمجد، واستقدموا إلى مدينتهم الشعراء والعلماء^(١).

ب- سعيد بن سليمان بن جودى السعدى فى "غرناطة" و "البيرة". وكان عدواً لعمر بن حفصون وأتباعه المولدين، وله معهم وقائع حربية كثيرة^(٢).

حركة عمر بن حفصون (المرتد) [٢٦٥-٣٠٥هـ / ٨٨١-٩١٧م]:

وأهم الشخصيات التى شاركت فى إضرام نيران الفتنة، وأخطرها جميعاً هى شخصية زعيم المولدين: عمر بن حفصون^(٣). قال عنه ابن حيان فى سياق حديثه عن أسماء المخالفين على الأمير عبد الله بن محمد، الخارجين على الجماعة، المضرمين لنار الفتنة. ((أولهم: إمامهم وقوتهم عمر بن حفصون، أعلاهم نكراً فى الباطل، وأضخمهم بصيرة فى الخلاف، وأشدّهم سلطاناً، وأعظمهم كيداً، وأبعدهم مدة، وأخباره لا تُحصى كثرة. وكان ابتداء خروجه فى مدة الأمير محمد (٢٣٨-٢٧٣هـ)، فمدّ له فى غير إلى أن هلك فى صدر أيام الخليفة الناصر لدين الله (٣٠٠-٣٥٠هـ))^(٤).

وينتمى عمر بن حفصون إلى أسرة من أصل قوطى اعتنقت الإسلام منذ أيام جده (جعفر بن هيثم) الذى عرف بجعفر الإسلامى^(٥) فى عهد الحكم الرئضى

(١) المقتبس ص ٢٧-٣٢، البيان المغرب ١٢٥/٢، ١٣٥، أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٣٤-٣٥.

(٢) المقتبس ص ٥٠، البيان المغرب ١٣٤/٢، ١٣٦.

(٣) اسم (حفصون) هو صيغة تكبير لاسم (حفص). وهناك أسماء أندلسية كثيرة تأثرت بهذه الصيغة الإسبانية، مثل (غلبون) بزيادة الواو والنون على "غالب". و(زرقون) على "أزرق". و(عبدون) على "عبد" أو "عابد". و(خلدون) على "خالد". و(زيدون) على (زيد). وهكذا (راجع: فى تاريخ المغرب والأندلس، للدكتور العبادى - ص ١٧٠).

(٤) المقتبس ص ٢٤.

(٥) يذكر ابن عذارى نسبه - نقلاً عن ابن حيان - فيقول: هو عمر بن حفص - المعروف بحفصون - بن عمر بن جعفر بن شميم بن ذبيان (أو - دميان) بن فرغلوش بن إنفونش (البيان المغرب ١٠٦/٢).

(١٨٠-٢٠٦هـ). وقد بدأت حركته من ولاية "ريّة" (Rejio) (بمحافظة مالقة الآن). وكانت هذه المدينة تضطرم بالثورة ضد الحكومة (سنة ٢٦٥هـ/٨٧٨م) بسبب تعسف عاملها في مطالبة أهلها ببقايا الخراج وتشدده في ذلك، فامتنعوا عليه واعتصموا بجبالهم، وتأهبوا للدفاع عن أنفسهم، وحاول الأمير محمد بن عبد الرحمن إخماد حركتهم بالقوة فلم يصل إلى ما يريد، وعمت الفوضى إقليم (ريّة) كله، وانتشرت الفوضى^(١). وفي وسط هذه الظروف ظهر عمر بن حفصون وناب عن الناس في تقديم مطالبهم للحكومة المركزية، لكنه لم يصل إلى شيء. فارتحل إلى جبل "ببستّر" (Bobastro) شمال شرق "رندة" وهو حصن روماني قديم يقع على مقربة من السهل الكبير الذي يمتد حتى مدينة قرطبة، ولا يُخشى على من أقام فيه إلا من الأجل كما يقول ابن سعيد المغربي^(٢). ومن هناك أخذ يوسع حدود سلطانه بالإغارة على الجهات المقابلة حتى بلغ حصن "بلاي" (Poley) المطل على قرطبة نفسها.

وقد استغرقت هذه الحركة وحدها من جهد الدولة أربعين عاماً (٢٦٥-٣٠٥هـ/٨٨٢-٩١٧م). ولم يستطيع واحد من الأمراء الأمويين الثلاثة - محمد بن عبد الرحمن، وولديه المنذر وعبد الله - القضاء عليها رغم ما حققوه من انتصارات عديدة، إذ كان لابن حفصون من المناعة وكثرة الأتباع وحصانة الموقع ما أمكنه الوقوف كل هذه المدة في وجه جيوش الدولة، ولم تنته ثورته إلا في بداية عهد عبد الرحمن الناصر، (سنة ٣٠٢هـ/٩١٥م)، حيث أظهر ميله إلى السلم، وطلب الأمان، (فأسعفه الناصر، وكتب عهداً بذلك، له ولعقبه ما وقوا). وقد وفي ابن حفصون بعهوده لأول مرة، وظل على ذلك إلى أن توفي سنة ٣٠٥هـ/٩١٧م عن عمر يناهز اثنين وسبعين عاماً^(٣). فهدأت الفتن، وانقطع شرها، وعادت الوحدة للأندلس تحت سلطان بني أمية من جديد.

هذا، وقد شاع في المصادر الأندلسية أن عمر بن حفصون قد تنصّر وارتد عن الإسلام (سنة ٢٨٦هـ/٨٩٩م). وكان يريد من وراء ذلك أن يضم إلى جانبه جميع العناصر المستعربة، غير أن هذا الارتداد أضره، فانصرف عنه كثير من المولدين

(١) المقتبس لابن حيان ص ٣٩٣ - ٣٩٥ (قطعة منه من تحقيق د. محمود مكي).

(٢) المغرب في حكي المغرب لابن سعيد ج ١ ص ٥٣.

(٣) راجع المقتبس لابن حيان (نشرة شالميتا) ص ١١٢-١١٥، أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٣٢.

المسلمين، فضعف أمره وتفرق عنه كثير من القادة. يقول ابن حيان فى أحداث السنة المذكورة ((وفىها أظهر اللعين عمر بن حفصون النصرانية، وباطنَ العجم نصارى الزمة، واستخلصهم (أى اختارهم) بالكلمة، وأيدهم وفضلهم، وتعصب على المسلمين، وأساء الظن بهم، فبابذه عن ذلك عوسج بن الخليع التاكرونى (ظهريه)، وانحرف عنه ... وصار حرباً له وإلباً عليه. وخرج عليه أيضاً يحيى بن (زكريا) بن أنتلّه (Anatotio) فى جماعة من المسلمين، فتمرس منه، وانكشف للناس رذته، ورأوا فرضاً عليهم حربته، واطردت مغازى السلطان عليه وعلى أشياعه صوائف وشواتى، فجرت له وعليه معه أمور طويلة^(١).

إن ردة ابن حفصون جعلت من المؤرخين الأوربيين يذهبون إلى القول بأن ثورته كانت ثورة دينية ضد غزاة عملوا على استعباد الشعب الإسباني، بمعنى أن المصادر الأوربية بالغت فى تصوير عمر بن حفصون، وقدمته على أنه بطل قومى سعى إلى غاية نبيلة، وهى تحرير وطنه من المتغلبين عليه وردّه إلى ديانته النصرانية^(٢).

والحق أن هذا القول غير صحيح، فإن هذه الثورة - وغيرها من الثورات التى اندلعت فى الفتنة الكبرى - نتجت عن أسباب طارئة لا تعود أصولها إلى قيام الدولة العربية الإسلامية فى إسبانيا، وإنما تعود إلى أسباب اجتماعية تتصل كلها بنظام الحكم الأموى ووجود جماعات كبيرة من العرب فى كُور تُمير والمَرِيّة وغرناطة فى (الجنوب) وسوء تصرف أولئك العرب مع الزراع وأهل القرى فى تلك النواحي، ومعظمهم مُؤلّدون ومستعربون. كما كانت شخصية ابن حفصون ذاته عنصراً من عناصر إضرار نار الفتنة. وقد عبّر هو عن نزعه للاستقلال، وبغضه للعرب، فقال موجهاً كلامه إلى المؤلّدين والمعاهدين: ((طال ما عَنّف عليكم السلطان، وانتزع أموالكم، وحملكم فوق طاقتكم، وأذلنكم العرب واستعبدنكم، وأنا أريد أن أقوم بثأركم، وأخرجكم من عبوديتكم))^(٣).

(١) المقتبس لابن حيان ص ١٥-١٥١ (القطعة التى نشرها د. إسماعيل العربى). وراجع: تاريخ النصارى فى الأندلس للدكتور عبادة كحيلة من ٢٢١، ص ٢٣١.

(٢) راجع تاريخ النصارى فى الأندلس ص ٢١٨، المسلمون فى الأندلس للدكتور عبد الله جمال الدين (موسوعة سفير ج ٧ ص ٤٧).

(٣) البيان المغرب لابن عذارى ١١٤/٢.

فكان - كما نقل المؤرخ ابن عذارى - "لا يورد هذا على أحد إلا أجابه وشكره، وكانت طاعة أهل الحصون له بهذا الوجه"^(١).

ثانياً: أبرز الأحداث الخارجية في عصر الإمارة^(٢):

أما الأحداث الخارجية في عصر الإمارة فقد كانت متنوعة أيضاً، فبعضها أخطار هددت شبه الجزيرة الأندلسية من خارجها، وبعضها نشاط أندلسي تمثل في رد اعتداءات إسبانيا النصرانية المتكررة في المنطقة الشمالية. وفيما يلي نعطى نبذة عن أهم هذه الأحداث.

(أ) هجوم شارلمان (ملك الدولة الفرنجية) على دولة الإسلام في الأندلس:

كان الفرنج سلطة قوية قريبة من الأندلس ومجاورة له. وكانوا يتخوفون من الدولة الإسلامية النامية، لا سيما بعد أن رآول حاكمها الجديد (عبد الرحمن الداخل) قضى على كل المقاومة، وظهرت الأندلس مرة أخرى قوية متماسكة. ومنذ السنوات التي سبقت عبد الرحمن الداخل مباشرة كانت سياسة الفرنج نحو الأندلس عدائية، لا يتركون فرصة إلا واستغلوها في إضعاف قوة المسلمين، واتخذوا عدة وسائل لمهاجمة المدن الإسلامية في الشمال الشرقي، كتحريض العصاة الخارجين على الدولة، أو تأييدهم ومدعمهم بوسائل القوة الممكنة، هذا إلى جانب المحاولات العديدة لتقليص حكم الإسلام وطرد المسلمين من المناطق الجنوبية في إقليم "غالة" خلف جبال "البرت".

ولما كانت السياسة الفرنجية ترمى قبل كل شيء إلى تأمين "غالة" (جنوب فرنسا) من الغزو الإسلامي فقد رأت أن تنشئ في أقصى الشمال الشرقي من الأندلس -مما يلي جبال "البرت"- ولاية فرنجية جديدة تكون سدا بين المسلمين وبين مملكة الفرنج، وأنشئت هذه الولاية -في البداية- من مدن "جبرونة" و "أوزونة" و "سولسونة" وما حولها مما اقتطعه الفرنج من أراضي الأندلس الإسلامية. ولما عاد الاضطراب إلى الثغر الأعلى -في "طليطلة" وغيرها- وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورات الداخلية المتوالية وجد الفرنج الفرصة سانحة لدفع غزواتهم نحو الجنوب. وكان "شارلمان" ملك الفرنجة يطمح بالأخص إلى افتتاح مدينة "برشلونة" المنيعة لتكون معقلاً لحماية أملاكه الجنوبية، فعمد قبل البدء

(١) البيان المغرب ١١٤/٢. وراجع: معالم تاريخ المغرب والأندلس للنكتور حسين مؤنس ص ٣٠٣.

(٢) كان بند (أولا) بعنوان: (أهم الأحداث الداخلية) - راجع عنه (ص ٦٣).

فى تنفيذ مشروعه إلى التحالف بينه وبين أمير "جليقية" -ألفونسو الثانى- لكى يكتسب ولاء "البشكنس" ومعاونتهم. وفى (سنة ١٨٥هـ / ٨٠١م) - فى إمارة الحكم بن هشام (١٨٠- ٢٠٦هـ / ٧٩٦-٨٢٢م) - سير "شارلمان" إلى الأندلس جيشا ضخما لغزو "برشلونة" بقيادة ولده "لويس"، وكان "الحكم" مشغولا يومئذ بمطاردة الخارجين عليه، وفى مقدمتهم عماء "سليمان" و "عبد الله"^(١). وقد حاصر جيش الفرنج المدينة، وثبتت حاكمها القائد العربى "سعدون الرعينى" مدافعا عنها، ومصمما على المقاومة، دون أن يصله مدد أو عون. وأخيرا اضطرت "برشلونة" إلى التسليم بعد أن ذاقت ويلات الحصار سبعة أشهر، وأنشأ "شارلمان" فيها ولاية ثغرية أصبحت من ذلك الحين شوكة فى جنب المسلمين، لأنها تطورت مع الزمن حتى أصبحت إمارة نصرانية مستقلة تابعة للنصارى الإسبان، هى إمارة "قطلونىة"^(٢) التى اندمجت فيما بعد -أثناء القرن الثالث الهجرى- مع مملكة "أراغون" (أراجون) القوية، وغزت الجانب الشرقى من دولة الإسلام فى الأندلس^(٣).

(ب) التصدى للممالك النصرانية الناشئة فى الشمال:

وقد عرفنا فى موضع سابق أن النصارى الإسبان استطاعوا أن يستفيدوا مما وقع بين المسلمين (العرب والبربر) من فرقة وحروب طاحنة فى أواخر عصر الولاة، إضافة إلى المجاعة التى عمت البلاد وأدت بكثير من سكان المناطق الشمالية إلى هجرها، واستغلوا ذلك أحسن استغلال فى أن يكونوا دولة فى الركن الشمالى الغربى من شبه الجزيرة، عرفت بمملكة "جليقية" و (أشتوريس) وعرفت بعد ذلك "بمملكة ليون" منذ عهد الملك ألفونسو الثالث (٢٥٢-٢٩٧هـ / ٨٦٦-٩١٠م) وهى أول مملكة نصرانية تقوم بعد انتهاء الفتح العربى للبلاد، وأصبحت حائلا بين الجلائفة وبين المسلمين^(٤).

وقد أدى عدم التفرد تماما لمقاومة نصارى الشمال الإسبانى إلى ظهور ممالك نصرانية أخرى إلى جانب مملكة "جليقية" و "أشتوريس"، مثل مملكة "تبارة" (نافار) فى الشمال الشرقى. (غرب جبال البرينات، وإلى الشرق من جبال كنتبرية) وتقع هذه المملكة

(١) راجع عن الفتن والثورات التى واجهها الأمير الحكم بن هشام - (ص ٦٦ وما بعدها).

(٢) راجع حديثا عن الثغور فى الأندلس - ص ٦.

(٣) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ٣٢٢/٥-٣٢٣، دولة الإسلام فى الأندلس، لمحمد عبد الله عيان ٢٣٥/١-٢٣٦، معالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس ص ٢٧٤.

(٤) راجع عن ذلك ما ذكرناه (ص ٥٧-٥٨).

فى بلاد البشكونس، وقاعدتهم "بنبلونة" التى حكمها المسلمون فترة من الزمن، ثم فقدوها فى أواخر القرن الثانى الهجرى أمام غزوات الفرنج للمنطقة الشمالية من إسبانيا. وهؤلاء كانوا يسكنون شرق "أشتوريس"، وحول خليج "بِسْكَاي"، وربما امتد وجودهم إلى البلاد التى تقع وراء جبال "البُرَّات" إلى جهة فرنسا. وهم أمة مستقلة، ولهم لغتهم الخاصة حتى الآن. وقد قام أمراء "جليقية" بمحاولة غزوها غير مرة وضمها إلى مملكتهم، لكنها استقلت بنفسها قرب نهاية القرن الثانى الهجرى^(١).

وبين مملكتى "ليون" و "تبارة" تكونت مملكة "قشتالة". وتضم "ألبه" و "القلاع". وكان حاكمها-الذى يتخذ من مدينة "برَغَش" مقراً-خاضعاً لملك "ليون"، ثم انفصلت هذه المملكة فى منتصف القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى.

هذه هى التجمعات النصرانية الرئيسية فى الشمال الإشباني فى عصر إمارة بنى أمية، وما يلى ذلك من عصور. وقد كانت مملكة "جليقية" و "أشتوريس" هى أول دولة قامت فى الشمال الإشباني وما هى إلا استمرار لدولة القوط الزائلة. ولم يقم بجانبها مملكة ذات شأن إلا "تبارة" التى ظهرت فى وقت متأخر، ولم يكن لها دور إلا فى النصف الثانى من عصر الإمارة الأموية. أما "قطلونية" فكانت إمارة تابعة للفرنجة، ولم يكن لها شأن كبير فى تاريخ إسبانيا فى تلك الفترة.

وقد واجهت السلطات الأندلسية فى عصر الإمارة هذه الممالك، ولم يتخلف جميع أمراء بنى أمية عن التصدى لها والوقوف أمام توسعاتها، حتى فى فترات الانشغال بالفتن الداخلية التى كان يقوم بها العرب والبربر والمؤلَّدون والمستعربون، مما أجبر نصارى الشمال على احترامهم والحرص على مسالمتهم بقدر الإمكان.

وليس من المناسب - فى هذا الموجز - تتبع الحملات العسكرية الجهادية التى قادها الأمراء الأمويون بأنفسهم - أو قادتهم - إلى تلك المناطق، فهى كثيرة جداً. ونكتفى هنا بذكر بعض الملاحظات العامة التى توضح لنا طبيعة الصراع بين نصارى الشمال الإشباني ومسلمى الأندلس فى عصر أمراء بنى أمية، وهى^(٢):

(١) راجع: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية ص ٤٢، ٥٠، ٩١، دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان ٦٧/١.

(٢) اعتمدنا فى استخلاص هذه الملاحظات على كتاب الدكتور رجب محمد عبد الحليم (العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية) مع شئ من الإضافة والتصريف (راجع فيه ص ١١٢-١٦٠).

١- اختلف الصدام العسكرى بين الجنوب المسلم والشمال النصرانى شدة وضعفا حسب الأحوال الداخلية لكل من الجانبين؛ فإذا انشغل الجنوب بمشاكله الداخلية تجرأ الشمال وشدد هجومة على الأراضى الإسلامية، والعكس صحيح. وبذلك تبادل الفريقان النصر والهزيمة، وإن كان النصر حليف المسلمين فى أكثر الأحيان. لكن لم ينل أحدهما من الآخر بما يقضى عليه ويزيله من الوجود.

٢- كانت معظم الحملات التى قام بها مسلمو الأندلس فى عصر الإمارة تتجه أول ما تتجه إلى المنطقة الوسطى من الشمال النصرانى، وهى التى تسمى "ألبة" و"القلاع - (قشتالة) - ثم تتجه: إما إلى الشرق- أى إلى الثغر الأعلى (سرقسطة)^(١) للقضاء على المتمردين من بنى قسى" وغيرهم من المولدين الذين أعلنوا العصيان والتمرد بعد عام (٢٢٧هـ / ٨٤١م) وتحالفوا مع أمراء "تبارة" - فى مناطق "البشكونس" - وإما الاتجاه شمالا إلى أهل "تبارة" لعقابهم على ذلك، أو الاتجاه غربا لمهاجمة مملكة "جليقية".

٣- وإدراكا لخطورة الوضع فى مناطق الثغور- أو الحدود- مع الشمال النصرانى كان أمراء بنى أمية ينظمون إرسال الحملات التى كانت تسمى بالصوائف والشواتى. وقد حفلت عهود معظم أفراد بنى أمية بإرسال هذه الغزوات، إما هجوما، أو دفاعا، أو ردا على هجوم وقع بالفعل أو يرتقب حدوثه.

٤- كانت الأوضاع الداخلية تفرض على طرفى الصراع - أحيانا - عقد معاهدات الهدنة والصلح كما حدث فى عهد عبد الرحمن الربضى (٢٠٦-٢٣٨هـ) حينما هاجم النورمانديون الأندلس^(٢) - فعقد عبد الرحمن صلحا مع حكام "تبارة". وكما حدث أيضا بين الأمير عبد الله (٢٧٥-٣٠٠هـ) و "ألفونسو الثالث" ملك "جليقية" من أجل التفرغ لمحاربة عمر بن حفصون فى الجنوب. لكن لا تلبث دوافع الصراع أن تتحرك عند أحد الطرفين، فتتشب الحرب من جديد، وكان النصارى - غالبا - هم الناقضون للعهد.

٥- وإذا توقفت الحملات العسكرية الموجهة إلى الممالك النصرانية بسبب كثرة الثورات والفتن ولم يكن ثمة معاهدة بين الدولة الإسلامية وهذه الممالك تركت الدولة مهمة

(١) راجع حديثا عن الثغور فى الأندلس - ص ٦.

(٢) سيأتى الحديث عن هجوم النورمانديين على الأندلس (ص ٩٠-٩٢).

المقاومة لأمراء النغور من "بنى قسى" المولدين حكام "سرقسطة"، و"بنى تجيب" العرب، ولم يكن لقرطبة سلطان على هؤلاء فى كثير من الفترات.

٦- لم يكن هدف مسلمى الأندلس من جهاد نصارى الشمال الإشباني إعادة هؤلاء النصارى أو تحطيم دولهم وإزالتها من الوجود، فلم يكن ذلك ممكنا بعد أن قامت دولة "جليقية" ودولة "تبارة"، ومن ورائهما الفرنجة يمدونهما وقت الحاجة، كما كانوا يمدون أيضا إمارة "قطالونيا"، تلك الشوكة التى زرعاها الفرنجة فى ظهر النغر الأعلى الأندلسى. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن معظم الحملات التى قام بها مسلمو الأندلس لم تكن إلا رد فعل لاعتداءات النصارى على النغور الإسلامية أو مناطق الحدود المجاورة لهم. صحيح أن حملات المسلمين اتخذت شكلاً تقليدياً وزمنياً ثابتاً، وهو إرسال "صائفة" كل سنة تقريبا، وربما كانت هناك شاتية، لكن لم يكن ذلك إلا دفعا لخطر النصارى أو تأديبا لهم وإجبارهم على التعايش، وتأمينا للحدود التى لم تكن حدودا ثابتة على الدوام، وهذا النوع من الحرب يسمى الآن فى المصطلح الحديث بالحرب الوقائية.

ولعل من أهم العوامل التى تؤكد ما ذهبنا إليه انشغال الأمويين بتثبيت الدولة، والقضاء على الفتن وحركات التمرد الداخلية التى لم يخل منها عصر أى أمير من أمراء بنى أمية. زد على ذلك هذا الانقسام الواضح فى كيان المجتمع نفسه (فى أواخر عصر الإمارة) إلى بربر وعرب ومولدين ومعاهدين (مستعربين) وقيام كل فئة من هذه الفئات بتثبيت سلطانه وإعلاء استقلاله ومحاربته للسلطة المركزية فى قرطبة بهدف القضاء عليها.

أما دول الشمال النصرانى فى الأندلس فقد وجد معها - منذ قيامها - الحافز على قتال المسلمين، وكان هدفها أولا الدفاع عما تبقى لها من أرض فى شبه الجزيرة، وتطور الدفاع إلى الهجوم المُتَّعِد فى النصف الأخير من عصر الإمارة، بغية إجهاد مسلمى الأندلس وخلق المشاكل أمامهم سواء فى داخل الأندلس نفسها أم على حدودها، حتى يحدثن الوقت المناسب لتوجيه هجمات عاتية تقتلعهم من الأرض. وقد حدث هذا بالفعل بعد سقوط الخلافة الأموية فى قرطبة (سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣٠م) وأصبحت الأندلس طوائف ودولا ممزقة.

وقد اتبع نصارى الشمال أساليب مختلفة لتحقيق هذا الغرض. اتبعوا أسلوب الحرب وجهاً لوجه، وتحريض المولدين، وإثارة الفتنة بين النصارى والمسلمين، واستعداد الفرنجة (فى الثغر الأعلى) على المسلمين، وحرب الاستنزاف والإتهاك. وكانت معظم حروب النصارى الشماليين من هذا النوع الأخير، يضربون ضربةً هنا وأخرى هناك، حتى إذا قام الأمير الأموى وجند آلاف الجند، وسار بجيشه بنفسه، أو بواسطة أحد أولاده أو قواده، ووصل إلى منطقة الثغور وجد النصارى قد هاجموا أحد الحصون الحدودية ودمروه ونهبوا ما فيه وما حوله من قرى وأسروا العدو من أهله، ثم لاذوا بالفرار.

كان هذا هو هدف الإسبان من حربهم ضد مسلمى الأندلس، وهذا هو أسلوبهم فى فترة الإمارة (١٣٨ - ٣٠٠هـ / ٧٥٦ - ٩١٢م). أما القول بأن الحروب التى يشنها النصارى الإسبان فى تلك الفترة كانت حروباً صليبية - بالمعنى الاصطلاحي - فأمر لا يُسلم به؛ إذ إن الحرب الصليبية لا يعلنها إلا البابا، فهو الرئيس الأعلى للمسيحية، فى حين أن نظام الحكم فى إسبانيا الشمالية لم يعترف بسلطة البابوية وإشرافها على الكنيسة الإسبانية إلا (عام ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م). لكن ينطبق هذا على تلك الحروب فى عصورها الأخيرة، بدءاً من القرن الخامس الهجرى حينما صار الصراع بين مسلمى إسبانيا ونصارها صراع حياة أو موت، وخاصة بعد أن تدفق على شبه الجزيرة "المرابطون" (٤٨٤-٥٣٩هـ / ١٠٩١-١١٤٤م) و "الموحدون" (٥٣٩-٦٢٠هـ / ١١٤٤-١٢٢٣م) الذين أثاروا الحماس الدينى فى هذه المنطقة، فى الوقت الذى أثارت فيه البابوية فى روما الحماس الدينى المسيحى فى أوروبا، وقامت بأولى حملاتها "الصليبية" فى المشرق فى أواخر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى.

(ج) غارات النورمانديين على الأندلس (٢٢٩هـ - ٢٣٠هـ / ٨٤٤م):

والنورمانديون أو الفايكنج "vikings" هم سكان المناطق الشمالية من أوروبا وموطنهم الأصلى شبه الجزيرة الإسكندنافية، وكانوا شعباً شرساً غير متحضر، وبسبب قسوة المناخ وجذب الأرض فى بلادهم وأن الزراعة وتربية الماشية صعبة وعسيرة اتجهوا إلى البحر طلباً للرزق، لذا أصبحوا ملّاحين مهرة ذوى براعة فائقة فى جوب البحار على متن ظهور سفنهم الطويلة ذات الأشعة السوداء والمجاديف الخفيفة. وفى بداية القرن التاسع الميلادى (الثانى الهجرى)، بدأت غزواتهم فى اتجاه الجنوب نحو

السواحل والشواطئ الأوربية، فكانوا يهبطون إلى مدن السواحل فيقتلون الناس وينهبون ويسلبون ما تقع عليه أيديهم، ثم يعودون إلى سفنهم محملين بالغانم . وقد وصلت غاراتهم إلى روسيا وإلى جزيرة "أيسلندة" ومنها اتجهوا إلى جزيرة "جرينلند" وأحدثت هجماتهم في كل من "إنكلترا" و"فرنسا" أضراراً فادحة. وقد استقروا في المنطقة الشمالية من فرنسا التي حملت اسمهم "منطقة نورماندى" واتصلوا بالحضارة الفرنسية، وتحولوا إلى المسيحية، واستبدلوا بلغتهم الإسكندنافية لغة الأقاليم الشمالية من فرنسا^(١).

ويطلق المؤرخون المسلمون على النورمانديين تسمية "المجوس الأرثمانيون"، بسبب أن النورمانديين كانوا وثنيين قبل اعتناقهم المسيحية فكانوا يوقدون النار في كل مكان يحلون فيه، بل إنهم كانوا يحرقون جثث الموتى من زعماتهم بسفنهم، فظن العرب أن هؤلاء من المجوس عبدة النار "الزُرَّاشْتيون"^(٢).

وقد كانت الغارة الأولى على الأندلس في عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢٢-٨٥٢م) في مستهل ذي الحجة (سنة ٢٢٩هـ / ٨٤٤م). والنورمان الدنماركيون هم الذين قاموا بهذا الهجوم، قد بدأوا بهجومهم على سواحل إسبانيا الشمالية عند الإقليم الذي يعرف باسم "جَلِيْقَة"، ولكن الملك (روميرو الأول) ملك مملكة "إِيُون" تمكن من ردهم^(٣) فاتجهوا إلى سواحل الأندلس الغربية والجنوبية في أربع وخمسين مركباً ومعها أربع وخمسون قارباً فنزلوا في ثغر أشبونة (لشبونة عاصمة البرتغال الحالية)، فكتب عامل المدينة وهب الله بن حزم إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط ينبئنه بالخطر، فكتب إليه الأمير أن يأخذ للأمر أهبطه ويحتاط. وقد تمكن الوالى من الحد من هجماتهم فعلا، مما اضطرهم إلى الاتجاه جنوباً إلى مدينة (قادش) ثم مدينة (شذونة) ثم اتجهوا بسفنهم نحو نهر الوادى الكبير إلى مدينة (إشبيلية) وذلك في ١٢ محرم سنة ٢٣٠هـ /

(١) راجع تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط (القسم الأول: البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس) للدكتور السيد عبد العزيز سالم، والدكتور أحمد مختار العبادى - ص ١٥٢-١٥٣، البحرية العربية في الأندلس منذ بداية تأسيسها إلى عهد الخليفة المنصور (بحث لمحمد عبد العزيز عثمان - منشور بمجلة المورد - المجلد الثانى عشر، العدد الرابع ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٣م - ص ٦٥. وكلمة (الفايكنج) المذكورة مشتقة من الكلمة النرويجية (Vik) وتعنى ساكنى الخليج، ولهذا أطلقت على سكان شبه الجزيرة الإسكندنافية لكثرة خلاتها. أو هى بمعنى المحاربين فى اللغة الإسبانية).

(٢) التاريخ الأندلسى للحجى ص ٢٢٧ - ٢٢٨، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس للعبادى ص ٢٦١.

(٣) دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنانا ١/٢٦٢.

٨٤٣م، وكان عدد مراكبهم نحو من ثمانين مركبا هذه المرة، ويصفها ابن عذارى بقوله «كأنما ملأت البحر طيرا جونا كما ملأت القلوب شجوا وشجونا»^(١) أي أنها تشبه الطيور السوداء فى السماء لسواد أشرعتها . وعند مدخل الوادى الكبير تمكنوا من السيطرة على جزيرة صغيرة يقال لها جزيرة (قبطيل) وكانت مليئة بالخيول والماشية، فقتلوا أهلها واستولوا على كل ما فيها، واتخذوها قاعدة لهم لى تحمى ظهورهم فى حالة الانسحاب بعد الهجوم، ثم تقدموا نحو (إشبيلية) التى كانت غير مسورة، فتصدت لهم بعض السفن، لكن النورمانديون استقبلوها بوابل من الأسهم النارية فاشتعلت النيران فيها وغرقت^(٢) ثم واصلوا تقدمهم ودخلوا المدينة وأعملوا فى أهلها القتل مدة سبعة أيام متتالية^(٣)، مما أدى إلى فرار من استطاع النجاة بنفسه من أهل إشبيلية إلى الجبال المجاورة، وإلى مدينة "قرمونة" ثم انسحب النورمان بسفنهم بعد ذلك إلى جزيرة (قبطيل) لى يضعوا فيها ما غنموه، ورجعوا إلى المدينة ثانية فوجدوها خالية من الناس ما عدا بعض الشيوخ الذين تجمعوا فى أحد مساجد المدينة ليحتموا به، فقتلهم عن آخرهم، ولذا سمي هذا المسجد باسم مسجد الشهداء. وقد حاول النورمانديون الاتجاه بعد ذلك شمالا فى نهر الوادى الكبير نحو قرطبة العاصمة، إلا أنهم لم يتمكنوا من ذلك لصعوبة الملاحة فى هذا الجزء من النهر لشدة التيار، ولهذا استخدموا الخيول التى غنموها فى مهاجمة المناطق المجاورة لمدينة إشبيلية^(٤).

وفى هذه الظروف ولمواجهة الخطر المحدق بالأندلس دعا الأمير عبد الرحمن الأوسط إلى الجهاد (تحشيد الجيوش) فأرسل على عجل فرقة من الفرسان يقودها عبد الله بن كليب ومحمد بن رستم، وجعل على قيادة قوات قرطبة عيسى بن شهيد، كما استتجد بقوات الثغر الأعلى المتمرسه على القتال ضد الممالك المسيحية فى الشمال وكانت بقيادة بنى قسى. وقد حاول النورمانديون الانسحاب من إشبيلية نحو سفنهم يريدون الخروج بها إلى عرض المحيط الأطلسي، غير أن الجيوش الأندلسية اقتتعت أثرهم، وبدأت بضرب

(١) البيان المغرب لابن عذارى ٨٧/٢.

(٢) الأمويون أمراء الأندلس الأول، للدكتور أحمد إبراهيم الشعراوى ص ٣٢٠.

(٣) البيان المغرب ٨٧/٢.

(٤) تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٨٤.

(٥) تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للدكتور السيد عبد العزيز سالم ص ٢٣٦.

سفنهم بالمجانيق المنصوبة على ضفتي النهر، مما اضطر النورمان إلى النزول من سفنهم إلى البر لمجابهة الجيوش الأندلسية، ودارت المعركة الحاسمة قرب إشبيلية في قرية طَلْبَاطَة (Tobada) (في ٢٥ صفر سنة ٢٣٠هـ) انتهت بهزيمة النورماندين، ومقتل قائدهم وعدد كبير منهم نحو الخمسمائة. وعلى أثر هذه الهزيمة تراجع من بقى منهم إلى الجنوب وأبحروا باتجاه جزيرة (قُنبُطيل)، إحدى جزر إشبيلية القريبة منها، وكانت الجيوش الإسلامية ترميهم أثناء ذلك بوابل من الحجارة. ولما رأوا الخطر المحدق بهم طلبوا الصلح وأطلقوا الأسرى المسلمين عندهم ((ولم يأخذوا فدائهم ذهباً ولا فضة، وإنما أخذوا الثياب والمأكول)) ووقع عدد كبير منهم ممن لم يستطع اللحاق بالسفن أسرى بأيدي المسلمين. وقد أقام هؤلاء بصفة دائمة في الأندلس، واعتنقوا الإسلام، واشتغلوا بتربية الماشية وصناعة الألبان، وكونوا طبقة من المولدين من نوى الأصل النورماندى. وقد عمد النورمانديون أثناء انسحابهم من ثغور الأندلس إلى مهاجمة مدينة (لَبْلَه) و(باجه) ثم ثغر (إشبونة) ثم غادروا مياه الأندلس نهائياً مع باقى سفنهم فى غزوتهم الأولى هذه^(١).

تركت الغزوة التى قام بها النورمانديون على ثغور ومدن الأندلس أثراً كبيراً فى نفوس أهل الأندلس، لما بثته من رعب وخوف وقلق، مما دفع الأمير عبد الرحمن الأوسط إلى أخذ الأهبة والاستعداد لصد أى هجوم مقبل من جهة البحر، فأمر ببناء سور إشبيلية لحمايتها، وعمل على وضع نقاط الحراسة على طول الساحل الغربى من الأندلس، عرفت بالربط يقيم فيها المتطوعون للدفاع عن الثغور، مزودين بوسائل الدفاع العسكرى.

كما أمر الأمير عبد الرحمن ببناء دار لصناعة السفن فى إشبيلية، وزودها برجال البحر المدربين، وبآلات وقوارير النفط لاستعمالها فى الدفاع، كما أنشأ داراً لصناعة الأسلحة اللازمة للسفن فى مدينة "قَرْمُونَة" وكان من أثر ذلك أن كان للأندلس أسطول ضخم يضم عدداً كبيراً من السفن الحربية يقدر بما يزيد على (٣٠٠) سفينة، إذا أخذنا برواية ابن حيان وابن الخطيب عند ذكرهما غزو الأسطول فى زمن عبد الرحمن الأوسط لجزيرتى "ميورقة" و"منورقة" ((وفيهما) أى فى سنة ٢٣٤هـ) أغزا الأمير عبد الرحمن أسطولاً من (٣٠٠) مركب إلى أهل جزيرتى ميورقة ومنورقة لنقضهم العهد بمن يمر

(١) من المصادر التى اعتمدنا عليها فى التأريخ لغارة النورماندين الأولى على الأندلس: البيان المغرب ٨٧/٢-٨٨، نفع الطيب ٣٤٥/١-٣٤٦، أعمال الأعلام ص ٢٠، الكامل لابن الأثير ٨٣/٦-٨٤، المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد ٤٩/١.

إليهم من مراكب المسلمين، ففتح الله للمسلمين عليهم وأطفر بهم^(١) مما دفع سكان هذه الجزيرة إلى طلب الصلح والدخول في طاعة الدولة الأموية.

هذا، وقد قام النورمانديون بهجمات أخرى على الأندلس بعد عهد الأمير عبد الله الأوسط (على الرغم من أنهم في عهده سعوا إلى طلب الصلح، وتبادلوا السفارات الدبلوماسية مع حكومة قرطبة) إلا أن هجماتهم هذه لم تستطع أن تحقق أهدافها بسبب الاستعداد الذي اتخذ من قبل الأمير عبد الرحمن الأوسط ومن جاء بعده، بحيث يصف ابن عذاري الاستعدادات البحرية في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط عند حديثه عن غارات النورمانديين في سنة ٢٤٥هـ - ومعهم اثنان وستون مركبا - فيقول: «وجدوا البحر محروسا، ومراكب المسلمين معدة تجرى من حائط الإفرنجة (أى فى الشرق والشمال الشرقى) إلى حائط جليقية فى الغرب الأقصى»^(٢).

ثالثا: أهم الخصائص والملامح الحضارية العامة التى يتميز بها عصر الإمارة:

التاريخ الإسلامى ليس تاريخا سياسيا وعسكريا فحسب ، وإنما هو تاريخ شامل لكل ما أثمرته الحضارة الإسلامية فى مجالاتها المتعددة: السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. وإذا قلنا إن التاريخ السياسى هو القاعدة التى ينبغى أن تبنى عليها كل دراسة للحضارة فإنه ليس كل شئ، «فما هو إلا بمثابة هيكل عظمى ينبغى أن يكتسى لحما وعصبا حتى نستطيع أن نراه جسدا سويا. والذى يكفل اكتمال هذا الجسد هو التعرف على نبض المجتمع وأحواله الاجتماعية والثقافية»^(٣).

ولا شك فى أن هناك علاقة بين الظروف السياسية القائمة ومظاهر الاستقرار وعدمه من جهة ، وبين التطورات الاجتماعية والفكرية من جهة أخرى، «ومن ثمَّ تلتحم السياسة بالثقافة، ويتلاحم رجال الإدارة والحكم مع رعاة الفكر والعلم فى وحدة وثيقة تبرز روح العصر وطبيعته ، ومدى تقدمه وتطوره»^(٤).

(١) المقتبس لابن حيان (تحقيق د. محمود على مكى) ص ٢-٣، أعمال الأعمال لابن الخطيب ص ١٨، البيان المغرب ٨٩/٢.

(٢) البيان المغرب ٩٦/٢-٩٧.

(٣) من تقديم الدكتور محمود على مكى لكتاب قرطبة الإسلامية فى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى - للدكتور محمد عبد الوهاب خلاف - ص ٧ (بتصرف يسير).

(٤) د. عبد الفتاح فتحى: الحياة الثقافية فى العالم العربى فى القرنين الأول والثانى الهجريين - الجزء الأول ص ١٧.

ومن هنا رأينا أن نعطي نبذة سريعة (لقطات) لأهم الخصائص والملامح الحضارية العامة التي يتميز بها عصر الإمارة الأموية بالأندلس، دون الدخول فى التفاصيل.

(أ) من الناحية الاجتماعية :

١- كان عهد الولاة (٩٥-١٣٨هـ) عهد انتقال إلى حياة جديدة قائمة على أسس إسلامية فى السلوك الاجتماعى والحياة اليومية ،وقد بذل العديد من الولاة - ومعهم العلماء والدعاة - الجهود لتوفير هذه الحياة، ومدّ رحابها وتهيئة الجو الملائم لها. وبذلك زاد دخول الكثير من أبناء البلاد فى الإسلام، وبدأ المجتمع يسير فى طريق التحضر الحقيقى والخط الإنسانى الرفيع. ونتيجة للاستمرار فى هذا الاتجاه وتعميقه بدأ الغرس يؤتى ثمره مع تقدم الزمن، وبدأ الكثير من مظاهر السلوك والأخلاق والقيم الإسلامية تبرز بصورة واضحة جلية فى فترة الإمارة ،نتيجة لدخول هذه البلاد فى رحاب الإسلام والالتزام أهله به.

إن أهم ما كان يميز هذا المجتمع فى عصر الإمارة شيوع مجموعة من القيم والمبادئ المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ومن أهمها: العدل والمساواة والشورى والحرية والتكافل الاجتماعى - على مستوى الأفراد والدولة - والتآلف والترابط بين عامة الناس، والرحمة والتسامح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومراعاة الصالح العام، وغير ذلك من القيم التى صبغت المجتمع الأندلسى بصبغة إيمانية جعلت منه فى مجمله مجتمعاً صالحاً ومتحضراً.

وقد لاحظنا من خلال الإطلاع على النصوص والمرويات الأندلسية الكثيرة أن المجتمع الأندلسى كان يقوم فى مجمله على ما ذكرنا من مبادئ وقيم أخلاقية يتعامل بها الناس على اختلاف مستوياتهم وثقافتهم، ويعيشون فى إطارها. وكان المعيار الذى يقاس به صلاح هذا المجتمع وسموه هو تقوى الله، وهى تعنى الالتزام بالمنهج الربانى الذى يستمد الناس منه قيمهم وأخلاقهم.

وهذا لا يعنى أن المجتمع الأندلسى لم يخلُ من بعض صور السلبية والانحراف التى تخرج عن الطابع الأخلاقى العام، أو أنه خلا من أفراد ساءت سيرتهم وانحرفوا عن الأخلاق العامة، فقد كان الناس - بميزان الصلاح والتقوى والأخلاق الفاضلة - فئتين؛ فئة صالحة لا تستغنى عن العلم وحلقاته، وهى الكثرة الغالبة، وفئة أخرى لا تبالى

بالتمسك بالفضيلة وحسن السلوك، ولكنها الفئة القليلة. ولا ينبغي أن نقلل دور السلطة المتمثل في "جهاز الشرطة" وجماعة "الحسبة" في التصدي للمفسدين وللخارجين عن السلوك العام والمحافظة على الأمن في الطرقات والأسواق.

وفي هذا السياق نذكر ما قاله المقرئ واصفاً أهل الأندلس في تمسكهم بالشريعة: «والأغلب عندهم إقامة الحدود، وإنكار التهاون بتعطيلها، وقيام العامة في ذلك وإنكاره إن تهاون فيه أصحاب السلطان...». وقال أيضاً مشيراً إلى خلق اجتماعي امتاز به الأندلسيون: «وأما طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق في الدُرُوزَة (أى الكدية والشحاذة) التى تكسل عن الكد وتحوج الوجوه للطلب (أى للشحاذة) فى الأسواق فمستقبحة عندهم إلى نهاية، وإذا رأوا شخصاً صحيحاً قادراً على الخدمة يطلب سبوه وأهانوه، فضلاً عن أن يتصدقوا عليه، فلا تجد بالأندلس سائلاً إلا أن يكون صاحب عنز»^(١).

٢- وليس من شك فى أن المجتمع الأندلسى قد أُوذِيَ كثيراً، ولاقى ألواناً من الضرر فى أواخر عصر الإمارة (فترة الفتنة الكبرى) حين تآلبت كثرة من الفتن والشُرور الداخلية والخارجية أدت إلى انحسار الدولة الإسلامية فى المنطقة الشمالية وفقدتها قريباً من ربع شبه الجزيرة. لكن تلك الأحداث كانت فى الوقت نفسه - من الناحية الاجتماعية - سبباً من أسباب الاحتكاك بين عناصر المجتمع فى الداخل، وعاملاً من عوامل صهره؛ ذلك أن النزاع بين الإمارة وجماعة ابن حفصون، وبين العرب والمولدين، وما كان من حركات انفصالية قد أتاح لعناصر المجتمع الأندلسى احتكاكاً أكثر، واتصالاً أشد، وانعكس ذلك على الحياة اليومية والمظاهر المعيشية^(٢).

(ب) النظم والإدارة :

١- أصبح الأندلس - منذ دخول عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) - بلداً إسلامياً مستقلاً عن الخلافة الإسلامية، بعد أن كان خاضعاً لمركز هذه الخلافة، ولم نحاول الخلافة العباسية إعادته بصورة جدية لأن استقلاله سياسياً - على ما يبدو - لا يمثل خطراً على الكيان الإسلامى، وبقي يحمل رسالة الإسلام فى الداخل والخارج، ولا يدعو

(١) نفع الطيب ٢٢٠/١.

(٢) الألب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة للكتور أحمد هيكى ص ١١٢ (يتصرف).

ذلك بالضرورة للخصومة والمواجهة. ويذكر المؤرخون محاولة عابرة - أو أكثر - لإعادة الأندلس إلى الخلافة، لكنها لم تأت بشئ. وقد ظل الأمويون يحتفظون بلقب "الأمير"، ((لأنهم كانوا يشعرون بأن الخلافة واحدة لا تتعدد، وأن الخليفة الشرعى هو حامى حى الحرمين الشريفين، أى المسيطر على الحجاز أصل العرب والملة، وهو الخليفة العباسى فى ذلك الوقت))^(١) إلى أن جاء عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ) فأصدر مرسوماً بتحويل "الأمارة" إلى خلافة.

٢- وأهم منصب بعد منصب "الإمارة" هو "الوزارة" وقد وجدت خطة "الوزارة" فى الأندلس مع بداية حكم الأمويين، ويشهد بذلك ابن عذارى الذى أورد فى ترجمة كل أمير أموى عدد وزرائه، وغالباً ما يذكر أسمائهم.

وفى عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢٢-٨٥٢م) أعيد ترتيب الجهاز الحكومى فى الأندلس، وهذا الأمير هو الذى وضع أساس الحضارة الأندلسية فى مجال تنظيم الحكم وضبط قواعده، وأجرى تعديلات فى الوظائف العامة التى كانت الوزارة واحدة منها، فقسمها إلى عدة وزارات مختلفة، واتخذ مجلس وزراء جعل له رئيساً باسم "الحاجب"، وجعل له ولمرعوسيه من الوزراء بيتاً فى قصره يجلسون فيه على فرش منضدة، وجعل الأمر شورى بينهم، واختص كل منهم بشأن من شؤون الدولة، فوزير للمال، ووزير للمظالم، ووزير للثغور أو الحرب. ويقول ابن حيان المؤرخ الأندلسى: ((والأمير عبد الرحمن أول من ألزم الوزراء على الاختلاف إلى القصر كل يوم، والتكلم معهم فى رأى، والمشورة لهم فى النوازل، وأفراد لهم بيتاً رفيعاً داخل قصره مخصوصاً بهم، يقصدون إليه، ويجلسون فيه فوق أرائك قد نُصِّدت لهم، فكان يستدعيهم إذا شاء إلى مجلسه جماعة وأشتاتاً، ويخوض معهم فيما يطالع به من أمور مملكته، ويفحص معهم الرأى فيما ييرمه من أحكامه، وإذا قعدوا فى بيتهم (أى بيت الوزارة) أخرج رقاعه ورسائله إليهم بأمره ونهيه، فينظرون فيما

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٤٨، ٦٨، ٨٠، ٩٣-٩٤، ١١٣ وغيرها.

(٢) المبادئ: فى تاريخ المغرب والأندلس ص ١٠٣.

يصدر إليهم من عزائمه... وجرى على ذلك من تلامهم^(١). ثم قال ابن حيان - بعد أن عدَّ وزراء عبد الرحمن بن الحكم وذكر أسماءهم - «وكان قد اجتمع للأمير عبد الرحمن من سُراة الوزراء أولى الخُوم والنهي والمعرفة والذكاء عصابة (جماعة) لم يجتمع مثلها عند أحد من الخلفاء قبلهم ولا بعدهم»^(٢).

ويقول ابن خلدون : «وأما دولة بنى أمية بالأندلس فأبقوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة ثم قسموا خطته أصنافاً^(٣)، وأفردوا لكل صنف وزيراً، فجعلوا لحسبان المال (أى الإشراف على الشئون المالية) وزيراً، ولترسيل وزيراً، وللنظر فى حوائج المتظلمين وزيراً، وللنظر فى أحوال أهل الثغور وزيراً... وأفرد للتردد بينهم وبين الأمير واحداً منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان فى كل وقت، فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخَصَّوه "باسم الحاجب"، ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم»^(٤).

إن هذا التعدد فى مناصب الوزراء لا نجده فى نظام الوزارة بالشرق العربى، حيث كانت السلطة مركزة فى يد وزير واحد، وقلماً وجد وزيران. أما فى الأندلس فكل ناحية من نواحي الإدارة العامة لها وزير مختص بها، ثم هناك الرئاسة العامة وهى "الحجابة"، وبيت خاص لانعقاد مجلس الوزراء فى بيت الأمير (أو الخليفة فيما بعد). وهذا النظام قريب الشبه بنظم الوزارات الحديثة^(٥).

ومن الجدير بالذكر هنا أن مناصب الوزارة فى المجتمع الأندلسى كانت لأهميتها كالمتوارثة عندهم فى البيوت والعائلات المعروفة، مثل "بنى حذير" و"بنى أبى عبدة" و"بنى شهيد"، و"بنى فطيس"، وكلهم من موالى الأمويين الأندلسيين والمشرقيين^(٦).

(١) المقتبس لابن حيان ص ٢٩ (تحقيق د. محمود على مكى).

(٢) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) أى أن منصب الوزير كان موجوداً فى الدولة الأموية منذ قيامها فى الأندلس، ثم أدخلت عليه تعديلات اقتضت تقسيمه على عدد من الوزراء.

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٢٣٩-٢٤٠. وراجع نفح الطيب للمقرئ ٢١٦/١.

(٥) راجع: فى تاريخ المغرب والأندلس للعبادى ص ١٦٠، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس (للمؤلف نفسه) ص ١٤٥-١٤٦.

(٦) راجع نفح الطيب ٢١٦/١، الحلة السيرة لابن الأبار ج ١ ص ١٢٠.

٣- وقد اهتم أمراء بنى أمية بالأمن الداخلى ومشاكله فى قرطبة العاصمة، وكان المسئول عن ذلك يدعى "بصاحب السوق". وبعد أن كانت سلطة الأمن الداخلى مركزة كلها فى يد شخص واحد أصبحت - فى عهد عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦-٢٣٨هـ) - مقسمة على عدة أشخاص، هم:

أ- صاحب السوق: وقد اقتصر عمله على مراقبة الأسواق والنظر فى مشاكلها. وهذه هى وظيفة المحتسب فيما بعد .

ب- صاحب الشرطة العليا (الكبرى). وينظر فى قضايا الخاصة (أصحاب المناصب والجاه).

ج- صاحب الشرطة السفلى (الصغرى). وينظر فى قضايا عامة الناس .

د- صاحب المدينة. ويشرف على المرافق العامة فى المدينة. وهو الذى يشرف على إقامة الحدود الشرعية.

هـ- صاحب الليل، وهو الذى يطوف بالليل، ويتتبع اللصوص، ويطلق عليهم "الدرايون"، ((لأن مدن الأندلس لها دروب بأغلاق تغلق بعد العتمة، ولكل زقاق بائت فيه، له سراج معلق، وكلب يسهر، وسلاح معد))^(١).

وهذه الوظائف كانت تتغير فى اختصاصاتها أحيانا، ولكنها تتفق جميعا فى الإشراف على الأمن الداخلى، أو ما يسمى بالقضاء المدنى .

وبذلك كله أحكم الأمير عبد الرحمن بن الحكم النظام الإدارى للدولة الأموية بالأندلس، وظل هذا النظام بعده إلى نهاية أيامها كما ذكر ابن خلدون وغيره من المؤرخين الأندلسيين والمغاربة. وكان يقال لأيامه "أيام العروس" لما شمل الناس فيها من أمن ورخاء.

٤- وعنى الأمراء الأمويون بخطة القضاء أيما عناية، وهى من أعظم الخطط عند الخاصة والعامة، لتعلقها بأمور الدين، وكون السلطان يمثل أمام القاضى عند الضرورة. وقد حرصوا على أن يكون القضاء من خيرة العلماء ونجبائهم، يجمعون بين العلم والأخلاق الطيبة والسيرة الحسنة .

(١) نفع الطيب ٢١٩/١، فى تاريخ المغرب والأندلس للمبادئ ص ١٦١.

ومن يطلع على سيرة القضاة فى عصر الإمارة بالأندلس - وما يليه - يجد أن معظم هؤلاء القضاة عُرفوا بحزمهم وعزة نفوسهم، وثباتهم فى مسألة النطق بالحق، والحكم به على كل مستحق، لا فرق بين أحد فى المكانة أو المرتبة أو الجاه، وتسלحوا بشمائل الخير من صدق ونزاهة وتواضع وشجاعة وجرأة فى إصدار الأحكام^(١).

وكان الكثيرون من القضاة فى فترتنا هذه لا يقبلون القضاء إلا بعد أن يفرضوا شروطهم التى كانت تشكل برنامج عملهم القضائى، ولا سيما قضية استقلال القضاء، ونذكر من هؤلاء: محمد بن بشير المعافى الذى رفض قبول منصب القضاء فى عهد الأمير الحكم بن هشام (١٨٠-٢٠٦هـ) حتى يوافق الأمير على تنفيذ عدد من الشروط، منها نفاذ حكمه على الجميع من الأمير إلى حارس السوق، وأنه إذا ظهر له العجز من نفسه أعفى، وأن يكون رزقه (راتبه) كفافاً من المال الفى^(٢).

ولم يكن القاضى هو الوحيد الذى ينفرد فى الحكم على المتخاصمين، بل كان إلى جانبه هيئة شورى تتألف من الفقهاء المتمكنين من مسائل الفقه والشرع يسمون المشاورون، ومهمتهم الرئيسية النظر فى المسائل الصعبة التى يتعذر على القاضى إيجاد حل لها، وبالتالي إصدار حكم بشأنها. ولم يقتصر وجود هذه الهيئة على العاصمة قرطبة، بل وجدت فى كل المدن والبلدان الأندلسية التى كان يعين لها قاض^(٣).

وفى أوائل حكم الإمارة الأموية بالأندلس حصل تطور حضارى مهم فى ميدان تسمية كبير القضاة، ففى حين كان يسمى فى عصر الولاة (قاضى الجند) فإنه فى هذا العصر أصبح يسمى (قاضى الجماعة) الذى يوازى (قاضى القضاة) فى المشرق على عهد العباسيين، ويوازى فى عصرنا (وزير العدل). وقد ظهر هذا المنصب فى عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦-٢٣٨ هـ) وأول من تسمى به فى الأندلس هو

(١) يُراجع فى ذلك كتاب (قضاة قرطبة) لأبى عبد الله محمد بن حارث الخُشنى (المتوفى ٣٦١هـ) [ط/الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م] وعلى سبيل المثال الصفحات ٢، ٢٣، ٢٥، ٢٩، ٣٤، ٣٧، ٤٥-٤٦، ٦١ ومواضع أخرى كثيرة.

(٢) المرقبة العليا فىمن يستحق القضاء والفتيا (المعروف بتاريخ قضاة الأندلس). لأبى الحسن النبامى الملقى الأندلسى - ص ٤٧-٤٨.

(٣) راجع كتاب الصلة لابن بشكوال ج ٢ ص ٤٧٦، ٥٠٧، ٥٤٧، ٥٧١. وكتاب: الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى - القسم الخامس/ الجزء الأول ص ١٠٠.

سليمان بن أسود البلوطي^(١). وكان من اختصاصات قاضي الجماعة - ومقره في قرطبة - اختيار قضاة الأقاليم وتعيينهم^(٢)، وأسندت إليه صلاحيات واسعة شملت عدداً مهماً من قضايا المجتمع والدولة^(٣).

(ج) الإنشاء والتعمير:

وكان العمران أحد الجوانب الحضارية التي أولاهها الأمراء الأمويون عنايتهم، وقام العمران على أسس هندسية وفنية غاية في الدقة والنق و الأناقة، وشمل المنشآت العامة - كالمساجد والقناصر والجسور ودور الصناعة وبناء مدن جديدة - والمنشآت الخاصة كالقصور والقصور والحمامات وغيرها. والمنشآت الحربية، كالأسور والحصون والقلاع. ومن أمثلة الإنشاءات والإصلاحات الكثيرة في فترة الإمارة:

١- بناء المسجد الجامع بقرطبة. بناه عبد الرحمن الداخل في الجهة المقابلة لقصر الإمارة (سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م)، وبلغ ما أنفق عليه ثمانين ألف دينار^(٤)، ثم توالى أمراء بني أمية وخلفاؤهم على الزيادة فيه وتوسعته حتى صار أعظم مساجد الأندلس بل لم يكن في بلاد الإسلام أعظم منه كما يقول المؤرخون، وصار يضرب به المثل في العظمة والاتساع، وفي كثرة الزخارف والجمال. وقد بالغ المؤرخون العرب في وصفه، واختصوه بعنايتهم، وكتبوا في تاريخه ووصفه فصولاً طويلاً تعد من أهم المصادر عن هذا الأثر الجليل^(٥). وكان هذا المسجد من الوجهة العلمية بمثابة أكبر جامعة إسلامية تدرس فيها العلوم الدينية واللغوية، ويفد إليه الطلاب من كل الجهات للدرس والتحصيل.

وقد أنشئت في عهد عبد الرحمن (الداخل) وفي عهد بنيه كثير من المساجد في أقاليم مختلفة من الأندلس، وكان في قرطبة وحدها أيام (الداخل) فقط أربع مائة وتسعون مسجداً، ثم زادت بعد ذلك كثيراً حتى صار عددها في عهد الحاجب المنصور بن أبي عامر (٣٦٨هـ) في قرطبة ألف وست مائة مسجد، ومن الحمامات تسعمائة حمام^(٦).

(١) تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٩٣-٩٤ (تحقيق عبد الله أنيس الطباع / ط بيروت ١٩٥٧م).

(٢) راجع: قضاة قرطبة للخشنى ص ٣٨.

(٣) راجع: القضاء في المغرب والأندلس خلال العصور الوسطى - للدكتور علي أحمد ص ٤٠-٤٣.

(٤) نفح الطيب ٣٢٩/١. البيان المغرب ٥٨/٢.

(٥) راجع: نفح الكيب ٥٤٥/١-٥٥٥، وراجع ما كتبه عنه الدكتور السيد عبد العزيز سالم في كتابه: تاريخ المسلمين

وأثارهم في الأندلس ص ٣٧٧.

(٦) نفح الطيب ٥٤٠/١.

٢- واهتم الأمراء الأمويون بتحصين مدن الأندلس، فأقاموا حولها الأسوار والحصون، وأول هذه المدن قرطبة، فقد قام عبد الرحمن الداخل بترميم سورها القديم (سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م)، وظل هذا السور موضع رعاية الأمراء. وحينما ضاقت المدينة بسكانها تكونت أرباض خارجها^(١)، وأحيطت بالأسوار، وخصوصا بعد ثورة الربض فى زمن الحكم بن هشام (الربضى) (سنة ٢٠٣هـ).

وعندما أغار النورمانديون على "إشبيلية" فى إمارة عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦-٢٣٨هـ) (سنة ٢٩٩هـ/٨٤٨م)^(٢) تمكنوا من الدخول إليها دون أن تعترضهم أسوار منيعة، فاضطر عبد الرحمن إلى تحصينها، وأحاطها بسور حجري كبير^(٣).

٣- ومن المدن التى شيدها بنو أمية فى فترة الإمارة مدينة "الرصافة" وقصرها العظيم، أنشأها عبد الرحمن الداخل فى أول عهده، وتقع هذه المدينة إلى الشمال الغربى من قرطبة على بعد (٤ كم) منها، وقد أحاطها بالحدائق الزاهرة ونقل إليها غرائب الغروس والأشجار من الشام ومن كل ناحية، حتى أثمرت بأنواع الزروع والفواكه التى انتشرت فى أنحاء الأندلس كلها. وأطلق عليها هذا الاسم تخليدا لذكرى "الرصافة" التى أنشأها جده "هشام بن عبد الملك" خارج دمشق فى بادية الشام سنة ١١٠هـ. واتخذ عبد الرحمن من ميدانها الفسيح المسمى "قصر السراشق" منازل للجند والقادة، ومكانا لتدريب الجنود بصورة مستمرة ومنظمة^(٤).

٤- أنشأ عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦-٢٣٨هـ) فى قرطبة دارا جديدة للسكة (العملة)^(٥)، وهو أول من ضرب نقودا أندلسية مستقلة وثابتة، كما أنه أقام على الضفة اليمنى لنهر الوادى الجديد طريقا ساحليا عرف بالرصيف، وذلك (سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م)، وبنى لنفسه قصرا بجوار قصر الإمارة القديم، وجلب إليه الماء العذب من قمم الجبال المحيطة بقرطبة. وأسس مدينة "مرسية" (سنة ٢١٦هـ/٨٣١م) وكانت قبل ذلك قرية خاملة فى كورة "تدمير" على الساحل الشرقى الأندلسى، ثم لم تلبث أن صارت قاعدة للكورة ثم سميت الكورة كلها باسمها^(٦).

(١) راجع عن أرباض قرطبة (ص ٦٩).

(٢) راجع حديثنا عن هذا الهجوم (ص ٩٠-٩٣).

(٣) تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦٥.

(٤) نفح الطيب ١/٤٦٦-٤٦٧.

(٥) البيان المغرب ٢/٩١.

(٦) راجع: فى تاريخ المغرب والأندلس للعبادى ص ١٦٢، وانظر نفح الطيب ١/٣٤٧.

(د) الثقافة:

وقد خطت الأندلس في فترة الإمارة خطوات واسعة نحو الثقافة الإسلامية الحقبة، وكان هناك من العوامل والدوافع ما ساعد على تطور الحركة العلمية والحياة الثقافية في تلك الفترة، من أهمها:

١- هجرة الأندلسيين إلى الحواضر المشرقية للأخذ عن علمائها والسعي إلى لقائهم ورواية الأصول العلمية عنهم. فقد كان هؤلاء بمثابة أعضاء البعثات الذين يتعلمون خارج بلادهم، ثم يعودون ليشيعوا ما تعلموا بين أهلهم وفي أرجاء وطنهم. وقد كانت الرحلة من الأندلس إلى بغداد ومصر وبلاد الشام - وغيرها من المراكز العلمية بالشرق- من الكثرة بحيث أصبحت ظاهرة من ظواهر الحياة العلمية بالأندلس وحاضرتها قرطبة.

ومن الطبيعي أن تكون الرغبات العلمية لدى هؤلاء الراحلين الأندلسيين متنوعة، فمنهم من يؤثر رواية الحديث، أو يطلب الفقه، ومنهم من يحصل اللغة والأدب، وكثير منهم يجمع عددا من هذه الفروع. ومنهم من رحل إلى بغداد لتعلم الطب والصيدلة والفلك. وهذا يعني أن الأندلسيين كانوا حريصين على تعلم ونقل جميع العلوم والمعارف التي برع فيها المشاركة.

ومن أمثلة هؤلاء العائدين بعلم المشرق في فترة الإمارة^(١):

- الغازي بن قيس القرطبي (ت ١٩٩هـ / ٨١٤م) وهو أول من أدخل "قراءة" نافع المدي إلى قرطبة، وهو نفسه أول من أدخل (موطأ) الإمام مالك إلى الأندلس، سمعه منه وعاصر تأليفه. وقد كان لدخول قراءة نافع البداية الحقيقية لدراسة علم القراءات في الأندلس.
- محمد بن وضاح بن بزيع القرطبي (ت ٢٨٧هـ / ٩٠٠م). رحل إلى المشرق رحلتين وتلمذ على يد علماء كثيرين: بغداديين ومكيين وشاميين ومصريين. وهو من الشخصيات العلمية الهامة في تاريخ الحركة العلمية بالأندلس، وذلك بإسهامه الكبير في

(١) راجع الباب الأول من القسم الثاني من رسالتي العلمية لنيل درجة الدكتوراة بعنوان (الجوانب الحضارية في بغداد وقرطبة في القرنين الثالث والرابع الهجريين - دراسة في الحياة العلمية). وهذا الباب مخصص لدراسة انتقال العلوم الدينية واللغوية والأدبية والتجريبية من المشرق إلى الأندلس (الصفحات من ٤٦٦ إلى ٦٦٧) وتناولت فيه دور الأندلسيين والمشاركة في إمداد الأندلس بهذه العلوم، والوسائل الكبرى التي عملت على تحقيق ذلك، وأهمية الرحلات العلمية في دعم الأندلس بكل جديد في العلم والحضارة.

فروع العلم المختلفة، وأبرزها القراءات والحديث، واشتهر عنه وعن عالم آخر كبير يسمى "بقيّ بن مَخْلَد القرطبي (ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م) أنه بجهودهما «صار الأندلس دار حديث». وهذا العالم الأخير (بقي بن مَخْلَد) كانت له رحلة طويلة إلى المشرق أيضا، وانفرد بإدخال بعض الكتب المشرقية المهمة إلى قرطبة في مجال علم الحديث والفقه والتاريخ والسِّيَر، مثل كتاب (الأم) للشافعي، و(مصنف) ابن أبي شيبة في الحديث والأثر، وكتاب (الطبقات) لخليفة بن خياط البصري، وغيرها. وألف هو من الكتب: (المسند) الكبير الذي ذاع صيته في المشرق والمغرب، ويقع في نحو مائتي جزء. وله أيضا كتاب (التفسير) الذي يعد مفخرة للأندلسيين، وفضلوه على "تفسير" ابن جرير الطبري البغدادي شيخ المفسرين (ت ٣١٠هـ).

ومن الأندلسيين الذين نقلوا الكثير من علم المشرق وأدبه في تلك الفترة:

- محمد بن عبد السلام بن ثعلبة الخُشْنِي القرطبي (ت ٢٨٦هـ / ٨٩٩م) رحل إلى المشرق قبيل (سنة ٢٤٠هـ) ودخل البصرة ولقى بها أبا حاتم السجستاني والرياشي والمازني وغيرهم من علماء اللغة، وروى عنهم كثيرا من اللغة، ودخل بغداد، وكتب بها كتب بها كتب أبي عبيد القاسم بن سَلَام الجُمَحِي (ت ٢٣١هـ) مثل كتاب "غريب الحديث"، كما أنه أدخل إلى الأندلس كثيرا من كتب اللغة ودواوين الشعر الجاهلي.
- ومنهم أيضا: فرج بن سَلَام القرطبي. كان معتنيا بالأخبار والأشعار والآداب: ورحل إلى بغداد، ولقى عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) فأخذ عنه كتاب (البيان والتبيين) وكتب كثيرا من مصنفاته وأدخلها الأندلس.

٢- ومن أهم الدوافع التي ساعدت على وثبة الثقافة الإسلامية في الأندلس في فترة الإمارة تعلق بعض الأمراء بالمعرفة، ومشاركتهم في ميادين الثقافة، والعمل- بدأب- من أجل الحصول على المؤلفات العلمية من كافة البلاد الإسلامية، وخاصة من بغداد. ويأتى الأمير عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦-٢٣٨هـ) فى مقدمة الأمراء الحريصين على ذلك، حيث كان هذا الأمير يطمح لأن تتقن قرطبة العلوم التجريبية كالطب والصيدلة والفلك والرياضيات ... الخ، ورأى أن يرسل "عباس بن فرناس الجريرى" على رأس بعثة إلى بغداد لالتماس كتب هذه العلوم، فأثابه بعدد منها، ومن بينها "السِّندُ هِنْد" وهو كتاب فى الفلك، تُرجم فى بغداد من الهندية إلى العربية.

ومن أهم الظواهر الثقافية التي شهدتها عصر الإمارة، وكان لها شأن كبير فى حياة الأندلسيين كافة هى تحولهم من مذهب الإمام الأوزاعى (ت ١٥٧هـ / ٧٧٣م) - إمام أهل الشام - إلى مذهب الإمام مالك (ت ١٧٩هـ / ٧٩٥م) ثم بقاؤهم عليه وتمسكهم الشديد به إلى نهاية دولة الإسلام بالأندلس. وقد كان الأندلسيون أول الأمر أوزاعيين، لأن أغلب العرب الداخلين إلى الأندلس كانوا من أهل الشام، وهؤلاء كانوا على المذهب الأوزاعى، فكان طبيعياً أن ينتقل الشاميون بمذهبهم، فلما جاء عهد الإمارة دخل المذهب المالكى، وكان أوائل ذلك فى زمن عبد الرحمن (الداخل) ثم بدأ فى الانتشار فى عهد ابنه هشام، حتى أصبح المذهب الرسمى للدولة أولاً، والمذهب الغالب الشائع العام بين الناس ثانياً.

والفضل الأكبر فى شيوع المذهب المالكى فى الأندلس يرجع إلى طائفة من العلماء الأندلسيين الذين درسوا المذهب فى المشرق، ثم عانوا إلى بلادهم وتمتعوا بمكانة كبيرة مكنتهم من نشر المذهب وإعطائه الطابع الرسمى. ونذكر منهم:

يحيى بن يحيى الليثى القرطبى (ت ٢٣٤هـ / ٨٤٨م) وهو بربرى الأصل، ((وبه - وبعيسى بن دينار الغافقى (ت ٢١٢) - انتشر علم مالك بالأندلس)). وقد سمع يحيى الليثى من مالك (الموطأ)، وتفقّه على تلميذه عبد الله بن وهب، وعبد الرحمن بن القاسم فى مصر، ورجع إلى قرطبة بعلم وفير، وحاز مكانة مرموقة لدى الأمير الحكم بن هشام، وابنه عبد الرحمن، فلم يقطعاً فى أمر من أمور الديانة إلا بمشورته، خاصة ما يتعلق بأمور القضاء، وصار المرجع الأول فى تعيين القضاة وعزلهم، وقد مهدت هذه المكانة التى حظى بها يحيى بن يحيى الليثى السبيل إلى نشر المذهب المالكى وإقبال طلاب الفقه على دراسته، حتى تكونت جماعة رسمية سميت "بجماعة الفقهاء" كان لها اليد الطولى فى التمكين لهذا المذهب.

الفصل الرابع

عصر الخلافة الأموية بالأندلس

(٣١٦-٤٢٢هـ/٩٢٩-١٠٣١م)

يمكن تقسيم هذا العصر إلى ثلاث فترات رئيسية، هي:

١- فترة حكم عبد الرحمن الناصر، وولده الحكم المستنصر (٣٠٠-٣٦٦هـ/٩٢٩-٩٧٦م).

٢- فترة حكم بنى عامر (الدولة العامرية فى ظل الخلافة) (٣٦٨-٣٩٩هـ/٩٧٨-١٠٠٩م).

٣- فترة انهيار الخلافة الأموية بالأندلس (٣٩٩-٤٢٢هـ/١٠٠٩-١٠٣١م).
أولاً: عبد الرحمن الناصر وولده المستنصر (٣٠٠-٣٦٦هـ/٩٢٩-٩٧٦م):

• عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م):

(١) التغلب على الاضطرابات الداخلية (توحيد الأندلس الإسلامية):

تولى عبد الرحمن الثالث (الملقب بالناصر لدين الله)^(١) أمر الأندلس بعد موت جده الأمير عبد الله بن محمد (٣٠٠هـ/٩١٢م) فى فترة مليئة بالأخطار؛ إذ كانت البلاد فى عهد الأمير عبد الله نهياً للطامعين والطامحين من عرب وبربر وإسبان، حتى أصبح كثير من أقاليمها مستقلاً عن إمارة قرطبة، أو كالمستقل عنها. هذا بالإضافة إلى التهديدات الخارجية من قبل الممالك النصرانية فى الشمال، مما أوشك أن يذهب بالإمارة الأموية، وربما بالحكم الإسلامى فى الأندلس^(٢). ولعل هذا يفسر لنا - كما قيل - انصراف أعوام عبد الرحمن (الناصر) عن منافسته فى تحمل مسئولية الإمارة، فقد كان منصباً متقللاً

(١) هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (الربضى) بن هشام بن عبد الرحمن (الداخل). ولد (سنة ٢٧٧هـ)، وكان عمره يوم قتل أبوه (محمد) ثلاثة أسابيع، فكفله جده وأحسن تنشئته وأولاه عناية خاصة، لما كان يراه فيه من علامات النجابة والنكاه، وعمل على إعداده لحمل المهمة الثقيلة. وقد أهلتة كفايته أن يلى الإمارة بعد جده (عبد الله)، وكان عمره حين يبيع بالإمرة ثلاثاً وعشرين سنة.

(٢) راجع البيان المغرب ١٥٧/٢، نفح الطيب ٣٥٣/١، الأنب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة للدكتور أحمد هيكل ص ١٧٧.

بالمناعب والأخطار والمسئوليات، وأصبح لا خير فيه فى مثل هذه المحنة العصبية التى تعيشها الدولة، ومن ثمّ زهدوا فيه واتفقوا على البيعة لعبد الرحمن رغم صغر سنه، لِمَا أنسوا فيه من مواهب وخصال حميدة تجعله أليق بالحكم منهم.

كان الحال فى الأندلس الإسلامية يستلزم الحزم والعزم لجمع كلمة البلاد وتوحيدها. ولهذا بدأ عبد الرحمن (الناصر) عهده بإصدار منشور عام إلى جميع كُور الأندلس، وإلى الثوار الخارجين المستقلين فى نواحيهم يدعوهم إلى البيعة، ويعدّهم بكل أنواع الوعود الطيبة، من مال وسلطان وعفو إذا عادوا إلى الجماعة والوحدة والطاعة. وفى الوقت نفسه هدّد من أعرض عن ذلك بالحرب والتكيل.

ولما رأى الناس أن الحروب الطويلة الطاحنة أضرت بأمنهم، وأوقعت البلاد فى فوضى حقيقية سارع الكثيرون إلى الخضوع لعبد الرحمن (الناصر)، وتتابعت البيعة له من جميع مدن الأندلس، واستبشر الناس بهذا الأمير، ودخلت محبته نفوسهم، لما أبداه من ضروب التسامح للخارجين على السلطة بعد استسلامهم له. لكن بقيت بقية من الثوار تمادوا فى العصيان والاستقلال، فأعد عبد الرحمن - بعد شهر من تولّيه الإمارة - حملة كبيرة للقضاء على بقية الثوار، فسار إلى الجنوب والجنوب الشرقى، وافتتح ما قارب الثلاثمائة من الحصون والمعازل التى تدين بالطاعة لعمر بن حفصون فى كل من "جبلان"، و"رؤية". وسميت هذه الغزوة بـ "غزوة المُنْتَلُون"^(١).

على أن هذه الجولة الأولى لم تكن إلا بداية الكفاح المرير الذى كان على عبد الرحمن (الناصر) أن يضطلع به ليعيد إلى البلاد وحدتها. وقد استطاع تحقيق هذا الهدف الأسمى بعد اثنتين وثلاثين سنة من الجهد والكفاح. ولم يصل إلى ذلك عن طريق القوة وحدها، بل عن طريق الأخلاق القويمة والسياسة الرشيدة التى اتبعتها.

ومن الثوار الذين عُنَى (الناصر) بالقضاء على ثوراتهم وإرغامهم على الانصياع للطاعة والاستسلام للجماعة:

١- عمر بن حفصون (رأس الفتنة كلها) وأولاده من بعده. وانتهت فتنتهم (سنة

٣١٦هـ/٩٢٨م).

٢- بنو حجاج، وبنو خلدون فى إشبيلية وإقليمها (سنة ٣٠١هـ/٩١٤م).

(١) راجع عن هذه الغزوة : البيان المغرب ١٦٠/٢-١٦٣.

٣- عبد الرحمن بن مروان الجَلِّيقي (من المولَّدين) فى غرب الأندلس، وخاصة فى نواحي "ماردة" و"بَطْلَيْوس" (سنة ٣١٨هـ/٩٣٠م).

٤- بنو "تُجَيْب" فى "سرقسطة" (٣١٨هـ/٩٣٠م).

٥- بنو "قسي" أصحاب "تُطيلة" بالنَّخْر الأعلى (من سنة ٣٠٣هـ - ٣١٢هـ).

(٢) التغلب على الأخطار الخارجية:

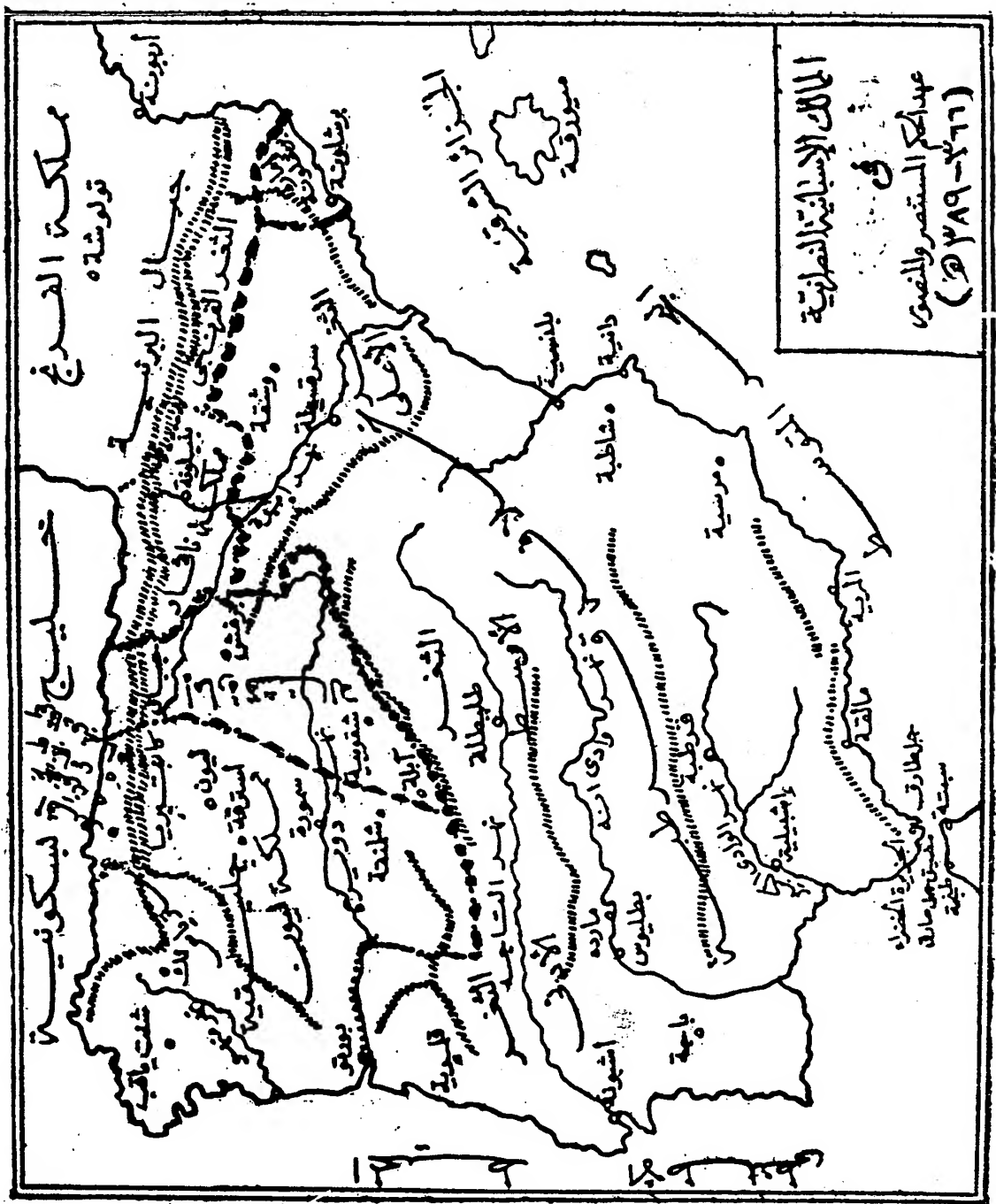
أولاً: الممالك النصرانية فى الشمال:

تعرضت الحدود الشمالية من الأندلس لأخطار جسيمة قبل أن يتولى "عبد الرحمن الناصر"، وفى الأيام الأولى للناصر تمكن "ألفونسو الثالث" ملك "أشتورياس" من الاستيلاء على حصون "قلمرية" - فى البرتغال حالياً - كما سيطر على حصون (ليون) و(أشترقة) و(أماية) و(سمورة) منتهزاً فرصة انشغال الأمير فى المشاكل والثورات الداخلية، وقام بتسكين أعداد كبيرة من نصارى الأندلس المستعربين الذين هاجروا إلى الشمال واستقروا فى الممالك النصرانية، وعقب موت "ألفونسو" الكبير هذا استولى خليفته على حصن "أرماج" - الذى سيكون له شأن فى الصراع بين الإسلام والنصرانية زمن الناصر - ومعنى ذلك أن مملكة "أشتورياس" توسعت وتضاعفت مساحتها وأصبحت تسمى مملكة (ليون) فى الأيام الأولى لحكم الناصر، بل تجرأ بعض قواد النصارى ووصلوا إلى ضفاف نهر "تويرو".

وقد انتهز أمراء (بنبلونة) - عاصمة (مملكة بيرة) - وغيرها من الإمارات النصرانية الصغيرة الواقعة جنوبى جبال "البرت" الفرصة، وتمكنوا بمعاونة أصحاب النخر الأعلى الأندلسى من تهديد المعاقل الإسلامية فى "تُطيلة" وغيرها، ونجح ملك (قشتالة) الجديد فى مد حدود دولته لتشمل أراضى قشتالة الجديدة، التى كانت أراضى إسلامية وبها عدد قليل من المسلمين فى ذلك الوقت، كذلك أمكن لإمارة "قطلونية" التى تمكن ملوك الإفرنجية من إنشائها فى عهد "عبد الرحمن الداخل"، أن تتوسع أيضاً على حساب أراضى المسلمين^(١).

كان على (عبد الرحمن الناصر) أن يواجه هذه الأخطار على الحدود الشمالية، وكان يؤثر فى أول الأمر غض الطرف عن محاربة النصارى إلى أن يتمكن من توحيد

(١) راجع: المسلمون فى الأندلس، للدكتور عبد الله جمال الدين (موسوعة سفير ٤٨/٧).



كتاب التاريخ للشيخ الرئيس الفيلسوف

الأندلس وتطهيرها من التأثيرين، لكن هذا التخريب والفساد والعبث من جانبهم جعل (الناصر) يتخلى عن خطته، وبدأ بإرسال الجيوش إلى الشمال سنة (٣٠٤هـ / ٩١٦م)^(١)، ثم تتابعت هذه الجيوش سنة بعد أخرى وقاد هو بعضها بنفسه، وخاصة بعد أن تحالف ملك "ليون" مع ملك "تبرّة"، وسارت قواتهما معاً للهجوم على الدولة الإسلامية. وهذه الحملات وإن أخفق بعضها فقد نجح أكثرها^(٢)، وأحرز (الناصر) بها انتصارات عظيمة، وأذن له أعداؤه بالطاعة وهادنوه، وتعهد له بعضهم بدفع الجزية، واستعان به بعض آخر على تولي عرش مملكته^(٣)، كما سعوا إليه بالسفارات يقدمون بين يديه في قرطبة الولاء والخضوع^(٤).

(ب): خطر العبيديين (الفاطميين) ببلاد المغرب:

تطلع العبيديون (الفاطميون) للسيطرة على المغرب الأوسط والأقصى، تمهيداً للعبور إلى بلاد الأندلس ونشر التشيع بها. وفي الوقت نفسه تأكد لعبد الرحمن (الناصر) - منذ ادعاء العبيديين الخلافة - خطورتهم الشديدة وتهديدهم القوى لدولته، خاصة وهم يمتلكون أسطولاً بحرياً قوياً يستطيعون به العبور إلى الأندلس^(٥).

والواقع أن العبيديين منذ تأسيسهم الدولة الفاطمية في المغرب كانوا يهدفون إلى غزو الأندلس، ليكون المغرب الإسلامي كله خاضعاً للتشيع الفاطمي، وبهذا ينقسم العالم الإسلامي قسمين: قسم شرقي تابع للخلافة العباسية السنية، وقسم غربي تابع للخلافة الفاطمية الشيعية^(٤).

وقد قام عبد الرحمن (الناصر) بخطوات إيجابية لمحاربة النفوذ الفاطمي نلخصها فيما يلي^(٥):

(١) البيان المغرب ١٦٩/٢.

(٢) تفاصيل المعارك التي خاضها المسلمون مع نصارى الشمال في البيان المغرب ١٦٩/٢، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٥ - ١٨٠، ١٨٥، ١٨٥-١٨٩، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢١، نفح الطيب ٣٦٣/١-٣٦٤.

(٣) مثل (توتا Tota) الوصية على عرش مملكة (تبرّة)، ويسمىها العرب (طوطة). وقد وفدت إلى قرطبة سنة (٣٤٧هـ / ٩٥٨م) في رفقة حفيدها (شانجو - أو سانشو) الذي عزله نبلاء "ليون" وقتلته عن عرش "تبرّة" و"ليون"، وولوا مكانه (أردون) الرابع (تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس للسيد عبد العزيز سالم ص ٢٩٠).

(٤) تفاصيل الوفود التي سعت إلى بلاط الناصر بقرطبة في (نفح الطيب) للمقرئ ٣٦٤/١-٣٧١، البيان المغرب ٢١٣/٢، ٢١٥.

(٥) راجع: في تاريخ المغرب والأندلس للدكتور العبادي ص ١٩٩ وما بعدها.

١- أعلن عبد الرحمن نفسه خليفة، وتلقب بالناصر لدين الله أمير المؤمنين، (سنة ٣١٦هـ/٩٢٩م)^(١). وكان الدافع الأساسي لهذه الخلافة السنية الجديدة هو توطيد مركزه في داخل الأندلس وخارجه، ومقاومة الخلافة الشيعية الفاطمية في الغرب. وقد اعتبر الفاطميون هذا العمل تعدياً على حق من حقوق أئمتهم، ولهذا فرضوا قتاله، واستحلوا دمه^(٢).

٢- اهتم الناصر منذ بداية حكمه بإعداد أسطول بحرى قوى كامل الإعداد، ينازع به سلطان الفاطميين فى البحر المتوسط، كما قصد به الدفاع عن سواحل الأندلس ضد أى هجوم يقوم به أعداؤه الفاطميون أو غيرهم.

٣- وعمل الناصر على تحصين الثغور الأندلسية الجنوبية المواجهة للمغرب، لا سيما فى المنطقة التى كانت عرضة لأى غزو فاطمى مفاجئ على بلاده. وأشرف بنفسه على الأعمال الدفاعية فى منطقة "طريف" و"الجزيرة الخضراء".

٤- استولى عبد الرحمن الناصر على بعض ثغور الساحل المغربى المواجهة لساحل الأندلس، وفى سنة (٣١٤هـ/٩٢٧م) استولى على مدينة "مليلة" وبنا سورها، وجعلها معقلاً للزعيم المكناسى موسى بن أبى العافية حاكم هذه المناطق الشمالية الذى انضم إلى الناصر وخلع طاعة الفاطميين. وفى (سنة ٣١٩هـ/٩٣١م) احتل عبد الرحمن الناصر مدينة "سبتة". وعمل على تحصينها لأهمية موقعها، وألزم فيها من رضىه من قواده وجنده ثم احتل "طنجة" المجاورة لها وأقام بها أيضاً تحصيناته ودفاعاته^(٣). وبذلك استطاع الناصر السيطرة على الملاحة فى مضيق جبل طارق، وأن يتدخل فى سياسة المغرب لإثارة قبائل البربر ضد النفوذ الفاطمى.

٥- عمل الناصر على اصطناع رؤساء الدويلات التى كانت قائمة وقتذاك فى شمال المغرب الأقصى، مثل دولة الأدارسة التى كان نفوذها بعد الغزو الفاطمى قد انحصر فى المناطق الجبلية الشمالية بين قبائل "غمارة". كما أنه عمل على تحريض قبيلة "زناتة" البربرية، ودفعها إلى قتال "صنهاجة" خليفة الفاطميين. ولم يتردد خليفة قرطبة فى

(١) البيان المغرب ١٩٨/٢

(٢) العبادى: الكتاب المذكور ص ١٩٩

(٣) البيان المغرب ٢٠٤/٢، المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب للبكرى ص ١٠٤.

تأييد وإمداد زعيم الخوارج فى القيروان وغيرها (أبى يزيد مغلد بن كيداد الزناتى الخارجى) ضد الدولة الفاطمية. وفى مقابل ذلك اعترف أبو يزيد الخارجى بالسيادة الأموية، ودعا للناصر فى البلاد التى خضعت له^(١).

وهكذا أدت سياسة الخليفة عبد الرحمن (الناصر) إلى انصراف الفاطميين عن غزو الأندلس إلى غزو مصر.

وبهذه السياسة التى سار عليها الناصر فى محاربة نصارى الشمال والتصدى لخطر العبيديين استطاع أن يؤمن الأندلس من الخارج، كما وحدها من الداخل، وأن يوسع رقعة الدولة الأندلسية ويبسط نفوذها، ويقم فى قرطبة أعظم حكومة عرفتتها الأندلس فى عهده المديد^(٢)، وقد صدق القاضى منذر بن سعيد البلوطى (المتوفى ٣٥٥هـ/٩٦٦م) حينما قال فى خطبة له بين يدى الناصر: ((ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها، والسبل مخوفة فأمنها، والأموال منتهبة فأحرزها، والبلاد خرابا فعمرها، والثغور مهتزمة فحماها ونصرها؟))^(٣).

هذا، ولم تحل مهام الحرب والسياسة دون قيام الناصر بأعمال الإنشاء العظيمة، وفى مقدمتها إنشاء مدينة الزهراء أعظم قواعد الأندلس الملوكية، وبلغت قرطبة العاصمة فى عهده أوج العظمة والازدهار، وأصبحت تفوق بغداد (منافستها فى المشرق) بهاء وفخامة وازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة والعلوم والآداب، وشمل الأمن سائر أطراف البلاد الأندلسية. وعنى عبد الرحمن بتنظيم إدارات الدولة، والتدقيق فى اختيار المسؤولين من وزراء وقواد، فحظيت الأندلس فى عهده بنظم إدارية راقية^(٤)، وكان شديد الحرص على تحقيق العدل، فاهتم بخطة (ديوان) المظالم، ويتولى القادة وتوجيههم.

• الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ/٩٦١-٩٧٦م):

توفى الخليفة عبد الرحمن الناصر بعد عمر مديد بلغ ثلاثا وسبعين سنة، بعد أن قضى فى حكم الأندلس ما يزيد على نصف قرن، حقق خلالها إنجازات طيبة على

(١) البيان المغرب ٢/٢١٢، ٢١٤ (أحداث سنة ٣٣٣ هـ، ٣٣٥هـ).

(٢) د. أحمد هيكال: الألب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة ص ١٧٩.

(٣) نفع الطيب للمقرئ ١/٣٦٩.

(٤) تراجع هذه النظم من كتاب (نظم وإدارة بنى أمية فى الأندلس من خلال المقتبس لابن حيان) للدكتور التهامى الراجحى (مجلة المناهل - الرباط - العدد ٢٩/١٩٨٤م).

المستوى الداخلى والخارجى. وعلى الرغم مما عيب على الناصر من حكم مطلق إلا أنه أحسن إعداد ابنه وولى عهده (الحكم)، ودربه على تحمل مسئوليات الحكم، والنهوض بأعبائه الضخمة. ولا شك فى أن طول عمر الناصر أعطى الفرصة كاملة لنضج شخصية الحكم (المستنصر) وتراكم خبراته، وبالإضافة إلى ذلك فقد تسلم بعد وفاة والده دولة مستقرة قوية مهيبة الجانب موحدة، ومن هنا فإن عهد المستنصر يُعدُّ امتداداً لعهد أبيه، وقطف لثمرات كفاحه الطويل. وعلى الجملة فقد كانت سياسة الابن كأبيه بوجه عام. وبعبارة المقرئ «جرى على رسمه ولم يفقد من ترتيبه إلا شخصته»^(١).

١ - السياسة الداخلية:

وقد كان الهدوء والرفق أحد السمات البارزة فى عهد الحكم (المستنصر)، حيث مرَّ عهده فى أمن وسلام، واستمرت الأندلس على وحدتها الداخلية كما تركها والده (الناصر). ولعل ذلك يرجع إلى جهود أبيه من قبل توحيد البلاد، إضافة إلى ما عُرف عن المستنصر من الحرص الشديد على إقامة شرع الله بين رعيته، واهتمامه بأحوالها وتفقدده لها، ومراقبة عماله ومتابعة سيرتهم، وتوجيه قضائه للحكم بالعدل وإعطاء كل ذى حق حقه^(٢).

٢ - السياسة الخارجية:

وعلى الرغم مما عُرف عن (الحكم المستنصر) من عنايته البالغة بالكتب العلمية، وانشغاله بجمعها ودرسها، وشغفه بالعلم والعلماء، وكلفه بالعلوم والآداب فإنه لم يقصر فى المحافظة على هيبة الدولة السياسية وعظمتها الحربية، وتأمينها من الأخطار الخارجية.

(أ) علاقة الحكم المستنصر بالممالك النصرانية فى الشمال^(٣):

وقد تابع المستنصر سياسة أبيه إزاء نصارى الشمال، فعمل على الوقوف أمام توسعاتهم، وفرض هيبتة وهيبة الدولة على تلك الأقاليم.

(١) راجع: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس - بالاشتراك (قسم الأندلس - للدكتور عبد الفتاح فتحى) ص ٢٥٠.
وقال لسان الدين بن الخطيب: «وفى أيامه - أى المستنصر - سكنت الفتنة لتوطيد أبيه الدولة، واستظهاره على الثوار بحسن السيرة، وطول العمر» (أعمال الأعلام ص ٤١).
(٢) نفح الطيب للمقرئ ٣٨٢/١.
(٣) راجع علاقة المستنصر بالممالك النصرانية والحروب التى خاضها ضدهم: نفح الطيب ٣٨٢/١-٢٨٣، البيان المغرب ٢/٢٣٥، ٢٣٦، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس للسيد عبد العزيز سالم ص ٢٩٠، العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية للدكتور رجب محمد عبد الحليم ص ٢٢٨-٢٣٠، المسلمون فى الأندلس للدكتور عبد الله جمال الدين (موسوعة مغير ٦٣/٧).

وكان الناصر قبل وفاته قد اتفق مع ملك (ليون) على هدم بعض الحصون وتسليم بعضها الآخر إلى المسلمين، فلما مات الناصر رفض ملك النصارى تنفيذ ما وعد به. ومن ناحية أخرى كانت (قشتالة) تابعة لملك (ليون) لكن أميرها استقل وأخذ يغير على أراضى المسلمين المجاورة، ثم حدثت تطورات انتهت بتحالف ملوك (ليون) و(قشتالة) و(نبرة) وكونت (برشلونة) جميعاً ضد المسلمين، ونظر هؤلاء فوجدوا انشغال "الحكم" بالعلوم والآداب وإيثاره السلم، فأرادوا استغلال هذا فى شن الغارات على الأراضى الإسلامية.

لكن "الحكم" واجههم بما ينبغي، وأعلن الجهاد فى صيف (٣٥٢هـ/٩٦٣م) واجتمعت إليه الجيوش فى "طليطلة" وسار إلى "قشتالة" واستولى على قلعة "سنت أشنتين" المنيعه، وفرق قوات ملك "قشتالة" حتى اضطر إلى طلب الصلح، ثم نكث عهده فعاود المسلمون الهجوم واستولوا على قلاعه الحصينة، ثم أرسل "الحكم" جيشاً بقيادة حاكم سرقسطة إلى (نبرة) وجاء ملك (ليون) لنجده وجرى موقعة انهزم فيها للنصارى واعتصموا بالجبال، ثم سارت القوات الإسلامية إلى قواعد (نبرة) الغربية فاستولت على حصونها.

كذلك سار حاكم (وشقة) شمالاً على رأس قوات نحو أراضى نفس المملكة واستولى على كل ما فيها من سلاح وحصون، واستغرق ذلك كله سنتى (٣٥٢-٣٥٣هـ/٩٦٣-٩٦٤م)، بالإضافة إلى حملات قام بها المسلمون فيما تلا ذلك من سنوات، وتمكنت قوات قرطبة من الاستيلاء على قلاع كثيرة، أرغمتها على التسليم والاعتراف بسيادة قرطبة، وبدأت سفارات هذه الدولة تتوافد على العاصمة الإسلامية الأندلسية.

أضحت الأندلس كعبة تأتى إليها ملوك النصرانية وتلتبس ودها. بدأ ذلك عام (٣٥٥هـ/٩٦٦م) واستمر بعده، وكان أول الوافدين أمير (جليقية) و(أشتورياس)، ثم وفدت رسل ملك (نبرة). وفى سنة (٣٦٠هـ/٩٧١م) جاءت سفارة من أمير (برشلونة) تطلب تجديد الصلح، ووصلت رسل (غرسيه بن شائجه) ملك البشكنس فى جماعة من الأساقفة يسألون الصلح، كما تلقى الحكم رسائل من قيصر بيزنطة، ومن إمبراطور ألمانيا وغيرهما^(١)، كل ذلك جعل "قندث بيدال" - المستشرق الإسباني الكبير - يقول: «وصلت

(١) راجع عن هذه السفارات نفع الطيب ٣٨٤/١-٣٨٥، البيان المغرب ٢/٢٣٥، كتاب: السفارات بين الأندلس والدول الأجنبية فى العصر الأموى للدكتور حسين يوسف دويدار ص ٤٢-٥٢.

الخلافة الأندلسية فى ذلك العصر إلى أوج روعتها وبسطت سيادتها السلمية على سائر إسبانيا وكفلت بذلك السكينة العامة)).

(ب) خطر النورمانديين: ومن الأخطار التى هددت الأندلس فى زمن الخليفة المستنصر خطر النورمانديين^(١). ولقد حصر المؤرخون الأندلسيون الغارات النورماندية فى عهده فى تواريخ ثلاثة، هى (٣٥٥هـ/٩٦٦م)^(٢)، وسنة (٣٦٠هـ/٩٧١م)^(٣) وسنة (٣٦١هـ/٩٧١م)^(٤). وجميع هذه الغارات الثلاث كانت على غرب الأندلس، وفى مياه المحيط الأطلسى. وينفرد ابن الخطيب بذكر غارة أخرى فاشلة قام بها النورمانديون على حصن "القبطة" (Cabo) وهو من حصون "المرية" فى شرق الأندلس^(٥). وقد اضطر الخليفة (الحكم) إلى الذهاب بنفسه إلى "المرية" (سنة ٣٥٣هـ/٩٦٤م) ليتفقد الأعمال الدفاعية ويشرف عليها ويشاهد رابطة "القبطة"^(٦).

وفى غارتهم الأولى (سنة ٣٥٥هـ) هاجم النورمانديون منطقة قصر "أبى دانس" (فى جنوب البرتغال)، وكذلك سهول "أشبونة" فى أسطول مكون من ثمانية وعشرين سفينة، تضم كل منها ثمانين محارباً. وقد خرج إليهم المسلمون، ووقعت معركة عنيفة قتل فيها عدد كبير من الجانبين، ثم تمكن الأسطول الأندلسى الم رابط فى "إشبيلية" من اللحاق بالأسطول النورماندى عند مصب "وادي شلب"، وتحطيم معظمه واسترداد ما كان فيه من أسرى المسلمين^(٧).

أما الغارات النورماندية التى تلت ذلك فى سنتى ٣٦٠هـ، ٣٦١هـ فبيدوا أنها لم تستطع النزول إلى الشواطئ الأندلسية بفضل يقظة الأسطول الأندلسى الذى استطاع أن يبدد شملها دون عناء كبير.

(ج) علاقة المستنصر بالشمال الإفريقى:

أما الفاطميون فلم يعودوا فى أيام الحكم المستنصر مصدر خطر على الأندلس، فقد غزوا مصر، وأسسوا القاهرة (سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م)، وانتقل إليها المعز لدين الله (سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م)، فشغلوا بذلك عن الأندلس.

(١) راجع ما ذكرناه عن التعريف بالنورمانديين (ص ٩٠).

(٢) البيان المغرب ٢/٢٣٨-٢٣٩.

(٣) البيان ٢/٢٤١.

(٤) المقتبس لابن حيان ص ٧٨-٧٩ (تحقيق د. عبد الرحمن الحجى).

(٥) أعمال الأعلام (القسم الثانى/ الأندلس) ص ٤١-٤٢.

(٦) البيان المغرب ٢/٢٢٦.

(٧) البيان ٢/٢٣٨-٢٣٩.

غير أن المعز الفاطمي كان قد ترك نائباً عنه على إفريقية والمغرب، وكان "الأدارسة" قد دخلوا في طاعة الفاطميين، وأخذوا يناوشون الأمراء المغاربة المواليين لحكومة الأندلس في "سبّة" و"طنجة"، فأرسل الخليفة (المستنصر) جيوشه، وولى قيادتها قائده الكبير الملقب بفارس الأندلس، والمسمى بـ "غالب بن عبد الرحمن الناصري" الصقلبي (صاحب المغاركة الناجحة ضد جيوش النصارى في منطقة الثغر الأوسط وعاصمتها مدينة "سالم") وتم تزويده بكل ما يحتاج إليه، وأمره (الحكم) أن يجد في قتال الأدارسة، ودارت معارك عدة في سنتي (٣٦٢هـ/٩٧٣م)، (٣٦٣هـ/٩٧٤م) انتهت بالقضاء على دولة الأدارسة بالمغرب، واستسلام زعمائها، ودخولهم في طاعة الأمويين^(١).
هكذا ظلت الأندلس حتى وفاة الحكم المستنصر (سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م) دولة قوية مهيبة، موحدة الأقاليم، مؤمنة الحدود.

* * *



(١) تفاصيل هذه الأحداث في البيان المغرب ٢/٢٤٤-٢٤٨، نفح الطيب ١/٣٨٥، أعمال الأعلام ص ٤٢. وراجع: المسلمون في الأندلس للدكتور عبد الله جمال الدين (موسوعة سفير ٧/٦٤-٦٥).

العصر الذهبي للحكم الإسلامي في الأندلس

(فترة الناصر والمستنصر)

كان عبد الرحمن (الناصر) وولده: الحكم (المستنصر) (٣٠٠ - ٣٦٦ هـ / ٩٢٩ - ٩٧٦م) عصر ازدهار في جميع نواحي الحضارة الإسلامية في الأندلس، بحيث يمكن القول: إن تلك الفترة التي تولى فيها الناصر والمستنصر استحققت أن تسمى بالعهد الذهبي للحكم الأندلسي. وكانت مدينة قرطبة هي المركز الذي تركز فيه حضارة الأندلس باعتبارها لم المدائن الأندلسية وقطرها الأعظم، ومستقر الأمراء والخلفاء، وكان لها الدور الأكبر في نشر الفكر والحضارة الإسلامية في ربوع الأندلس كلها.

ومن أبرز السمات الحضارية التي تتميز بها هذه الفترة التاريخية:

١- الوحدة السياسية: لم يعرف المجتمع الأندلسي وحدة كالتى عرفها في فترة الناصر والمستنصر، فقد كان هذا المجتمع منذ الفتح يتأرجح بين عوامل للتجميع وأخرى للتفريق، حتى كانت الفترة السابقة للخلافة - وهي فترة الأمير عبد الله - فوقعت الفرقة الرهيبة التي أوشكت أن تفصم عرى الوحدة بين أبناء الأندلس جميعا. وكان من مظاهر تلك الفرقة، أن عاد العرب يتكتلون، وانقلب الإسبان يتجمعون، ورجع البربر ينفصلون، وبرزت زعامات لهؤلاء وهؤلاء، تؤيد الفرقة وتنكح نار الفتنة، لتربح هي آخر الأمر الرياسة والسيطرة.

ولكن الحال تبدل في عهد الخلافة، فقد استطاع عبد الرحمن الثالث أن يعيد إلى الشعب الأندلسي وحدته، ففضى على الزعامات العربية التي كان يتكتل وراءها من ينتمون إلى العرب من أبناء الأندلس، وقضى كذلك على الزعامات الإسبانية التي كانت معقد أمل الخارجين على النظام من مسلمي الإسبان المعروفين بالمولدين. كذلك أراح الأندلس من الزعامات البربرية التي كانت تنثر بركان الأندلس من أهل شمال إفريقيا، وتستقل ببعض الأقاليم الأندلسية^(١).

- الرفاهية الاقتصادية: وقد أدت سياسة الناصر الحكيمة وانتصاراته الباهرة، وحكمه المديد إلى شيوع الاستقرار، واستتباب الأمن، وانتشار الطمأنينة. وأدى ذلك كله إلى إقبال الناس على أعمالهم في جد ونشاط وأمل، كما أنتج هذا جميعه وفرة في الدخل

(١) راجع: الأديب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة للدكتور أحمد هيكل ص ١٨١-١٨٢.

القومى، وارتفاعاً فى مستوى المعيشة، ورخاء للدولة والأفراد جميعاً. وقد قيل: إن إيراد الدولة زاد زيادة عظيمة حتى بلغ ما يُجبى بالأندلس من الكُور والقُرى خمسة ملايين وأربعمائة وثمانين ألف دينار، كما بلغ ما يُجبى من الأسواق ونحوها سبعمائة وخمسة وستين ألف وقيل كذلك: إن الناصر قد خلف فى بيوت المال خمسة آلاف ألف ألف (ثلاث مرات)^(١). وكل هذا يدل على ما وصلت إليه الأندلس من الرقى الاقتصادى فى ذلك الحين.

٣- النهضة العمرانية: ولم تعرف الأندلس نهضة عمرانية كالتى عرفتھا فى فترة الخلافة، فقد كان الناصر مولعاً بالبناء، محباً للتشيد، كما كان يعتقد أن البنيان يخلد ذكر الباقيين ويبقى أسماءهم على الدهر. ومن هنا تم فى عهده أروع ما عرفت الأندلس من قصور ومساجد، ووصلت العاصمة القرطبية فى فترة الخلافة إلى أوج جمالها وأناقته وعمرانها، فازدحمت بالقصور المشيدة. وزينت بالحدائق العديدة، وجُمِلت بالنافورات الكثيرة، وزودت بالحمامات الوفيرة. وقد قيل: إن مبانيها بلغت أكثر من خمسين ألف قصر للعظماء ورجال الدولة، وأكثر من مائة ألف بيت للعامة. كما قيل: إن مساجدها بلغت تسعمائة، ووصلت حماماتها سبعمائة^(٢)، هذا فى وقت كانت بعض دول أوروبا تعتبر النظافة رجساً من عمل الشيطان^(٣).

وكان أعظم أعمال الناصر الإنشائية مدينة (الزهراء)، التى بناها فى شمال قرطبة. ومسافة ما بينهما أربعة أميال وثلاثا ميل. بدأ فى بنائها سنة ٣٢٥هـ، واستمر العمل فيها مدة أربعين سنة، أى إلى نهاية حكم المستنصر. وجعل (الناصر) بها قصراً للخلافة وبيوتاً لرجال الحكومة والبلاط، ومساكن للحرس والجند، ومسجداً للصلاة والتعليم.

وكان قصر الخلافة فى هذه الضاحية القرطبية غاية فى الجلال والجمال والفن. وقد جلب الناصر أعمدة بنائه ورخامه وتمائيل زينته ومواد زخرفته من القسطنطينية وقرطاجنة وشمال أفريقيا، علاوة على ما أنتجته مدن الأندلس.

(١) انظر نفح الطيب للمقرئ ج ١ ص ٣٧٩، ص ٥٢٤-٥٢٥. والبيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٢٣١-٢٣٢.

(٢) انظر نفح الطيب للمقرئ ج ١ ص ٥٤٠ وما بعدها، والبيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٢٣٢ وقد خصص المقرئ فى (نفح الطيب) صفحات طويلة للحديث عن قرطبة وعماراتها (راجع ج ١ - بداية من ص ٤٥٥).

(٣) قصة العرب فى إسبانيا - تأليف استائلى لى بول، ترجمة على الجارم ص ١١٩-١٢٠.

وكان للخليفة في قصره بالزهراء مجلس يسمى بمجلس الذهب، لكون قُبته وحيطانه قد صفت بهذا المعدن النفيس. وقد جُعِل في هذا المجلس حوض عجيب، أقيمت عليه اثنا عشر تمثالاً من الذهب المرصع بالدر النفيس المصنوع "بدار الصنعة" بقرطبة.^(١)

وقد مست يد التجميل والتعمير مدناً أندلسية أخرى غير قرطبة، كما شمل الرخاء والأمن والرفاهية غير القرطبيين من الأندلسيين، وعاش المجتمع الأندلسي في فترة الخلافة (زمن الناصر والمستنصر) عهده الذهبي من الناحية الاجتماعية، كما عاش في عهده الذهبي أيضاً من الناحية السياسية، حتى لنرى أبرع الصور وأروع الأمثلة عن حضارة الأندلسيين وتقدمهم الاجتماعي، قد أخذت جميعها أو أخذ أغلبها على الأقل من حياة أهل الأندلس في فترة الخلافة^(٢).

٤- النهضة الثقافية: وقد نهضت الثقافة الأندلسية في فترة (الناصر والمستنصر) نهضة شاملة، كان من مظاهرها اتضاح الشخصية العلمية للأندلس، بل قوة هذه الشخصية واستقلالها إلى حد كبير. وليس من شك في أن ظروف الأندلس في تلك الفترة قد ساعدت على هذه النهضة، فالوحدة والاستقلال، والأمن والرخاء، والتحضر والرقى؛ كل ذلك من شأنه أن يدفع إلى حياة ثقافية ناهضة، ويساعد على مستوى علمي رفيع. وقد أتيح للأندلس في فترة الخلافة خليفتان وفراً للناس وحدة واستقراراً، وحققا لهم أمناً ورخاء، ومكناهم من التحضر والرقى، فأتاح لهم كل ما من شأنه أن ينهض بثقافتهم ويرقى بعلمهم. بل إن هذين الخليفتين لم يكتفيا بتهيئة الجو للثقافة والعلم، وإنما دفعوا بالأندلس دفعاً إلى نهضتها الثقافية الشاملة، وذلك بتشجيع القادمين إلى الأندلس من علماء المشرق، وجلب الكتب القيمة من شتى الأقاليم، والحث على البحث والتأليف في شتى الفنون^(٣).

(١) اقرأ ما كتب عن الزهراء في نفح الطيب للمقرئ ج ١ ص ٥٢٣ - ٥٢٦، ص ٥٦٣ - ٥٧٨، البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣١ - ٢٣٢.

(٢) راجع: د. أحمد هيكل: المرجع السابق ص ١٨٤.

(٣) راجع: د. هيكل: المرجع نفسه ص ١٨٤-١٨٥، الجوانب الحضارية في بغداد وقرطبة في القرنين (٣، ٤هـ)

- رسالة دكتوراه، من إعداد طه عبد المقصود عبد الحميد ص ٦٦٣-٦٦٤.

فالناس قد أحسن استقبال أبي على القالى وأسند إليه تأديب ابنه الحكم، ومكّن له ليعلم الأندلسيين فى قرطبة، وقد وفد القالى على الأندلس (سنة ٣٤٠هـ/٩٤١م) وحمل معه كثيرًا من علم المشرق وأدبه، ونقل بخاصة مجموعة ضخمة من دواوين الشعراء الجاهليين والإسلاميين، مثل امرئ القيس وزهير والنابعة والأعشى والخنساء، ومثل ابن أبى ربيعة والأخطل وجريز والفرزدق، وكثير جدًا غير هؤلاء وأولئك. هذا بالإضافة إلى كثير من كتب الأخبار واللغة، مما أمد الحياة الثقافية الأندلسية فى هذه الفترة بشحنة عظيمة من الزاد الدسم^(١).

أما الحكم (المستنصر) بن عبد الرحمن، فقد ثبت أنه لم يولع خليفة بالكتب كما أولع ولم يجمع أمير منها مثل الذى جمع. وقد اشتهر بمكتبته الغنية التى بلغت أربعمائة ألف مجلد^(٢). وقد كان يحرص على جمع الكتب لها ويدفع فيها أغلى الأثمان، كما فعل مع أبى الفرج الأصفهاني، حين وجه إليه ألف دينار ليرسل إليه نسخة من كتاب الأغاني، فبعث إليه بنسخة ثم كتابه قبل أن يظهر فى بغداد^(٣).

وقد كان الحكم كذلك يشجع العلماء على التأليف، ويقترح على المؤلفين بعض الموضوعات^(٤)، ويفسخ لهم مكانا فى القصر يخلون فيه للبحث وإنجاز ما عهد إليهم من مؤلفات، وهكذا كتب باقتراحه وتشجيعه كثير من الكتب فى مختلف العلوم، ولقى العلماء فى ظله كثيرا من الإقبال والتكريم. ولذلك نهضت الأندلس علميا فى شتى الميادين. وتلّق فيها نابيهون فى كل فروع المعرفة التى تمثل الثقافة فى ذلك الحين.

وليس أدل على نهضة الأندلس العلمية فى فترة الناصر والمستنصر، من وفرة العلماء والمؤلفات فى أغلب فروع المعرفة، تلك الوفرة التى لم تعرفها الأندلس من قبل والنّتى اتضحت معها الشخصية العلمية للأندلس واستقلت إلى حد كبير.

(١) راجع: الحركة اللغوية فى الأندلس منذ الفتح حتى نهاية عصر الطوائف - لإبىير حبيب مطلق ص ١٨٧ -

٢٣٤، د. هيكل: المرجع السابق ص ١٨٤-١٨٥ وانظر ترجمة القالى فى نفح الطيب ٧٠/٢ - ٧٥، تاريخ

العلماء والرواة فى الأندلس لابن الفرضى ٨٣/١-٨٤، طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص ١٨٥-١٨٨.

(٢) نفح الطيب ٣٨٥/١-٣٨٦، طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ص ٦٥-٦٦.

(٣) نفح الطيب ٢٨٦/١.

(٤) كما اقترح على الخشنى تأليف كتابه (قضاة قرطبة)، واقترح على أبى بكر الزبيدي تأليف كتابه (طبقات النحويين واللغويين).

أ- ففي الميدان اللغوي ، نرى أنه قد تأسست أول مدرسة للدراسات اللغوية بالأندلس، وذلك بعد قدوم أبى على القالى إليها والذي ألف كثيرا فى الدراسات اللغوية، وأملى على طلبته الأندلسيين كتابه "الأمالى".

وفى هذه الفترة برز عدد من الأندلسيين فى الدراسات اللغوية مثل: أبى بكر الزبيدى الإشبلى (ت ٣٧٩هـ/٩٨٩م) الذى عمل "مختصر كتاب العين" للخليل بن أحمد وألف كتاب "طبقات النحويين" و"كتاب لحن العامة" وكتاب "الواضح فى العربية" وكتاب "الأبنية فى النحو". وكان مؤدبا للأمير هشام ابن الخليفة الحكم المستنصر^(١).

ومن الأندلسيين الذين عرفوا بالدراسات اللغوية فى فترة الخلافة أيضا أبو بكر ابن القوطية (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م) الذى ألف كتاب "تصارييف الأفعال" وكتاب "المقصود والممدود". وكان ابن القوطية من كبار علماء الأندلس فى فروع علمية أخرى وخاصة التاريخ^(٢).

ب- وفى علم التاريخ، ظهر من علماء الأندلس فى فترة الخلافة، أحمد بن محمد ابن موسى الرازى (ت ٣٤٤هـ/٩٥٥م) الذى كان يلقب بالتاريخى لكثرة اشتغاله بالتاريخ ومما ألفه فى ذلك : كتاب فى "أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم"، وآخر فى "أنساب مشاهير أهل الأندلس"، وثالث عن "كبار الموالى الأندلسيين"، ورابع فى "صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها". وقد ضاعت هذه الكتب كلها، ولم يصل إلينا من مؤلفاته التاريخية إلا قطعة فى صفة الأندلس^(٣).

كذلك كان من مؤرخى هذه الفترة. أبو بكر بن القوطية (ت ٣٦٧هـ). الذى سبقت الإشارة إليه كلغوى. وقد خلف لنا فى التاريخ كتابه المشهور "تاريخ افتتاح الأندلس" وهو يتناول تاريخ الأندلس منذ الفتح حتى نهاية إمارة الأمير عبد الله (٣٠٠هـ).

(١) معجم الأنبياء لياقوت الحموى ج ١٨ / ١٨١، وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٧٢/٤، تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ٩٢/٢.

(٢) راجع: وفيات الأعيان ج ٤ ص ٤، تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ٧٨-٧٩، للديباج المذهب لابن فرحون ٢١٧-٢١٨.

(٣) نفح الطيب ١٧٣/٣، تاريخ ابن الفرضى ٥٤/١، ٨٧/٢، وكتاب تاريخ الجغرافيا والجغرافيين فى الأندلس، للدكتور حسين مؤنس ص ٥٦.

وكان من المؤرخين كذلك فى هذه الفترة، ((عَرِيب بن سَعْد القرطبى)) (ت ٣٧٠هـ/٩٨٠م) الذى كان فى خدمة الحَكَم المستنصر. ومن أشهر كتبه "صلة تاريخ الطبرى". وكان هذا المؤرخ الأندلسى طبيباً أيضاً، ومن آثاره فى الطب: كتاب فى "خَلْق الجنين وتدبير الحَبَالى والمولودين" وهو مخطوط بمكتبة الإسكوربال^(١).

كذلك اشتهر بكتابة التراجم بعض علماء تلك الفترة، مثل أبى عبد الملك أحمد بن محمد عبد البر القرطبى (ت ٣٣٨هـ/٩٤٩م)، الذى ألف كتاباً عن "فقهائ قرطبة"، هو من المصادر الرئيسية التى اعتمد عليها ابن الفرضى فيما بعد، حين ألف كتابه "تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس"^(٢).

وألمع شخصية بين كتاب التراجم فى فترة الخلافة، هى شخصية أبى عبد الله محمد بن حارث الخشنى (ت ٣٦١هـ/٩٧١م)، صاحب كتاب "تاريخ قضاة قرطبة"، الذى ترجم للقضاة فى العاصمة الأندلسية من الفتح حتى سنة ٣٧٥هـ، والكتاب يضم إلى جانب التراجم العديدة - التى تعرفنا بجمهرة من أهل القضاء والعلم فى الأندلس - معلومات قيمة عن الحياة الاجتماعية وأخباره مصوغة فى قالب من الواقعية التى لا يبلغ إلى تصويرها كتاب غيره من كتب التاريخ والأدب^(٣).

ج- وأما التفسير والحديث، فقد نبغ كثيرون مثل ابن محاسن: عثمان بن محمد (ت ٣٥٦هـ) الذى اشتهر بالتفسير^(٤). ومثل ابن القوطية، الذى سبق الحديث عنه كلغوى ومؤرخ. كذلك اشتهر من علماء الأندلس فى تلك الفترة ابن الحجام يعيش بن سعيد، الذى ألف (مسند) حديث بأمر الحكم المستنصر^(٥).

د- وأما فى الفقه ومذاهبه، فقد برع عديدون، وكان أكثرهم من أعلام المذهب المالكى الشائع بين الأندلسيين على ما هو معروف. ومن هؤلاء الذين نبغوا فى الفقه

(١) الذيل والتكملة للمراكشى، السفر الخامس، القسم الثانى ص ١٤٢، تاريخ الفكر الأندلسى لجنثالث بالنثيا (ترجمة د. حسين مؤنس) ص ٢٠٦-٢٠٧، ص ٤٦٥.

(٢) تاريخ العلماء لابن الفرضى ٥١/١، الصلة لابن بشكوال ص ٣٩٦.

(٣) الخشنى أصله من القيروان، ووفد على الأندلس صغيراً، وتخرج على بعض علمائها، ثم دخل فى خدمة المستنصر، وألف كثيراً من الكتب (راجع عنه: تاريخ العلماء والرواة بالأندلس لابن الفرضى ١١٤/٢-١١٥، جنوة المقتبس للحميدى (رقم ٤١)، وراجع: الأدب الأندلسى للنكتور هيكل ص ١٨٩).

(٤) تاريخ العلماء لابن الفرضى ٣٤٩/١.

(٥) تاريخ ابن الفرضى ١٩٧/٢.

المالكي خلال فترة الخلافة: عبد الله بن أبي كُليث (ت ٣٥١هـ) الذي صنف كتاب "الطبقات فيمن روى عن مالك من أهل الأمصار"^(١)، ومنهم يحيى بن عبد الله بن يحيى الليثي^(٢). وهو حفيد الفقيه الأندلسي المعروف، يحيى بن يحيى الليثي الذي كان له دور كبير في تثبيت المذهب المالكي في الأندلس كما ذكرنا من قبل.

على أن هناك فقهاء آخرين نبغوا في فقه غير الفقه المالكي؛ وكان من أسباب ذلك، تلك الحرية الفكرية التي أتاحت للعلماء في فترة الخلافة. فقد عرف بالفقه الشافعي: عثمان بن أبي سعيد الكناني (ت ٣٢٠هـ)، وأسلم بن عبد العزيز بن هاشم (ت ٣١٩هـ)، وأحمد بن عبد الوهاب بن يونس (ت ٣٦٩هـ)، الذي كان من المترددين على الحكم المستنصر^(٣). كذلك عرف من فقهاء الظاهرية: منذر بن سعيد البلوطي (ت ٣٥٥هـ)، وكان قد درس في المشرق على كبار العلماء، وعندما عاد إلى الأندلس، أنكر تقليد مذهب مالك؛ وكان يميل إلى مذهب داود بن خلف الظاهري^(٤)، ويحتج له. ولقد كان يلي قضاء "لاردة" و"طرطوشة"، ثم نال إعجاب الناصر ولفت نظره بخطبته البليغة في حفل استقبال سفير القسطنطينية، فولاه الخليفة الصلاة والخطابة بمسجد الزهراء، ثم ضم إليه بعد ذلك قضاء قرطبة^(٥). والذي بلغ إليه منذر بن سعيد - على ظاهريته ومخالفته لمذهب المالكي الرسمي - يدل على مدى ما ساد الأندلس في فترة الخلافة من حرية فكرية، وما تمتع به العلماء من استقلال في الرأي مهما خالف هذا الرأي مذهب الحاكمين^(٦).

هـ- وأما الطب، فقد ازدهر في تلك الفترة، ونبغ فيه أعلام من الأندلسيين. وقد كان من مهرة الأطباء في تلك الفترة: سعيد بن عبد ربه القرطبي (ت ٣٤٢هـ) الذي كانت له طريقة خاصة في علاج الحميات^(٧)، وأحمد بن يونس، وأخوه عمر، اللذان عُرفا بالمهارة في تحضير الأدوية والعلاج، وخاصة علاج العين. وقد رحل الأخوان إلى بغداد

(١) تاريخ ابن الفرضي ٢٧١/١-٢٧٢.

(٢) ابن الفرضي ٣٤٦/١.

(٣) راجع عن هؤلاء الفقهاء الشافعية تاريخ ابن الفرضي - على التوالي ٣٤٦/١، ١٠٥/١، ٥٩/١-٦٠.

(٤) راجع رسالة الدكتوراه (من تأليفنا) - منكرة من قبل - ص ٥٤٨.

(٥) نفع الطبيب ٣٧٢/١-٣٧٦، ص ٥٧٠-٥٧٦، تاريخ العلماء لابن الفرضي ١٤٢/٢-١٤٣.

(٦) الأنب الأندلسي للدكتور أحمد هيكل ص ١٩١.

(٧) طبقات الأنبياء لابن أبي أصيبعة ص ٤٨٩-٤٩٠.

فى زمن عبد الرحمن الناصر، وتتلماذا على كبار الأطباء بها، وبعد عودتهما استخلصهما الحكم المستنصر لنفسه^(١)، وغير هؤلاء كثيرون ممن عرفوا أيام الناصر والمستنصر وذاعت شهرتهم، حتى لقد كان بعض ملوك المسيحيين يلجأون إلى أطباء الأندلس، لعلاج ما يستعص من أمراضهم^(٢).

وأما الرياضيات فقد نبغ كثيرون، مثل عبد الله بن محمد المعروف بالسرى والذى كان (الحكم) يعظمه وألف كتاباً فى علم العدد والهندسة. ومثل أبى بكر أحمد بن محمد المعروف بابن أبى عيسى، الذى كان يجلس للتعليم أيام الحكم، وكان مقدماً فى الهندسة والعدد والنجوم^(٣).

* وهكذا نرى عدة ظواهر للحياة الثقافية فى الأندلس خلال فترة الخلافة^(٤):

أولاًها: المشاركة الواضحة فى أكثر فروع المعرفة، النبوغ الملموس فى أغلب ألوان الثقافة؛ حتى لنرى من أبناء الأندلس مبرزين فى شتى العلوم والفنون، ونجد لهم مؤلفات فى مختلف فروع المعرفة.

والظاهرة الثانية للحياة الثقافية فى فترة الخلافة: شيوع الحرية الفكرية بصورة واضحة، وتشجيع العلماء وإكبارهم، على اختلاف ميولهم ومعارفهم ومذاهبهم.

والظاهرة الثالثة المتصلة بالحياة الثقافية لتلك الفترة: إقبال كثير من الأندلسيين على العلوم الفلسفية والطبيعية؛ حتى لتعد تلك الفترة بحق من الفترات المعدودات، التى أتيح فيها للثقافة الأندلسية أن تتصل اتصالاً قوياً بالفلسفات والطبيعات.

وهناك بعد ذلك ظاهرة رابعة جديرة بالاعتبار، وهى: الاتصال ببعض المعارف الإغريقية واللاتينية عن طريق الترجمة. فقد ترجمت عن هاتين اللغتين بعض الكتب مثل كتاب "ديسقوريدس" DIOSCORIDES فى الحشائش والأدوية، وكتاب "هروسيوس" OROSIUS فى التاريخ. وقد وصل هذان الكتابان إلى الأندلس ضمن هدية بعث بها إمبراطور القسطنطينية "أرمانيوس" إلى عبد الرحمن الناصر وذلك فى سنة

(١) طبقات الأطباء والحكماء لابن جُلجل ص ١١٢-١١٣، طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ص ٨٠-٨١، عيون الأئباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ص ٤٨٧-٤٨٨.

(٢) قصة العرب فى إسبانيا - ترجمة الجارم ص ١٠٩-١١٠. وراجع د. هيكل: المرجع السابق ص ١٩٢.

(٣) راجع: طبقات الأمم ص ٦٧-٦٨.

(٤) راجع د. هيكل: المرجع السابق ص ١٩٢-١٩٣.

(٣٣٧هـ/٩٤٨م) وكان الكتاب الأول مكتوباً بالإغريقية. وقد ترجمه في الأندلس راهب يسمى "تيقولا" أرسله الإمبراطور بناء على طلب الناصر. أما الكتاب الثاني فكان مكتوباً باللاتينية. وقد ترجمه في الأندلس قاضى النصارى بقرطبة، وقاسم بن أصبغ الأندلسى^(١). ولا يبعد أن يكون هناك كتب أخرى قد ترجمت عن هاتين اللغتين كما حصل لهذين الكتابين؛ حيث توفرت لتلك الفترة كل الإمكانيات التى تشجع على ذلك، من حرية فكرية، وتحمس لجلب الكتب، ووجود من يستطيعون الترجمة.

هذا، وقد نهض الأدب الأندلسى فى فترة الخلافة نهضة عظيمة، ساعد عليها ما كان من رقى سياسى وتقوى اجتماعى ونهوض ثقافى. وقد بدت نهضة الأدب الأندلسى خلال تلك الفترة فى مظاهر عديدة؛ منها ظهور بعض الاتجاهات الجديدة فى الشعر، وبعض الأنواع الجديدة فى النثر بالإضافة إلى تطور الاتجاهات المعروفة وازدهار الأنواع المألوفة، ووفرة الإنتاج الأدبى وخصوبته وتنوعه، وشيوع الأدب بين الأندلسيين شيوعاً جعله من أبرز سمات الحضارة الأندلسية فى ذلك الحين.

وكان من أهم الشخصيات البارزة فى مجال الأدب - فى تلك الفترة - ابن عبد ربه القرطبى (ت ٣٢٨هـ) صاحب كتاب (العقد الفريد). والشاعر أبو الحسن محمد بن هانى الأزدي (المتوفى ٤٦٢هـ)^(٢).

ثانياً: فترة حكم بنى عامر فى ظل الخلافة الأموية (٣٦٦-٣٩٩هـ/٩٧٦-١٠٠٩م):

الحاجب المنصور بن أبى عامر ينتزع السلطة من الخليفة ويصبح الحاكم الفعلى للبلاد.

تتمثل هذه الفترة فى السنين التى حكم الأندلس فيها من الناحية الرسمية الخليفة هشام (المؤيد) الذى بويع بالخلافة بعد أبيه الحكم (المستصر). أما من الناحية الحقيقية فقد كان الحكم المطلق لمحمد بن أبى عامر الذى عمل حاجباً للخليفة (أى: رئيساً للوزراء)، وتلقب بلقب (المنصور) (٣٦٨-٣٩٢هـ/٩٧٨-١٠٠٢م). ثم لابنه عبد الملك الذى خلف أباه فى منصب الحجابة، وتلقب بالمظفر (٣٩٢-٣٩٩هـ/١٠٠٢-١٠٠٨م). ثم لابنه الثانى عبد الرحمن الذى عمل كأبيه وأخيه وتلقب بالمأمون ولم تطل مدته.

(١) راجع طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ص ٤٩٤، وراجع رسالة الدكتوراه المذكورة (من تأليفنا)

(٢) راجع د. هيكل : الأدب الأندلسى ص ٩٤.

لقد عهد الحكم المستنصر بالأمر من بعده لابنه الوحيد هشام، وكان هشام حينئذ طفلاً صغيراً في الثانية عشرة من عمره، ولا يستطيع أن يلى تدبير الدولة بنفسه، مما أدى إلى تهديد الطريق أمام تدخل الأوصياء والطامعين من ذوى النفوذ، الأمر الذى أضعف من سلطة الخليفة الجديد، حتى أصبح المنصور محمد بن أبى عامر - الذى تمكن من انتزاع السلطان لنفسه شيئاً فشيئاً - هو الحاكم الفعلى بعد فترة وجيزة من وفاة المستنصر، ثم سار ابنه (المظفر، والمأمون) على سنته. ولم يبق لهشام مع المنصور وابنيه من بعده إلا اسم الخلافة فقط.

ومحمد بن أبى عامر^(١) من نسل عبد الملك المعافى أحد المحاربين العرب الداخلين مع طارق بن زياد فى سنة الفتح، ويتصل نسبه ببني عامر إحدى قبائل اليمن، وقد استوطن جده إقليم الجزيرة الخضراء، وكان أبوه (عبد الله) من علماء عصره، ومن أهل الفضل والتقى^(٢)، أما محمد بن عبد الله بن أبى عامر نفسه فقد انتقل إلى قرطبة شاباً يطلب العلم، فبرع فى علوم الشريعة والأدب. وقد كان فى بداية حياته الوظيفية يجلس عند باب قصر الخلافة يكتب عرائض للمترافعين إلى السلطان، إلى أن طلبت "صبح" زوجة الحكم المستنصر وأم ولده "هشام" من يكتب عنها، فعرفها به بعض "فتيان" القصر، فاستحسن كتابته، وعيّنته أميناً لبعض شئونها^(٣)، ثم زكته عند الخليفة المستنصر لما رأت فيه من الذكاء وحسن التدبير، فأسند إليه الإشراف على أموال ابنه الأمير هشام ولى العهد، وتقدم فى وظائف الدولة بسرعة، فأضيف إليه النظر على الخزانة العامة، وعلى أمانة "دار السكة"، ثم عين للإشراف على "خطة المواريث" فقاضياً لكورة "إشبيلية"، ثم مسئولاً عن "الشرطة الوسطى". ثم أصبح فى آخر أيام المستنصر - ناظرًا على الحشم (الخاص) ومنحه لقب "قتى الدولة"^(٤). ولما مات الخليفة كان ابن أبى عامر أحد الشخصيات الكبيرة والمرموقة فى القصر الخلفى والدولة، وقد وصل إلى هذه الرتبة بمساعدة صديقه الوزير جعفر المصحفى، (حاجب المستنصر) والسيدة "صبح" أم هشام (بما استهوها به من الخدمة والإتحاف والمهاداة)^(٥).

(١) هو محمد بن عبد الله بن عامر بن أبى عامر (محمد) بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافى .

(٢) نفح الطيب ٣٩٩/١، أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب ص ٥٩. (٣) نفح الطيب ٣٩٩/١.

(٤) أعمال الأعلام ص ٥٩، المقتبس (تحقيق د. الحجى) ص ٤٣، ٤٤، ٧٢، ١٢٣، ١٣٨، ١٦٩-١٧٠، البيان

المغرب ٢٣٩/٢

(٥) أعمال الأعلام ص ٥٩.

ولما بويع "هشام" بالخلافة كانت هناك شخصيات ذات تطلعات متباينة حول مستقبل الخلافة الأموية بالأندلس، فهناك السيدة "صبح" التي تريد أن تحتفظ بالخلافة لابنها هشام والتمكين له، وجعفر المصحفي الذي ظل في منصب (الحجابة)، ومحمد بن أبي عامر الذي رُفِيَ إلى مرتبة الوزارة، وعاون المصحفي في تدبير شئون الدولة وكان يتطلع إلى حكم الأندلس خلال الوصاية على الخليفة الصغير (هشام المؤيد) الذي كان ميالا بطبعه وسنه إلى اللهو واللعب، ولم يكن له من تلك خلال الرفيعة التي تهيب الأمراء للاضطلاع بمهام الملك. وهناك أيضا الفتيان الصقالبة الخدام بالقصر، وكان عددهم ثمانمائة - أو يزيدون - وعلى رأسهم "فائق" و"جؤنر"، وهؤلاء كانوا يرون تولية المغيرة ابن عبد الرحمن (الناصر)، فتصدى لهم ابن أبي عامر وجعفر المصحفي وسعيا في قتل المغيرة^(١).

وقد تأقت نفس ابن أبي عامر إلى انتزاع السلطان، فعمل على تحقيق هدفه بكل الوسائل الممكنة، ونجح في التخلص من جميع منافسيه. ويطول المقام بذكر الحديث عن المراحل التي تدرج بها للوصول إلى غايته، ونكتفي هنا بذكر مقتطفات جامعة من كتاب المقرئ: (نفع الطيب) إذ يقول: ((تجرد لرؤساء الدولة ممن زاحمه فمال عليهم، وحط بهم عن مراتبهم، وقتل بعضا ببعض حتى استأصلهم وفرق جموعهم، وأول ما بدأ بالصقالبة الخدام بالقصر، فحمل الحاجب المصحفي على نكبتهم، فنكبتهم وأخرجهم من القصر، ثم أصهر إلى (غالب) مولى الحكم المستنصر - أي تزوج ابنته - وبالغ في خدمته والتتبع له، واستعان به على المصحفي فنكبه ومحا أثره من الدولة، ثم استعان على (غالب) بجعفر بن علي بن حمدون (الذي ولى المغرب مع أخيه يحيى في أيام المستنصر)^(٢) وقائد الشيعة ممدوح بن هاني (شاعر العبيديين) بمن معه من زناتة والبربر، ثم قتل ابن حمدون بممالة عبد الوود، وابن جهور، وابن ذي النون وأمثالهم من أولياء الدولة من العرب وغيرهم.. ثم لما خلا الجو من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة رجع إلى الجند، فاستدعى أهل العدو (المغرب) من زناتة والبرابرة. فرتب منهم جنداً، واصطنع أولياء، وعزف عرفاء، وأخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم، فتم له ما أراد من الاستقلال

(١) البيان المغرب ٢/ ٢٦٠.

(٢) البيان المغرب ٢/ ٢٧٨-٢٧٩.

بالمملك، والاستبداد بالأمر، وتغلب على هشام (ال خليفة) وحجره واستولى على الدولة، وبنى لنفسه مدينة لنزله سماها (الزاهرة)، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة، وقعد على سرير الملك، وتسمى بالحاجب المنصور، ونفذت الكتب والمخاطبات والأوامر باسمه، وأمر بالدعاء له على المنابر عقب الدعاء للخليفة، ولم يبق لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء وكتابه اسمه فى السكة (العملة) والطُرُز...^(١).

بعض الملامح العامة لسياسة المنصور بن أبى عامر وإنجازاته الحربية والإدارية^(٢):

أ- كان المنصور بن أبى عامر عبقرية فذة، وقد وصل إلى مرتبة من السلطان والقوة، لم يصل إليها أحد قبله من أعظم أمراء الأندلس، حتى ولا عبد الرحمن الناصر نفسه، ويمكننا أن نقول: إنه إذا كان عهد الناصر ألمع صفحة فى تاريخ الأندلس المسلمة، من النواحي السياسية والحضارية، فإن عهد المنصور لا يقل عنه لمعانا وتألقا، بل ربما امتاز على عهد الناصر، بما أحرزته الأندلس خلاله، من تفوق عظيم فى السلطان والقوى العسكرية، فقد استطاعت إسبانيا النصرانية (فى الشمال) فى مطلع عهد الناصر، أن تتنهب فرصة الفتن الداخلية بالأندلس، وأن توطد قواها العسكرية، وأن تغزو الأندلس غير مرة غزوات مخربة، وقد لقي الناصر على يد النصارى غير هزيمة فاحشة، أما فى عهد المنصور، فقد انتهت إسبانيا النصرانية إلى حالة يرثى لها من التفكك والضعف، واستمرت زهاء ثلث قرن تتلقى ضربات المسلمين المتواليّة. وقد وصل المنصور فى غزواته فى شبه الجزيرة الإسبانية، إلى مواطن لم يبلغها فاتح مسلم من قبل.

٢- وقد أدرك المنصور منذ البداية، أنه يجب لتحقيق سلام الأندلس وأمنها، وردع الممالك النصرانية عن عدوانها المستمر، أن يكون للأندلس قوة عسكرية عظيمة، تكفى لإرهاب عدوها، وإعزاز دينها، ومن ثم فقد بذل جهده لإصلاح الجيش الأندلسى، وتقويته، وتزويده بأفضل العناصر المحاربة. وقد رأى المنصور أن يعتمد على البربر بالأخص، لما كانوا يتصفون به من البداوة

(١) نفح الطيب ٣٩٦/١-٣٩٨ (باختصار).

(٢) راجع التفاصيل فى دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان ٥٦٨/٢-٥٨٧.

والشجاعة، فاستقدمهم من عُثُوَّة المغرب، ورغبهم بوفرة البذل والعطاء^(١). وكذلك استخدم المرتزقة من النصارى الإسبان، ومنحهم الأجور والجرايات السخية، وكان يحرص على رضائهم بتوسيع النفقة عليهم، ومعاملتهم بالمساواة والرفق. واستطاع المنصور بما وضعه للجيش من أنظمة محكمة، وما أفاض عليه من وافر النفقة والعدد، أن ينشئ للأندلس قوة عسكرية عظيمة، لم تعرفها في أيه عهد آخر. وكانت هذه القوة فضلا عن كونها دعامة سلطانه وحكمه، دعامة الأندلس وأداتها للدفاع والغزو. ونستطيع أن نقدر أهمية الجيش الأندلسي وكفايته أيام المنصور إذا عرفنا أن المنصور لبث زهاء ربع قرن، يقود قواته إلى الغزو المستمر، في أراضي الممالك النصرانية، بكل ربيع وكل صيف. وقد بلغ من كثرة قوى الجيش النظامية وكفايتها، أن أصدر المنصور في (سنة ٣٨٨هـ/٩٩٨م) أمره بإعفاء الناس من إجبارهم على الغزو، اكتفاء بعدد الجيش المرابط، وقرأ الخطباء ذلك المرسوم على الناس، إثر قراءة كتب الفتح، وعرفوا فيه (بأن من تطوع خيراً، فهو خير، ومن خف إليه، فمبرور وماجور، ومن تتأقل فمعذور)^(٢).

٣- وكان المنصور يضطرم شغفا بالجهاد في سبيل الله، وكانت غزواته التي زادت على الخمسين، فضلا عن كونها عنوان هذا الجهاد المستمر، ترمى إلى غاية عسكرية وسياسية فطنة، هي تحطيم قوى إسبانيا النصرانية، وردعها بذلك عن العدوان على أراضي المسلمين. وقد تحققت هذه الغاية في أواخر عهد المنصور على أكمل وجه. ويرى البعض أن المحصلة النهائية لهذه الغزوات كانت ضعيفة ولم تقض على قوى الممالك الشمالية، ولم تغير أحوالهم، وبقيت حدود دولة الإسلام على ما هي عليه، فهي غزوات تويهاً عظيم، لكن نتائجها قليلة، ولم تحقق هدفاً ثابتاً ولم تقض على خصم^(٣).

وكانت حملته الثامنة والأربعون التي شنّها على "جَلْقِيَّة" في شمال غرب إسبانيا (سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م) هي أهم غزواته للممالك النصرانية في الشمال. وكان غرض

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٩ و ٣١٥ و ٣١٦.

(٢) أعمال الأعلام ص ٦٨.

(٣) د. عبد الله جمال الدين: المسلمون في الأندلس (موسوعة سفير ٧١/٧).

المنصور منها هو غزو مدينة "سانت ياقب" (سنتياجو SANTIAGO). وهذا الاسم هو اسم (القديس يعقوب) الذي اتخذهُ الإسبان في العصر الوسيط رمزاً قومياً في حروبهم مع المسلمين، وأقاموا له فوق ضريحه كنيسة عظيمة يحج إليها المسيحيون من جميع أنحاء العالم.

وقد اشترك في هذه الحملة الأسطول الأندلسي الذي حمل المشاة والأسلحة والأقوات والأطعمة والعدد، وأقلع من ميناء (قصر أبي دانس) على ساحل غرب الأندلس (في البرتغال) واتجه نحو الشمال. بينما سار المنصور براً على رأس فرسانه مخترباً الأراضي الإسبانية شمالاً حتى بلغ (نهر كُوَيْرَة) وهناك التقى بأسطوله الذي دخل في النهر وعقد منه جسراً لعبور الجنود ثم زحف المنصور بفرسانه ومشاته مخترباً بلاد العدو، بما فيها من جبال ووهاد حتى بلغ مدينة (سانت ياقوب) فوجد سكانها قد فروا منها، فأمر بهدمها وهدم كنيستها، لكنه حافظ على مقام (القديس يعقوب)، وعاد محملاً بالأسرى والغنائم التي كان من بينها أبواب الكنيسة ونواقيسها، فاستخدمت الأبواب في تسقيف الجزء الذي نراه في جامع قرطبة، كما استعمل النواقيس ثريات للمسجد^(١).

وبلغ من شغف المنصور بالجهاد، أنه كان يتولى القيادة بنفسه في سائر غزواته الصائفة والشتائية، ولم يقعه شيء عن القيادة، والاشتراك الفعلي في كثير من المعارك، حتى إننا نراه في آخر غزواته يتولى القيادة بالرغم من مرضه، ويسير محمولاً على محفة، ثم يقضى نحوه عقب الغزو، بين يدي جنده وفي معقل الثغر، بعيداً عن قصوره، وكان يحرص في سائر غزواته على أن يستخلص ما يعلق بوجهه أو ثيابه من الغبار، أثناء المعارك التي يخوضها، فكان يسمح بمناديل اجتمعت له منها رزمة كبيرة، كان يحملها معه دائماً حتى إذا وافته المنية ضُمَّت إلى أكفانه ودفنت معه تنفيذاً لوصيته^(٢).

٤- وأما عن مقدره المنصور في الإدارة والحكم: فقد أبدى المنصور طوال حياته كفاية إدارية فائقة لم ييدها أحد من أسلافه، فلم تر الأندلس من قبل استقراراً كالذي رآته في عهد المنصور، ولم تتمتع قط بمثل ما تمتعت به في عهده من الأمن والطمأنينة والدعة. وكانت أيام المنصور بالأندلس أيام فخار وظفر ورخاء ورغد، لم تعان خلالها من

(١) راجع تفاصيل هذه الغزوة في البيان المغرب ٢٩٤/٢-٢٩٨.

(٢) نفع الطيب ٤٠٩/١...

غزوات العدو المخربة، ولم تصب فيها بأية هزيمة ذات شأن، ولم تضطرم فيها أية ثورة أو فتنة، وفيها ازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة، وزهت العلوم والآداب، وعم الخصب والرخاء في جنبات الأندلس، وفاضت خزائن قرطبة بالأموال، ووصل محصول الجباية يومئذ إلى أربعة آلاف ألف دينار (أربعة ملايين) سوى رسوم المواريث، وسوى مال السبي والغنائم.

وكانت حكومة المنصور تضم عدة من أقدر رجالات الأندلس في هذا العصر ما بين وزراء وكتاب عملوا معه على تسيير دفة الحكم بمقدرة فائقة. وكان من وزرائه، أبو مروان عبد الملك بن شهيد، ومحمد بن جهور، وعيسى بن فطيس، وأحمد بن سعيد بن حزم والد الفيلسوف الشهير، وكان من أقدر وزراء المنصور وأثرهم لديه، وبلغ من ثقته به أن كان يستخلفه على المملكة في أوقات معينة، ويعهد إليه بخاتمة.

• ولم يخلُ عهد المنصور من الإنشاءات العظيمة على الرغم من غزواته المستمرة وقد أنشأ مدينته (الزاهرة) بقصورها وحدائقها، وجعلها مقراً للحكم والإدارة، وقد انتهى من بنائها في عامين وبنى بجانبها منية جميلة ازدانت بالحدائق والقصور أسماها "العامرية"، وكان يقصدها عندما يريد الاستجمام^(١).

كذلك قام بزيادة المسجد الجامع في "قرطبة" بعد أن اتسعت المدينة، وضمت واحداً وعشرين حياً، الواحد فيها أكبر من أية مدينة أندلسية، وقد حفر حولها خندقاً بلغ (١٦) ميلاً، وزاد سكانها كثيراً لا سيما اليرير، وضاق المسجد الجامع بهؤلاء السكان فأدخل المنصور في سنة (٣٨٧هـ / ٩٩٧م) زيادة عليه من الناحية الشرقية، بلغت مقدارها المساحة الأصلية نفسها تقريباً، وحرص المنصور على الاشتراك في هذا المشروع بنفسه، واشتغل فيه أسرى النصارى، وتم تعويض أصحاب الدور والأماكن التي أخذت منهم لهذا الغرض^(٢).

كما جدد المنصور قنطرة قرطبة على نهر الوادي الكبير (سنة ٣٨٧هـ) وكان "السمح بن مالك" في عصر الولاة قد جدها من قبل، وأنفق المنصور على تجديدها في سنة (٣٨٧هـ - ٩٨٨م) مائة وأربعين ألف دينار. وبنى أيضاً قنطرة "إسنجة" على نهر "سنيل" أحد فروع نهر الوادي الكبير^(٣).

(١) البيان المغرب ٢/ ٢٧٥، أعمال الأعلام ص ٦٢.

(٢) البيان المغرب ٢/ ٢٨٧، نفح الطيب ١/ ٥٧٨.

(٣) البيان المغرب ٢/ ٢٨٩.

أبناء المنصور محمد بن أبي عامر:

■ **عبد الملك (المظفر بالله)** وسياسته الداخلية والخارجية
(٣٩٢-٣٩٩هـ/١٠٠٢-١٠٠٨م):

ولى الحجابة بعد وفاة المنصور ابنه عبد الملك الذى تلقب بالمظفر سيف الدولة، وأمره الخليفة هشام على ما كان عليه أبوه معه.

١- وقد افتتح عبد الملك عهده بإسقاط سدس الجباية عن جميع البلاد، ثم حرص على إظهار العدل، وحماية الشرع، ونصرة المظلوم، وقمع أعداء الدين، فاجتمع الناس على حبه، ولم يداهتوا فى طاعته، فانشرح قلبه، وخلصه الله من الفتنة^(١).

٢- وقد سار (المظفر) على سياسة والده الجهادية ضد ممالك إسبانيا النصرانية، فغزا بلادهم سبع غزوات، وأوغل فى أراضي (برشلونة) و(قشتالة) حتى أجبرها على الصلح والمهادنة، ولم يلبث ملوكها أن اعترفوا بسلطانه واحتكموا إليه فيما نشب بينهم من خلافات^(٢).

٣- كذلك واصل عبد الملك سياسة أبيه فى تعمير البلاد التى غزاها من أراضي العدو المتاخمة لحدود المسلمين، فيقول ابن عذارى فى هذا الصدد: «وعهد الحاجب المظفر وقت الفتح إلى المسلمين ألا يحرقوا منزلاً، ولا يهدموا بناء؛ لما ذهب إليه من إسكان المسلمين فيه، فشرع للوقت فى إصلاحه ونادى فى المسلمين: من أراد الإثبات فى الديوان بدينارين فى الشهر على أن يستوطن فى هذا الحصن فعل، وله مع ذلك المنزل والمحراث، فرغب فى ذلك خلق عظيم واستقروا به فى حينهم»^(٣).

٤- كذلك سار عبد الملك على سياسة أبيه الحازمة فى العدو المغربية مما جعل زعماء (زناتة) يسارعون إلى مبايعته والدعاء له وللخليفة هشام المؤيد على المنابر. وقد كافأهم المظفر بأن استخدمهم فى جيشه، كما كافأ المعز زيرى بن عطية المغراوى بأن ولاه حكم المغرب بدلاً من قائده واضح الصقلبي الذى أمره بالعودة إلى الأندلس.

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٨٤-٨٥.

(٢) تفاصيل غزواته فى البيان المغرب ج ٣ ص ٤-١٥، ص ٢١-٢٣.

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٧.

كذلك اصطنع المظفر بنى زيرى بن مناد الصنهاجيين حكام الدولة الزيرية فى إفريقيا على عهد الفاطميين، فانتقل فرع منهم برئاسة (زاوى بن زيرى) إلى الأندلس واستقروا بنواحي غرناطة^(١).

على أن حكم عبد الملك المظفر لم يستمر أكثر من سبع سنوات، إذ أصابته نوبة صدرية أودت بحياته (سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٩م).

■ عبد الرحمن بن المنصور وسقوط دولة بنى عامر:

قام بالأمر من بعده أخوه عبد الرحمن، وتلقب بالمأمون وكانت أمه مسيحية بنت رجل يسمى "سانشو" ولذا سَمَّى الفقهاء عبدَ الرحمن باسم "سانشُول" (أو شانجُول) Sanchuelo أى سانشو الصغير؛ وذلك لأنهم كانوا يكرهونه، كما كان يكرهه كثير من الأندلسيين بسبب استهتاره واتهامه بقتل أخيه عبد الملك. وربما كان نسبه لأم مسيحية من أسباب كراهيته.

وكان ذلك كله بمثابة البارود الذى ينتظر الشرارة لينفجر. وقد انطلقت الشرارة وكان مطلقها (شانجول) نفسه، فقد دعاه طمعه إلى الضغط على الخليفة ليكتب له بولاية العهد، وفعلًا امتثل الخليفة وكتب بالعهد له. وكان مضمونه أن الخليفة لم يجد من هو أصلح لولاية العهد بعده من هذا القحطاني عبد الرحمن بن المنصور بن أبى عامر. وهنا غلَى مَرْجَلُ الغضب فى نفوس الأندلسيين وانتهزوا فرصة غيابه فى غزو إقليم (ليون) فى أول (سنة ٢٩٩هـ/١٠٠٩م) وثاروا بقيادة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، اذلى انضم إليه الساخطون على العامريين، وخاصة من كانوا على ولاء لبنى أمية، من يمينيين ومضريين. وهاجم الناثرون قصر الخلافة، وقتلوا الحراس، واضطروا الخليفة إلى التنازل عن الخلافة لزعيم الثورة محمد بن هشام، الذى ولى الخلافة، وتلقب بالمهدى.

ولما وصلت أنباء الثورة إلى المأمون أثناء عودته من غزواته. عزم على إخمادها، ولكن جنده البربر انفصلوا عنه، وأخذوا يتسللون أثناء مسيره ويدخلون قرطبة، ويبايعون الخليفة الجديد. ثم قبض على المأمون، وقتل وصلبت جثته. وهكذا دالت دولة بنى عامر، وانتهت فترة الحجابة^(٢).

(١) راجع البيان المغرب ٣/٣٦-٣٧، والعيادى: فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٧-٢٦٨.

(٢) راجع تفاصيل هذه الأحداث فى البيان المغرب ج ٣ ص ٣٨-٥٠، أعمال الأعلام ص ٨٩-٩٧، نفح الطيب

ج ١ ص ٤٢٤-٤٢٦.

ثالثاً: فترة انهيار الخلافة الأموية (الفتنة) [٣٩٩-٤٢٢هـ/١٠٠٩-١٠٣١م]:

ليس لهذه الفترة طابع سياسي أصدق مما وصفت به من أنها فترة الفتنة المبيرة. فقد عانت الأندلس منذ نهاية الدولة العامرية إلى سقوط الخلافة الأموية (٣٩٩-٤٢٢هـ/١٠٠٩-١٠٣١م) فتنة طاحنة، كان من آثارها أن قتل كثير من الأندلسيين، وتفككت وحدتهم، وتصدعت قوتهم وأهدرت قيمهم. وذلك لأن الحكم والسلطان ظل موضع نزاع بين الأمراء الأمويين أولاً، ثم بينهم وبين الرؤساء البربر ثانياً^(١)، وقد دفع حب الغلبة بعض هؤلاء وهؤلاء إلى الاستعانة بالأمراء الإسبان للتصاري، وكان الثمن هو تسليم بعض المدن والحصون الأندلسية، وإياحة العاصمة قرطبة لجند الإسبان الداخلين مع المتغلبين. وإليك الحديث عن مراحل هذه الفتنة^(٢):

١- فقد ثار محمد بن هشام بن عبد الجبار الأمير الأموي، على عبد الرحمن بن أبي عامر وقوض الدولة العامرية وأنهى فترة الحجابة (سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٩م) كما ذكرنا

(١) تولى الخلافة في هذه الفترة من الأمويين والبربر:

١- محمد بن هشام المهدي	للمرة الأولى	من ٣٩٩ إلى ٤٠٠هـ	(١٠٠٨-١٠٠٩م)
٢- سليمان (المستعين)	للمرة الأولى	من ٤٠٠ إلى ٤٠٠هـ	(١٠٠٩-١٠٠٩م)
٣- محمد (المهدي)	للمرة الثانية	من ٤٠٠ إلى ٤٠٠هـ	(١٠٠٩-١٠١٠م)
٤- هشام (المؤيد)	للمرة الثانية	من ٤٠٠ إلى ٤٠٣هـ	(١٠١٠-١٠١٣م)
٥- سليمان (المستعين)	للمرة الثانية	من ٤٠٣ إلى ٤٠٧هـ	(١٠١٣-١٠١٦م)
٦- (الناصر) على بن محمد بن حمود		من ٤٠٧ إلى ٤٠٨هـ	(١٠١٦-١٠١٨م)
٧- عبد الرحمن (المرتضى)	بشرق الأندلس	من ٤٠٨ إلى ٤٠٩هـ	(١٠١٨-١٠١٨م)
٨- (المأمون) القاسم بن حمود	للمرة الأولى	من ٤٠٨ إلى ٤١٢هـ	(١٠١٨-١٠٢٢م)
٩- (المعتلى) يحيى بن حمود	للمرة الأولى	من ٤١٢ إلى ٤١٣هـ	(١٠١٣-١٠١٦م)
١٠- (المأمون) القاسم بن حمود	للمرة الثانية	من ٤١٣ إلى ٤١٤هـ	(١٠٢٣-١٠٢٣م)
١١- عبد الرحمن (المستظهر)		من ٤١٤ إلى ٤١٤هـ	(١٠٢٣-١٠٢٣م)
١٢- محمد (المستكفي)		من ٤١٤ إلى ٤١٦هـ	(١٠٢٣-١٠٢٥م)
١٣- (المعتلى) يحيى بن حمود	للمرة الثانية	من ٤١٦ إلى ٤١٧هـ	(١٠٢٥-١٠٢٧م)
١٤- هشام (المعتد)		من ٤١٧ إلى ٤٢٢هـ	(١٠٢٧-١٠٣١م)

(٢) تفاصيل مراحل الفتنة تجدها في البيان المغرب ج ٣ ص ٥٠-١٥٢، أصل الأعلام ص ١٠٩-١٤٠، نفع الطبيب ج ١ ص ٤٢٦-٤٣٨، وراجع أيضاً: الألب الأندلسي من الفتحة إلى سقوط الخلافة للدكتور أحمد هيكمل ص ٣٤٢-٣٤٨، معالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسين مؤنس ص ٣٥٤-٣٥٨.

من قبل ولكنه اضطهد البربر لأنهم كانوا أعوان العامريين وخدمهم، وتشدد مع الأندلسيين ونزع السلاح من كثير منهم، لأنه كان يخاف هياجهم. وأعلن كذلك وفاة الخليفة هشام، بعد أن أحضر جثة تشبه جثته، وأشهد على الوفاة بعض الفقهاء ورجال القصر، وشيع جنازة الخليفة وهو حي لا يزال إذ كان قد سجنه في مكان خفي.

٢- وبالإضافة إلى ذلك كله، عُرف محمد بن هشام - رغم اتخاذه لقب المهدي - بالفسق والفجور والميل إلى المذات، كما اشتهر بالقسوة والعنف. وقد اثار كل ذلك العامة عليه ونفّرهم منه، فانتَهز الفرصة أمير أموى اسمه هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر - وكان المهدي قد سجن أباه - فثار بطائفة من الحائقين على المهدي، وتقدم إلى القصر وطلب من المهدي ترك الخلافة له. وفي أثناء ذلك عبث البربر بقرطبة، وكان كثير منهم ضمن الثائرين، فقام القرطبيون بمطاردة البربر، لا دفاعاً عن المهدي، وإنما دفاعاً عن أنفسهم. وقد استطاعوا أن يجلوهم عن قرطبة. وفي أثناء ذلك قتل الأمير الأموي الثائر على المهدي.

٣- ولم تنته الفتنة عند هذا الحد، فقام أمير أموى آخر، هو سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، وانضم إلى البربر المتحيزين خارج قرطبة، فبايعوه بالخلافة، وتلقب بالمستعين. وقد أراد المستعين وأعوانه البربر أن يحتشدوا لدخول قرطبة؛ فاتجهوا أولاً إلى مدينة سالم، وطلبوا من حاكمها (واضح) أن ينضم إليهم فرفض، فاتجهوا إلى أمير قشتالة (سانشو جَرثيا) وطلبوا منه المساعدة، وكان قد سبقهم إلى طلب المساعدة نفسها رسل من قبل المهدي، ولما كان الأمير القشتالي يعرف ضعف المهدي، فإنه أثار مساعدة رسل المستعين، واشترط لذلك الاستيلاء على بعض الحصون والمدن مما في أيدي المسلمين. ولما أخذوا المؤن والمساعدات زحفوا على قرطبة ونازلوا المهدي وهزموه، وأبيحت قرطبة للبربر والقشتاليين مدة^(١). وكان من نتائج هذه الحرب بين المهدي وجنده والمستعين وأعوانه، قَتْلُ آلاف، و غَرْقُ آلاف، وتدمير الكثير من قصور قرطبة، ونهب العديد من متاجرها، وانتشار الرعب والأسى بين من بقى من سكانها. أما المهدي فقد فر إلى طليطلة، وتنبه المستعين. وقبل أن تتأله يده كان (واضح) حاكم مدينة سالم الموالي للمهدي قد استجد أميرى "قطلونيا" المسيحيين وهما: (رامون الثالث) أمير

(١) كان دخول المستعين على رأس البربر إلى قرطبة سنة ٤٠٠هـ - ١٠٠٩م.

"برشلونة" و(إرمنجول) أمير "أرخيل"، فأجدها على شروط سخية في صلح القطلونيين. ولما وصله المدد انضم إلى المهدي، فاضطر المستعين إلى الانسحاب ثانياً إلى قرطبة. ولكن المهدي وواضحاً والقطلونيين تبعوه، واستطاعوا هزيمته واضطاراه إلى الفرار خارج قرطبة، ووقعت العاصمة الأندلسية مرة ثانية فريسة لجيش منتصر يعاونه إسبان مسيحيون. وخرج القطلانيون من قرطبة بعد فترة متقلين بالأسلاب^(١).

٤- وأخيراً رأى الجنود الأندلسيون التخلص من الأمويين المتنازعين، فثاروا على المهدي وقتلوه (آخر سنة ٤٠٠هـ) وبايعوا من جديد (هشاماً المؤيد) الذي كان قد شيع المهدي منذ حين جنازته الكاذبة، وعمل واضح وزيراً لهشام في هذه المرة، وقد حاول سليمان استرداد السلطان فطلب العون من حليفه السابق أمير قشتالة، فطلب هذا الحليف حصوناً من (واضح)، وكأنه يهدده بمساعدة المستعين إن لم تسلم الحصون، فاضطر واضح إلى التسليم.

ومع هذا لم يسلم الأمر لهشام في تلك الخلافة الثانية. فقد كان البربر خارج قرطبة يعيشون وينهبون، حتى لقد دمروا مدينة (الزهراء) (سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م) وحولوها إلى خرائب. ثم حاصروا قرطبة. وكان القرطبيون قد ثاروا على واضح وزير هشام وقتلوه، وجعلوا مكانه في الوزارة (ابن أبي مضاء) وظلوا يدافعون عن مدينتهم حيناً، ثم اقتحمها عليهم البربر بقيادة سليمان المستعين (سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م) فدمروا ونهبوا وقتلوا فيها الكثير من بينهم عدد من كبار العلماء، ولم يرحموا حتى النساء والأطفال، وأحرقوا الدور وتعرضت قرطبة لمحنة لا تعادلها محنة. وقد استدعى المستعين هشاماً وأنبه على قبوله الخلافة. ويقال إنه قتله سراً، ويقال إنه سجنه، ففر بعد حين من سجنه وعمل عاملاً عادياً في الأندلس ثم هاجر إلى المشرق. وبهذا الغموض انتهت قصة هشام^(٢).

٥- أما المستعين فظل حيناً يحكم، ولكن الميدان لم يخل له بانتهاء هشام والمهدي من بني أمية، فقد ظهر خطر جديد من غير الأمويين. ذلك أنه كان من قواد البربر الكبار الذين عاونوا المستعين أخوان، أحدهما كوفى بولاية (سبّنة) و(طنجة)،

(١) كانت هذه المرة بعد المرة الأولى بستة أشهر..

(٢) تذكر أن هشاماً هذا هو هشام (المؤيد) بن الحكم المستنصر.

وهو على بن حمود، والآخر كوفى بولاية (الجزيرة الخضراء) وهو القاسم بن حمود. وقد تأقت نفس (على) إلى تولّى الحكم فى الأندلس؛ فهو بربرى، والبربر هم ذوو القوة حينئذ، وعلى رماحهم قامت دولة المستعين. فتحالف على بن حمود مع صقلبي من أعوان بنى عامر كان بلى (ألمرية)، وهو (خيران العامرى)، واتفق معه على الزحف إلى قرطبة، وانضم البربر إلى ابن حمود. ولما خرج المستعين للقاءه قبضوا عليه وسلموه لعلى فقتله. ثم دخل ابن حمود قرطبة، وبويع بالخلافة (سنة ٤٠٧هـ/١٠١٦م)، وأخلص له (خيران العامرى) أول الأمر، ثم ما لبث أن انقلب عليه، وأخذ يدعو فى شرق الأندلس لأمير أموى جديد هو عبد الرحمن بن عبد الملك الناصر الذى بويع فى شرق الأندلس ولقب بالمرتضى.

وقد انتهى أمر (على بن حمود) بأن اغتيل على أيدى بعض خدمه من أعوان الأمويين (سنة ٤٠٩هـ/١٠١٨م)، فخلفه أخوه القاسم بن حمود. وكان حاكم "سرقسطة" قد دخل فى دعوة (المرتضى)، وزحف مع (خيران العامرى) إلى "غرناطة"، ولكن هذا الزحف انتهى بالفشل، لخلاف بين المتحالفين، فهزم المرتضى وفر إلى إحدى القرى حيث قتل.

وهكذا تخلص القاسم بن حمود من هذه الدعوة الأموية الجديدة. ولكن الأمر لم يستقر له، فقد طمع ابن أخيه واسمه (يحيى بن على بن حمود)، فى أن يكون الأمر له مكان أبيه، فزحف إلى المغرب وانضم إليه كثير من البربر الناقمين على القاسم استخدمه للعبيد دونهم. ولما اقترب يحيى من قرطبة، فرّ عمه (القاسم) إلى إشبيلية، ودخل يحيى العاصمة الأندلسية، التى وقعت من جديد فى أيدى جنود منتصرين (سنة ٤١٣هـ/١٠٢٣م).

لم يستقر يحيى طويلاً فى قرطبة، فقد انفض أعوانه واضطر إلى اللجوء فى السنة التالية إلى (مالقة). وعاد القاسم بن حمود من جديد إلى قرطبة. ولكنه لم يستقر أيضاً؛ فقد ثار عليه القرطبيون وطردوه، فهرب إلى إشبيلية، ولكنه لم يستقر أيضاً؛ فقد ثار عليه القرطبيون وطردوه، فهرب إلى إشبيلية، ولكنه وجدها هذه المرة مغلقة الأبواب فى وجهه، فاضطرب أمره، حتى قبض عليه يحيى ابن أخيه، فكانت نهايته على يديه.

٦- وهنا اختار أهل قرطبة أميراً أموياً جديداً للخلافة، فبويع عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر (سنة ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م) ولُقّب بالمستظهر. ولكن الأمر لم يستقر لهذا الخليفة الجديد؛ فقد شبت ثورة ضده بزعامة أموى آخر، وهو محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر، ونجحت الثورة وقبض على المستظهر، وقتل بعد أسابيع من مبايعته بالخلافة. وبويع الأمير الأموى الجديد، ولقب بالمستكفى^(١). ولكن هذا الخليفة الجديد لم يحسن الحكم وأغضب رجالات قرطبة وأهل الفكر والرأى فيها، فلجأوا إلى يحيى بن خالد وقتلوه، وعلم المستكفى بأن يحيى بن حمود يتجهز للاستيلاء على قرطبة، ففر متخفياً فى زى امرأة وخرج من قرطبة حيث دس له السم فمات. واختار القرطبيون يحيى بن حمود فكان الخليفة بها للمرة الثانية، واكتفى أخيراً بإنبابة وزير عنه للحكم، وترك جنوده لإقرار الأمن، واستقر هو بمالقة.

٧- وكان يحيى بعيد النظر فى عدم بقائه بقرطبة هذه المرة؛ إذ كانت الفتنة لا تترك لحاكم فرصة استقرار. ففى هذه المرة اتفق "خيران العامرى" حاكم (المرية)، و"مجاهد العامرى" حاكم (دانية) على إخراج الحموديين وإعادة الحكم الأموى، وكان للقرطبيون قد ملأوا حكم البربر، فتأمروا مع زعيمى الصقالبة (خيران) و(مجاهد) على إنهاء الحكم الحمودى، ثم طرد الحموديون من قرطبة بمعاونة الجند للصقالبة الموجودين فيها؛ إذ فتحوا أبوابها للقوات التى أرسلها (خيران) و(مجاهد)، وباغت الجميع البربر وطردوهم إلى غير رجعة، ثم حاول مجلس كبراء المدينة إعادة الحكم الأموى، فاختار الوزير أبو الحزم بن جهور الأمير هشام بن عبد الملك بن الناصر، (أخا عبد الرحمن الرابع الملقب بالمرتضى). وتمت البيعة لهشام الثالث (سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م) ولقب بالمعتد بالله، وكان بعيداً عن قرطبة حين بويع، ثم استطاع الوصول إليها بعد صعوبات من الخارجين على الحكومة المركزية.

٨- ولم تستقر الأمور باختيار الخليفة الجديد، فقد خيب الآمال بعكوفه على الملمات وتبليده، وتركه الأمور فى يد وزيره الحكم بن سعيد. وقد أساء هذا الوزير إلى العلماء باستهانته بهم وإلى الشعب بفرضه الضرائب الباهظة عليهم. وأضيف إلى ذلك منافسة الزعيم القرطبى الكبير (ابن جهور) له؛ فعزم على إسقاطه وخلع خليفته. وكان

(١) هو أبو ولادة الأدبية صاحبة ابن زيدون.

الجند قد ثاروا لتأخير رواتبهم، وفي الثورة قتل الوزير الحكم بن سعيد، ونهب القصر، واعتصم هشام الثالث بأحد الأبراج، واجتمع مجلس الكبراء في قرطبة بزعامة (ابن جهور) يبحث تلك الأحداث، وأخيرا استقر الرأي على للتخلص من بنى أمية وإجلالهم عن قرطبة، وإلغاء الخلافة نهائياً، وأن يتحول الحكم إلى شورى بأيدي الوزراء وصفوة الزعماء، أو من أسماهم ابن حزم "بالجماعة"، ثم ركبوا وحولهم حراسهم ومواليهم، واتجهوا إلى القصر، وناشدوا الثائرين بالكف عن أعمال العنف، فرضخوا لهم. ثم نادوا هشاماً الثالث، ووعده بالأمان إن تنازل عن الخلافة، فتنازل وسُجن، وأُعلن إنهاء الخلافة، وآل الحكم إلى مجلس الكبراء الذي يرأسه ابن جهور، وانتهت فترة الفتنة (سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣١م). وبدأ عصر جديد من عصور الأندلس هو عصر "الطوائف".

الخصائص العامة لفترة الفتنة في قرطبة (٤٠٠-٤٢٢هـ) (١).

١- ومن البديهي أن مجتمعاً يعيش في مثل تلك الظروف القاسية، يكون مجتمعاً مضطرباً قلقاً، منهار القيم مفعماً بالمرارة. وهكذا كان المجتمع الأندلسي أيام الفتنة المبيدة، وخاصة المجتمع القرطبي، حيث كثر تتابع الحكام أمويين وبربر، وحيث تعدد انسحاب جيش منهزم ليندخل آخر منتصر، وحيث شاع التدمير والسلب وكل أعمال العنف التي شملت (الزاهرة) و(الزهراء) و(قرطبة) جميعاً.

٢- ومن البديهي كذلك أن تعطل أمثال تلك الأحداث القاسية كل نشاط صناعي، وتعرق كل رخاء تجاري، وتوقف كل نماء زراعي وأن تسبب المجاعات وتنتشر الأوبئة وتشيع الكوارث (٢).

٣- ضَعَفَ الدين في قلوب الناس، وخُفَّتْ صوت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى ((بلغ من استخفاف أهل قرطبة بالإسلام - والقتال هو ابن عذارى في البيان المغرب - أن رجلاً نصرانياً وقف في أعظم شوارع قرطبة فنال من شخص النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يكلمه أحد منهم بكلمة. فقال رجلاً من المسلمين غيرة للنبي: ألا تتكرون ما تسمعون، أما أنتم مسلمون؟. فقال له جماعة من أهل قرطبة امض لشغاك.

(١) راجع الأديب الأندلسي للنكتور هيكل ص ٣٤٨ وما بعدها.

(٢) انظر: الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ٣٠، ٣١، ٧٩، ٨٠، ٨١، وانظر: البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٦٢ - ٦٤، ١٠١ - ١١٥. وانظر أيضاً: طوق الحمامة لابن حزم ص ١١٦، فهو يحدثنا عن أخ له مات بالطاعون الواقع في قرطبة سنة ٤٠١ هـ.

وكان الإفرنج إذا سمعوا الأذان للصلاة يقولون قولاً لا ينكر، فلا يعترض عليهم أحد بشئ. وجمع أهل قرطبة ما لا كثيراً للإفرنج، وسألوا القاضي (ابن ذكوان) أن يدفع إليهم مال الأعباس (الوقف) المودع في مقصورة الجامع، فامتنع عليهم، فسروا باب المقصورة وأخذوه ودفعوه إلى الإفرنج^(١).

٤- وكان من نتائج أحداث فترة الفتنة أن تعطل النشاط الثقافي، وخاصة في قرطبة مسرح المأساة؛ فقد أغلقت المدارس، وانفصلت حلقات الدرس^(٢) وقتل بعض العلماء^(٣)، وهاجر البعض إلى حيث يلتمس شيئاً من الأمن^(٤). على أن ذلك لم يخدم أنفاس الثقافة الأندلسية في ذلك الحين؛ فقد كانت هناك بقية من العلماء الأندلسيين الذين أدركوا الازدهار في فترة الخلافة (فترة الناصر والمستنصر) أو انتفعوا بقوة الدفع في فترة الحجابة، فحفظوا للأندلس كثيراً من علمها وتراثها رغم ما كان من فتنة مبيدة^(٥)، كما كان هناك بعض الأساتذة ممن وفدوا على الأندلس من أقطار إسلامية أخرى، وكان لهم في الأندلس حينذاك جهاد علمي مشكور^(٦). كذلك كان في بعض الأقاليم الأندلسية البعيدة عن مركز الفتنة حظ من النشاط العلمي، بقدر ما أتيج لتلك الأقاليم من الاستقرار والهدوء. وقد كان شرق الأندلس من تلك الأقاليم التي نعمت ببعض الأمن، فعرفت بعض المدن هناك في تلك الآونة بحياة علمية على شئ من الخصوبة.

وقد كان ممن خرجتهم فترة الفتنة برغم ما بها من أحداث وأهوال، عالمان جليلان لهما مكانهما في الصف الأول بين علماء الأندلس، ولهما كذلك منزلتهما بين الأدباء. هذان العالمان هما: أبو محمد بن حزم (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٣م)، وأبو مروان بن حيان (ت ٤٦٩هـ/١٠٧٦م).

-
- (١) البيان المغرب ٩٧/٣-٩٨ (حوادث سنة ٤٠٠ هـ).
(٢) انظر: الذخيرة القسم الأول، المجلد الأول ص ٣١.
(٣) منهم ابن الفرضي صاحب تاريخ علماء الأندلس، الذي قتل ضمن من قتل أيام اقتحام البربر لقرطبة سنة ٤٠٣ هـ...
(٤) مثل ابن حزم الذي ارتحل إلى شاطبة حيث ألف أعظم كتبه (وسيتي الكلام عنه بعد قليل).
(٥) من هذه البقية الصالحة من علماء الأندلس: أبو عمر أحمد بن محمد بن الجسور، وكان أحد شيوخ الحديث (انظر: بغية الملتزم للضبي ص ١٤٣) وأبو محمد عبد الله بن يوسف الرهوني القرطبي (ت ٤٣٥ هـ)، وكان مؤدياً محدثاً مجوداً للقرآن (انظر الصلة لابن بشكوال ص ٢٧٠).
(٦) ألمع العلماء الوافدين على الأندلس في تلك الآونة: أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أبي يزيد المصري (ت ٤١٠ هـ)، وكان أدبياً نساباً حافظاً للحديث عالماً بالأخبار. (انظر الصلة لابن بشكوال ص ٣٥٣-٣٥٤).

أ- أما ابن حزم فهو محمد بن علي بن أحمد بن سعيد بن حزم^(١)، ويلقب بالقرطبي نسبة إلى موطن ولادته ونشأته، كما يلقب بالظاهري نسبة إلى المذهب الفقهي الذي اشتهر به.

- وقد وضع ابن حزم كثيرا من المؤلفات في فنون مختلفة، ولو بقيت كلها لكان لها وحدها أكبر مكان في المكتبة الأندلسية؛ ففي الفقه والأصول ألف ابن حزم عدة كتب أهمها كتاب "الإبطال" الذي بسط فيه أبو محمد دوافع المذهب للظاهري. وله أيضا كتاب "المحلى" الذي جمع فيه آراءه ومذهبه الظاهري مقارنة إياه بالمذاهب الأخرى.

وفي تاريخ الأديان خلف كتابه المشهور "الفصل في الملل والأهواء والنحل". وهو كتاب حافل بما فيه من تاريخ نقدي للأديان والفرق والمذاهب على اختلافها. وفي التاريخ خلف ابن حزم عدة رسائل وكتب. ومن ذلك: كتاب "جمهرة أنساب العرب" و"نقط العروس" تحدث فيه عن تاريخ بني أمية في الأندلس.

وله أيضا رسالته المشهورة في "بيان فضل الأندلس وذكر علمائه"، والرسالة تعتبر ثبوتا لما ألف الأندلسيون في مختلف العلوم، ولمن بلغ منهم في شتى الفنون حتى أيلم ابن حزم، وله في الفكر السياسي كتاب "الإمامة والخلافة" أو الرسالة اللازمة لأولى الأمور وأما مؤلفاته الأدبية فأهمها جميعا كتاب "طوق الحمامة".

ب- وأما ابن حَيَّان فهو أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان^(٢)، عمدة المؤرخين الأندلسيين يتصل نسبه بجدة كان مولى لعبد الرحمن بن معاوية مؤسس الدولة الأموية في الأندلس. وكان أبوه من كتاب المنصور بن أبي عامر، ومن المعروفين بالعلم والأدب في فترة الحجابة.

(١) اقرأ سيرته وبعض أخباره في: النخيرة لابن بسام القسم الأول المجلد الأول ص ١٤٠ وما بعدها، وفي جذوة المقتبس للحميدى (ترجمة رقم ٧٠٨)، وفي بغية الملتبس للضبي (ترجمة رقم ١٢٠٤)، وفي الصلة لابن بشكوال ص ٤١٥-٤١٧، وفي معجم الأدياء لياقوت ج ١٢ ص ٢٣٥ وما بعدها، وفي وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٤٢٨ وما بعدها وراجع عن دور ابن حزم في علوم الفقه والتاريخ والفكر الإسلامي - راجع رسالة الدكتوراه (من تأليفنا - مذكورة من قبل) المجلد الثاني ص ٧٥٠-٧٥٥، ص ٨٤٦-٨٤٨.

(٢) انظر ترجمته وبعض أخباره وآثاره في: الصلة لابن بشكوال ص ١٥٣-١٥٤، وفي: جذوة المقتبس للحميدى (رقم ٣٩٧). وفي: بغية الملتبس للضبي ص ٢٧٥. وفي: / للنخيرة لابن بسام القسم الأول المجلد الثاني ص ٥٧٣-٦٠٢ وما بعدها. وفي: المغرب في حلى المغرب لابن سعيد ج ١ ص ١١٧. وفيات الأعيان ٢١٨/٢-٢١٩.

وقد ولد ابن حيان بقرطبة سنة ٣٧٧هـ، ونشأ في بيت علم وأدب، ودرس على أبيه خلف بن حسين، وعلى غيره من علماء العصر حتى نضجت ثقافته. ويبدو أنه كان يؤثر الأدب والتاريخ على غيرهما من فروع الثقافة.

وقد تقلد ابن حيان بعض المناصب الإدارية والفنية، فكان صاحب الشرطة، أو صاحب المدينة في قرطبة حيناً، كما عمل في ديوان الإنشاء لبعض رؤسائها حيناً آخر. ولكن نشاطه الأكبر كان منصرفاً إلى كتابة التاريخ. وألف فيه عدداً من الكتب، ضاع أكثرها وبقي أقلها. ومن الكتب التي صحت نسبتها إليه كتاب "المآثر العامرية" وهو في تاريخ الدولة العامرية في الأندلس، وكتاب "تاريخ فقهاء قرطبة"، وكتاب "المقتبس في تاريخ الأندلس"، وكتاب "المتين". ولم يبق من هذه الكتب جميعاً إلا أجزاء من "المقتبس"، وقرات من "المتين".

ويقع "المقتبس" في عشرة أجزاء، ويتناول تاريخ الأندلس من أيام فتحها إلى زمن المؤلف، أما "المتين" فقد كان يقع في ستين مجلداً، ولذا سمي "بالتاريخ الكبير"، وكل ما حفظ من هذا التاريخ الكبير فقرات رواها بعض المؤرخين الذين اتوا بعد ابن حيان وأفادوا من كتبه، كابن بسلام وابن الخطيب والمقرئ.

والذي يمكن استنباطه مما بقي من تراث ابن حيان، أنه كان مؤرخاً واسع المعرفة دقيق الرواية نافذ البصيرة، كما كان يميل إلى التحليل والتعليل والنقد فيما يعرض من أخبار؛ فقد كان له رأي - غالباً - في الأحداث والأشخاص، وكان هذا الرأي على كثير من الانفعال والحدة، بل على كثير من القسوة في كثير من الأحيان. وإذا ذكرنا الظروف القاسية التي عاش فيها ابن حيان أيام الفتنة عرفنا سبب انفعاله وحدته وقسوته في حكمه على العصر^(١).

(١) للأستاذ الدكتور محمود على مكي دراسة مستفيضة قدم بها تحقيقه لقطعة من كتاب المقتبس لابن حيان وهي من أحسن ما كتب عن منهج ابن حيان في كتابة التاريخ وحياته العلمية والوظيفية

الفصل الخامس

عصر ملوك الطوائف

(٤٢٢-٤٨٤هـ/١٠٠٩-١٠٩١م)

دول ملوك الطوائف

نتج عن سقوط الدولة الأموية، أن انقسمت الأندلس إلى دويلات صغيرة متنازعة، واستقل كل أمير بناحيته، وأعلن نفسه ملكاً عليها فدخلت البلاد بذلك في عصر جديد هو (عصر ملوك الطوائف)، ويسمى أيضاً (عصر الفرق). ويشير ابن سعيد المغربي إلى أن بعض هؤلاء الملوك خطب للخلفاء الأمويين وإن لم يبق لهم خلافة وأن بعضاً آخر خطب للخلفاء العباسيين المجمع على إمامتهم^(١).

ولقد انضوت هذه الدويلات الطائفية تحت لواء ثلاثة أحزاب كبيرة عمل كل منها على بسط سلطانه على الأندلس:

الحزب الأول: ويمثله أهل الأندلس، وهم أهل البلاد الذين استقروا فيها من قديم والذين تأسبنوا أو انصهروا في البوتقة الإسبانية بمرور الزمن وصاروا أندلسيين، بغض النظر عن أصلهم العربي أو المغربي أو الصقلي أو الإسباني المسيحي. وقد عرف هؤلاء بأهل الجماعة.

وكان من زعمائهم "بنو عياد اللخميون" في (إشبيلية) و"بنو جهور" في (قرطبة) و"بنو هود الجذاميون" في (الثغر الأعلى) سرقسطة، و"بنو صمادح" أو "بنو تجيب" في (المرية)، وبنو "برزال" في (قَرْمُونَة)، و"بنو خزررون" في (أركش)، و"بنو نوح" في (مُورُور) وعبد العزيز بن أبي عامر في (بَلَنَسِيَة)... الخ.

أما الحزب الثاني: ويمثله المغاربة أو البربر الحديثو العهد بالأندلس، ولا سيما الصنهاجة الذين استقروا بها في أيام المنصور بن أبي عامر. ومن زعماء هذا الحزب "بنو زيري" الصنهاجيون في (غرناطة) وهم فرع من بنى زيري حكام الدولة الزيرية في إفريقية على عهد الفاطميين، وكذلك بنو حمود الأدارسة الحسنيون العلويون، وهم من سلالة الأمير أبي حفص عمر بن إدريس الثاني الذي كان يحكم بلاد (غمارة) في شمال المغرب على شاطئ البحر المتوسط.

(١) راجع: المقرئ: نفح الطيب ج ١ ص ٢١٣.

وفى خلال الفتنة التى عمت بالأندلس عقب سقوط الخلافة الأموية انتهز أمير من سلالة الأمير أبى حفص عمر وهو "على بن حمود" وكان واليا على (طنجة) و(سبتة)، فاستولى على (مالقة) ثم تقدم إلى (قرطبة) وقتل صاحبها الخليفة الأموى سليمان بن الحكم ابن سليمان بن عبد الرحمن "الملقب بالمستعين" وذلك فى (سنة ٤٠٧هـ) وأسّس دولة الحموديين التى كانت قاعدتها (مالقة) وقد ذكرنا ذلك من قبل فى سياق الحديث عن الفتنة التى أدت إلى سقوط الخلافة الأموية^(١). ويلاحظ أن هؤلاء الحموديين كانوا بحكم استقرارهم بين البربر فى المغرب مدة طويلة قد صاروا منهم يتكلمون بلسانهم البربرى.

أما الحزب الثالث: يمثله كبار الصقالبة الذين استقلوا بشرق الأندلس. وقد شارك هؤلاء الصقالبة^(٢) فى المؤامرات التى قامت فى قرطبة وسائر البلاد وترغمهم (خيران العامرى) رئيس حزب الصقالبة فى العاصمة. وبعد سقوط الدولة الأموية، تكونت من هذا الحزب الدويلات الإسلامية الصغيرة التى قامت فى شرق الأندلس، والتى كانت تجمعها رابطة تحالف وتسمى بالدولة العامرية الصقالبية، لأن أصحابها كانوا من ممالك المنصور ابن أبى عامر وأبنائه، ومن كبار زعماء الصقالبة الذين برزوا فى هذه المنطقة نذكر (مجاهد العامرى) الذى استقل بدانية ثم استولى على الجزر الشرقية (البليار) وغزا جزيرة (سردانية) وسواحل "إيطاليا" وسيطرت أساطيله على غربى حوض البحر المتوسط^(٣).

ولقد حاول كل فريق من هذه الأحزاب السابقة أن يحيط ملكه بسياج شرعى روحى ليستمد منه سلطانه وذلك بإقامة خليفة بجواره.

قبنو عباد باعتبارهم أقوى ملوك الحزب الأول، جامعوا بشخص فقير يسمى "خلف الحصرى" كان يعمل حصريا فى مصنع للحلفاء، وكان شديد الشبه بالخليفة الأموى "هشام المؤيد" المشكوك فى موته، فأقاموه خليفة على أنه هشام صاحب الجماعة وموهوا به على الناس زمنا إلى أن أظهر موته المعتضد بن عباد ونعاه إلى رعيته سنة (٤٥٥هـ) واستظهر بعهد عهده له الخليفة هشام المزعوم بأنه الأمير بعده على جزيرة الأنندلس^(٤).

(١) راجع عن ذلك (ص ١٢٧).

(٢) راجع حديثا عن الصقالبة فى مبحث عناصر السكان (ص ٣٤-٣٥).

(٣) أحمد مختار العبادى: الصقالبة فى إسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعبية (مريد ص ١٩٥٣).

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام (القسم الخاص بالأنندلس) ص ١٧٩-١٨٠، عبد الواحد المراكشى: المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٩٦ (نشر سعيد العريان ومحمد العربى العلمى).

أما الحزب المغربي في الأندلس: فقد تزعمته خلافة بنى حمود مستندة إلى أصلها العلوي الشريف. ولا شك أن تاريخ الأدارسة الطويل بالمغرب قد أكسبهم زعامة روحية بين المغاربة حتى صار الخليفة الحمودي يعرف بصاحب البربر، وهو يقابل صاحب الجماعة في الحزب الأول. على أن نفوذ بنى حمود في الأندلس وإن كان قد امتد إلى قرطبة فترة قصيرة من الوقت، إلا أنه كان قاصراً على منطقة (مالقة) و(الجزيرة الخضراء) أي في الجزء الجنوبي من الأندلس المجاور لمملكاتهم في شمال المغرب ولم يلبث بنو حمود أن انقسموا على أنفسهم، وصار كل واحد فيهم يدعى الخلافة لنفسه ويلقب نفسه بلقب "خليفة" مثل المهدي والعالى والمستعلى والسامى والمتأيد^(١).

ولم يلبث نفوذ بنى حمود أن انتهى في الأندلس بأن استولى بنو زيرى ملوك غرناطة على (مالقة)، كما استولى بنو عباد على (الجزيرة الخضراء) فانتهى بذلك ملك الحموديين الذين عادوا ثانية إلى مقرهم الأصلي في العدة المغربية.

أما الفريق الثالث وهو الحزب الصقلبي، فقد حاول بعض ملوكه كذلك إحياء الخلافة في مملكته، ونذكر على سبيل المثال (أبا الجيش مجاهد العامري الصقلبي) الذى أقام في مملكته بدائية والجزر الشرقية من مملكته، خليفة قرشياً من أشراف قرطبة ينتسب إلى الأمويين وهو الفقيه أبو عبد الله بن الوليد المعيطى، ولقبه بالمنتصر بالله، وأثبت اسمه في سكتة (أى فى العملة)، وأعلامه سنة (٤٠٥هـ). ولكنه سرعان ما عزله وطرده من مملكته عندما علم بأنه قد تأمر ضده أثناء غيابه فى غزو جزيرة (سردانيا). وقد لجأ المعيطى إلى مدينة (بجاية) بالمغرب الأوسط حيث اشتغل معلماً لصبيان البربر إلى أن مات سنة (٤٣٢هـ)^(٢).

وهكذا نجد أن الخلافة فى الأندلس قد تعددت بتعدد ملوك الطوائف واصطدمت مصالحها بقرب المسافات بينها، وهذا يعتبر مظهراً من مظاهر الفوضى وعاملاً من عوامل الفتنة فى تلك الفترة. وعلى الرغم من أن أئمة المسلمين كانوا قد أجازوا تعدد الخلافة للضرورة والمصلحة وهى اتساع رقعة الإسلام وتباعد أطرافه وصعوبة المواصلات فيه، إلا أنهم اشتراطوا فى ذلك وجود مسافة كبيرة بين الخليفة والآخر منعاً للتصادم والتشاحن، ولحماية المسلمين من شرور الفتنة، ولكننا نرى أن الأندلس فى هذه

(١) عبد الواحد المراكشى: المعجب ص ٦٣-٦٨، ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٤٩.

(٢) راجع: ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ٢٢٠ أحمد مختار العبادى: الصقلية فى إسبانيا (منريد ١٥٣).

الفترة قد خرجت عن هذا الأصل الشرعى لأنها أجازت العقد لخلفاء عديدين فى صقع متضايق الأقطار، فتكبدت بذلك وزر هذا العمل من فتنة واضطراب، ولعل خير تعقيب على ذلك قول أبى محمد ابن حزم فى هذا الصدد : «اجتمع عندنا بالأندلس فى صقع واحد خلفاء أربعة كل واحد منهم يخطب له بالخلافة بموضعه، وتلك فضيحة لم يرى مثلاً، أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام كلهم يتسمى بالخلافة وإمارة المؤمنين وهو: خلف الحصرى بإشبيلية (على أنه هشام) من بعد اثنتين وعشرين سنة من موت هشام وشهد له خصيان ونسوان، وخطب له على منابر الأندلس وسفكت الدماء من أجله. ومحمد بن القاسم خليفة بالجزيرة الخضراء، ومحمد بن إدريس خليفة لمالقة. وإدريس بن يحيى بن على ببشتر»^(١).

ومن الغريب أن معظم هؤلاء الملوك الطائفيين قد عمدوا إلى تقليد الخلفاء العباسيين والفاطميين فى حياتهم وفى ألقابهم ونعرتهم الخلافة، وفى ذلك يقول الشاعر أبو الحسن بن رشيق القيروانى :

مما يُزهدنى فى أرض أندلسٍ أسماءٌ مُعتمدٍ فيها ومعتضدٍ
ألقاب مملكة فى غير موضعها كالهَرَّ يحكى انتقالاً صورة الأسدِ^(٢)

علاقة الممالك النصرانية بملوك الطوائف:

وبينما كانت الأندلس تعاني من هذا الضعف السياسى والاجتماعى تحت حكم ملوك الطوائف، إذا بدول إسبانيا المسيحية فى الشمال تعمل على توحيد قواها بمساندة فرنسا والبابوية. وتجدر الملاحظة هنا أن الخلافة الأموية فى الأندلس كانت طوال عهدها بمثابة الحاجز المنيع الذى يسد أبواب (جبال البرتات) فى وجه أى تدخل أوروبى يأتيها من هذه النواحي الشمالية. فلما زالت الدولة الأموية، زال هذا الحاجز، وأخذ النفوذ الفرنسى بشتى صوره وأشكاله السياسية والثقافية والدينية يتغلغل فى شمال إسبانيا باعثاً فيها روحاً صليبية جديدة ضد المسلمين.

ومن تقدير الله عز وجل فى ذلك الوقت أنه كان يحكم إسبانيا المسيحية رجل واسع الطموح والأطماع، وهو الملك ألفونسو السادس ملك (قشتالة) الذى نجح فى توحيد مملكتى (قشتالة) و(ليون) وبسط نفوذه على الممالك الإسبانية الشمالية ثم توج مجده

(١) أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ١٤٢-١٤٣.

(٢) المقرئ: نفع الطيب ج ١ ص ٢١٤ ابن الخطيب: المرجع السابق ص ١٤٤.

الحربى باحتلال (طليطلة) قاعدة الثغر الأدنى للمسلمين (سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م)، رغم تميزها بموقع مرتفع يصعب على المرء ارتقاؤه، ولكن سياسة الضعف التي أتبعها أميرها يحيى (القادر) بن ذى النون قد عجلت بسقوطها^(١). ولم يلبث خط وادى نهر التاجو بما فيه من مدن وقرى وضياح أن انهار بانهييار قاعدته الرئيسية، إذ كانت مملكة (طليطلة) تحتل رقعة شاسعة فى قلب الأندلس على طول وادى التاجو من الشرق إلى الغرب، ومن أهم أعمالها مدينة (سالم) و(وادى الحجارة) و(مجريط) و(قونكة) و(قليش) و(طلبيرة) وغيرها، وتتوسط هذه المساحة الشاسعة العاصمة طليطلة على ربوة مرتفعة. ونظراً لمتاخمة حدود هذه المملكة بالحدود الإسبانية، فقد اعتبرها المسلمون ثغراً أدنى للدولة الإسلامية الأندلسية على اعتبار أن مملكة سرقسطة التى تقع فى شمالها على وادى الإبرو هى الثغر الأعلى، ولهذا كان سقوط مدينة طليطلة فى يد الإسبان كارثة كبرى للإسلام فى الأندلس، إذ احتل العدو هذه الأراضي الشاسعة التى امتدت جنوباً حتى جبال قرطبة، وقد أطلق الإسبان على هذه المنطقة الجديدة المحتلة اسم (قشتالة الجديدة) وبذلك تمزقت بلاد المسلمين وانشطرت إلى قسمين. وقد عبر عن ذلك أصدق تعبير الشاعر الطليطلى أبو محمد عبد الله بن فرج بن عزنون اليحصبي المعروف بابن العسال بقوله:

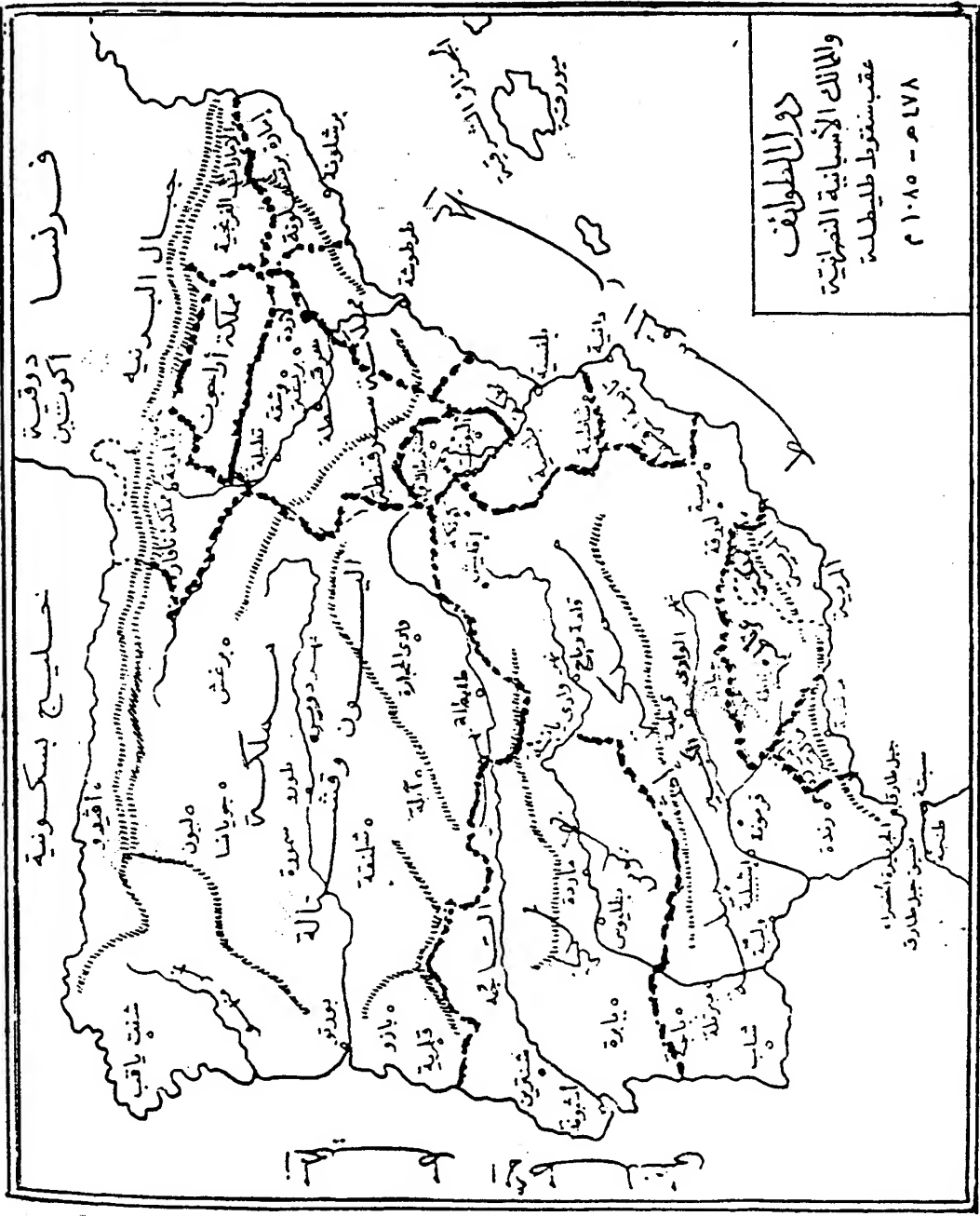
شُتُّوا رَواحِكُمْ يَا أَهْلَ أُنْدَلُسٍ فَمَا الْمَقَامُ بِهَا إِلَّا مِنَ الْغَلَطِ
الثَّوبُ يَنْسِلُ مِنْ أَطْرَافِهِ وَأَرَى ثَوْبَ الْجَزِيرَةِ مَنْسُولٌ مِنَ الْوَسْطِ^(٢)

ولم يحاول الملك ألفونسو السادس وهو فى نشوة النصر أن يستمع إلى نصائح مستشاريه المستعربين الذين كانوا يؤمنون بالحضارة الأندلسية، ويرون فى الأندلسيين جيراناً لهم وحاولوا إقناعه بضرورة اتباع سياسة متسامحة تقوم على التعايش السلمى مع جيرانهم، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل، وأخذ الملك ألفونسو السادس فى الوقت نفسه يستجيب لآراء مستشاريه الفرنسيين الذين حلوا فى بلاده وآنقاد لسياستهم التى كانت تهدف إلى القضاء على المسلمين فى جميع شبه جزيرة إيبيريا، وآنقاد الملك ألفونسو السادس لسياسة هذا الفريق الفرنسى، فسارع بجيوشه نحو مدينة (سَرَقُسْطَة) قاعدة الثغر الأعلى للمسلمين وحاصرها بغية الاستيلاء عليها، وفى الوقت نفسه أخذ يضرب ملوك الطوائف بعضهم ببعض، ويغير على أراضيهم ويطلبهم بالأموال كى يضعفهم حربياً واقتصادياً،

(١) راجع عن سقوط طليطلة : أعمال الأعلام ص ١٨١.

(٢) راجع ابن خلكان: وفیات الأعيان ج ٤ ص ١١٨.

١٧٨٩ - ١٨٠١ م
عقب سنقولا طليطلة
والملك الأسبانية النضرية
دور الطولوف



وبلغت الحالة فى الأندلس فى ذلك الوقت أقصى درجات الضعف والفساد حتى خيل لبعض الأندلسيين أن العالم على وشك الزوال وأن الزمان على آخره^(١).

الملاحح العامة لعصر الطوائف:

(١) إن أهم خاصية يمكن أن يوصف بها عصر ملوك الطوائف من الناحية السياسية والاجتماعية - وهو عصر فياض بالأحداث والمحن الكثيرة - أنه عصر تفكك وإنحلال سياسى واجتماعى شامل بالرغم مما كان يبدو فى بعض فى ناحيه من جوانب براقة. وقد صدر للمؤرخ الكبير والفقير الأندلسى الظاهرى ابن حزم (المتوفى ٤٥٦هـ - ١٠٦٣م) - وهو شاهد على العصر - صدر له عن فتنة الطوائف ودولها وأمرائها المستهترين ومجتمعها المفكك طائفة من الأقوال والأحكام الصادقة، وردت فى رسالته (التلخيص لوجوه التخليص)، وهى عبارة عن ردود على بعض أسئلة فى شؤون دينية وفقهية وجهت إليه، ومنها سؤال يتعلق بالفتنة، وتتضمن أقواله من النظرات الثاقبة والأحكام القاطعة ما يدين مجتمع الطوائف بشدة، وهى مع سلامة منطقها وعدالتها مما يبعث فى النفس أشد أنواع الأسى - ونقتبس من هذه الرسالة قوله الذى يصف فيه فتنة الطوائف وتصرفات ملوكها: ((وأما ما سألتكم من أمر هذه الفتنة، وملابسة الناس بها، مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض، فهذا أمر امتحنا به، نسأل الله السلامة، وهى فتنة سوء، أهلك الأديان - إلا من وفى الله تعالى - من وجوه كثيرة يطول لها الخطاب. وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن فى شئ من أندلسنا هذه - أولها عن آخرها، محارب لله تعالى ورسوله، وساع فى الأرض بفساد. والذى ترونه عياناً من شتمهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التى تكون فى ملك من ضارهم، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التى يقضون على أهلها، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين، مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين فى أخذ الجزية، والضرية من أهل الإسلام، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله، غرضهم فيها استدامة نفاذ أمرهم ونهيبهم، فلا تغالطوا أنفسكم، ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع، المزيفون لأهل الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم))^(٢).

(١) راجع العبادى: فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٧٥-٢٨٤.

(٢) مجموعة رسائل لابن حزم بعنوان "الرد على ابن النغيلة اليهودى ورسائل أخرى" (ط القاهرة ١٩٦٠) ص ١٣٩. وراجع: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس (بول الطوائف) ٤١٨/٣ - ٤٢٠.

(٢) ومن السمات التي اتسم بها عصر ملوك الطوائف أن هذه التجمعات أو "الدويلات" لم تسترشد (في أغلب أحوالها) - سواء في علاقات ببعضها البعض أو في علاقاتها مع رعاياها - بسياسة إسلامية تقوم على رفع شأن الإسلام وتوسيع نفوذه، ومحاربة الممالك المسيحية في الشمال، والتضحية بالأهداف الثانوية تجاه هذا الهدف السامي الذي عاش له أمراء وخلفاء بني أمية. كما أن ملوك الطوائف لم يقيموا سياستهم على أساس التعايش بين بعضهم البعض، والاحتفاظ بالأمر الواقع والمحافظة عليه. والذي حدث أن التفاوت بين هذه الممالك - من حيث القوة والضعف، واشتداد الأثرة والأطماع الشخصية، وحب الرياسة عند الجميع واشتداد الخطر النصراني المطل عليهم من الشمال - جعل الدويلات القوية تبطش بالضعيفة، وتجبرها على الانضواء تحت سلطانها، متحالفة أو مقهورة؛ ذلك أنه لم يكن هناك إلا طريقة واحدة بنى عليها ملوك الطوائف سياستهم وهي التوسع على حساب القوى المجاورة بكل الوسائل، سواء كان ذلك عن طريق الحرب أو تدبير الفتن أو المعاهدات.

وكان لطبيعة هذه الطوائف أثر كبير في اتباع تلك السياسة، فهي في الواقع لم تكن دولا بالمعنى المعروف، وإنما كانت أقرب منها إلى وحدات الإقطاع، وإلى عصبية الأسرة القوية أو الجماعة القبلية، ومن ثم لم تكن بها حكومات منظمة بالمعنى الصحيح تكون مهمتها العمل لخير رعاياها وحفظ البلاد من الأخطار التي تهددها، إنما كانت أسرار أو زعامات تعمل قبل كل شيء لمصلحتها الخاصة، ولرفعة شأنها، وتدعيم سلطانها^(١).

(٣) وعلى الرغم من هذه الصورة القائمة سياسياً واجتماعياً فإنه مما يلفت النظر أن تزدهر العلوم، وترتقى الآداب والفنون في عصر ملوك الطوائف؛ لأن كثيراً من هؤلاء الملوك والرؤساء كانوا من العلماء والأدباء والشعراء، وكانت قصورهم مجامع للعلوم والآداب، وكلها تزدهر لا بفخامتها وروعيتها بل بأمرائها ووزرائها وكتابها، وقد بلغ الشعر الأندلسي في زمن ملوك الطوائف شأواً لم يصل إليه في أي عصر آخر. وقد تميزت

(١) راجع: أعمال الأعلام (القسم الأندلسي) ص ١٤٤. وراجع: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية ص ٢٧٤ - ٢٧٥.

قصور ثلاثة بصفة خاصة بمشاركتها في النهضة الأدبية والشعرية، وهى قصور بنى عبّاد بأشبيلية، وبنى الأفطس فى (بطلّوس) وبنى صُمّادِح فى (المرية).

وعرف هذا العصر مجموعة من العلماء الكبار الذين وصلوا إلى القمة من حيث النضج الفكرى والمستوى العلمى ، نذكر منهم:

- الفقيه الظاهرى ابن حزم (المتوفى ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م). وقد أشرنا إليه فى فترة الفتنة التى آلت إلى سقوط الخلافة الأموية، على اعتبار أنه عاش بدايات هذه الفتنة^(١).

- أبو الوليد سليمان بن خلف الباجى (المتوفى ٤٧٤هـ / ١٠٨١م)، وهو من كبار علماء المالكية. له من الكتب: "إحكام الأصول فى أحكام الفصول" و "الحدود فى أصول الفقه"^(٢).

- أبو الحسن على بن اسماعيل المرسى المعروف بابن سيده (بكسر السين) (المتوفى ٤٥٨هـ / ١٠٦٥م). عالم لغوى كبير، ألف كتاب (المُحكّم والمحيط الأعظم)، وهو معجم لغوى ينتمى إلى مدرسة (الخليل بن أحمد الفراهيدى البصرى) فى طريقة تَلْكِيف المعاجم اللغوية^(٣).

- أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبى (المتوفى ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م) العالم الموسوعى الذى صنف كتباً جليلة فى كثير من فروع العلم، منها: (الدرر فى اختصار المغازى والسير) - فى السيرة النبوية - وكتاب "الاستيعاب فى معرفة الأصحاب". وكتب أخرى كثيرة فى الحديث والفقه^(٤).

- الوزير أبو عبيد البكرى (المتوفى ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) أكبر جغرافى أنجبهُ الأندلس، وهو من علماء اللغة والأدب والمعرفة بالأخبار والأنساب والصيدلة والنبات والجغرافيا ومن أشهر كتبه "معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع" وكتاب "المسالك والممالك"^(٥).

(١) وراجع عن ابن حزم رسالة الدكتوراة من تأليفنا، وموضوعها (الجوانب الحضارية فى بغداد وقرطبة فى القرنين الثالث والرابع الهجريين) - القسم الثانى ص ٧٥١-٧٥٣.

(٢) الديباج المذهب لابن فرحون ٣٨٤/١ (طدار النصر ، القاهرة).

(٣) بغية الملتبس للضبى ص ٤١٨، الصلة لابن بشكوال ص ٤١٧-٤١٨، نفح الطيب ع (٢٥-٢٧).

(٤) بغية الملتبس ص ٤٩٠، جذوة المقتبس للحميدى ٥٨٧/٢.

(٥) راجع ما ذكرناه عن هذين الكتّابين فى رسالة الدكتوراة المذكورة (من تأليفنا) ص (٨٥٦-٨٥٨).

- ومن أكابر الفلكيين والرياضيين الذين برزوا فى عصر الطوائف وأفادت أوروبا من بحوثهم: أبو إسحق يحيى النقاش القرطبي المعروف بالزرقالى (المتوفى حدود سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م). يقول عنه المستشرق الإسباني جُنْثَالْت بالنثيا: "إنه يعتبر أعظم أهل الفلك من العرب". وهو الذى صمم الآلة الفلكية التى كانت تعرف باسم "تمودج العبادى" نسبة إلى المعتمد ابن عباد ملك (إشبيلية). وكان الزرقالى قد لجأ إليه بعد سقوط طليطلة. ومن مؤلفاته: (الزيج الطليطلى)، وهو عبارة عن جداول فلكية، وترجم إلى اللاتينية، واتخذ منه علماء أوربا أساساً لإعداد تقاويمهم الفلكية فى القرن السادس عشر الميلادى^(١).

وهناك علماء كثيرون من أهل هذا العصر يطول المقام بذكرهم وجميعهم من الرجال الأفذاذ الذين أثروا الفكر الإسلامى خاصة والفكر الإنسانى عامة، ووصل التأليف العلمى على أيديهم إلى ذروته فى شتى ضروب العلم والمعرفة . وكما ارتقت العلوم والآداب ازدهرت الفنون والصناعات فى عهد ملوك الطوائف، وإذا كان يعرف عن أهل الأندلس اهتمامهم بكل ما يتعلق بتربية الماشية، وفلاحة الأرض ، وتنظيم الري وأحوال الجو، وخواص النباتات وإنشاء الحدائق فإنه ينبغى الإشارة إلى ظهور عدد من علماء النبات والزراعة فى عهد ملوك الطوائف، لاسيما فى طليطلة وأشبيلية، منهم أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن وافد اللخمى (ت ٤٦٧ هـ)، وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم البصّال الذى عاش فى طليطلة إلى أن احتلها ألفونسو السادس سنة (٤٧٨ هـ) فانتقل إلى أشبيلية. وقد صنف كتاب (الفلاحة)، وهو كتاب يمتاز عن سائر المؤلفات الأندلسية فى الزراعة بكونه مبنياً على التجربة والمشاهدة إلى أقصى حد ممكن^(٢).

وكانت الصناعات رائجة خلال عصر الطوائف ، وكان فى (المرية) وحدها خمسة آلاف مصنع تنتج أجمل أنواع الأقمشة وأفخمها، وكانت السفن تآتى من بلاد المشرق ومن الثغور الإيطالية إلى الموانئ الأندلسية فى (إشبيلية) و(المرية) و(بلنسية) و(دانة) و(سرقسطة) تحمل بضائع المشرق، وتعود محملة بما تستورده من السلع الأندلسية، وكانت التجارة الخارجية مصدراً مهماً من مصادر دخل دول الطوائف ذات الثغور.

(١) راجع تفاصيل أخرى فى رسالتنا المذكورة (ص ٨٧٨-٨٨٠).

(٢) جعفر الخياط: ابن البصّال رائد الفن الزراعى الحديث (بحث منشور بمجلة المعهد العلمى العراقى - المجلد

(١٥) (سنة ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م) - ص ٢١٦. وراجع نفع الطيب للمقرئ ١٠٤/٢.

الفصل السادس

الأندلس فى ظل المرابطين

(٤٨٤ - ٥٢٠ هـ / ١٠٢٩ - ١١٣٤ م)

المرابطون فى المغرب:

قام المرابطون فى المغرب الأقصى يدعون إلى تأكيد التمسك بالإسلام. وتجديد جريان الحياة فى تياره وإشباعها بروحه واتخاذها دستوراً شاملاً يحكم حياة الإنسان فى كل أحوالها. وامتدت حركتهم حتى أقامت دولة شملت مناطق كثيرة فى المغرب الكبير، وانضوت الأندلس تحت جناحها، وعمرت دولتهم نحو مائة عام.

ويرجع تأسيس الدعوة والدولة المرابطية إلى قبيلة (لمتونة)؛ إحدى بطون صنهاجة من (البرانس). (واحدة كبرى قبيلتين: البرانس والبتر اللتين يتكون منهما البربر وعموم سكان الشمال الإفريقى). لذا تسمى الدولة المرابطية أيضاً بالدولة "اللمتونية" و"اللمتونيين". ولاتخاذ لمتونة اللثام سُمُو "بالمُلتَمين"، أو "المُلتَمَة". والملثم إشارة لأحد حكامها^(١).

وتعود أولية هذه الدولة إلى يحيى بن إبراهيم الجدالى أمير جدالة (كدالة) شقيقة (المتونة) وبطن أخرى لصنهاجة. وقد توجه يحيى فى جماعة إلى الحج، مستخلفاً ابنه إبراهيم، وعرجوا فى عودتهم على القيروان للاستماع إلى بعض علمائها سنة ٤٤٠ هـ، واتصلوا هناك بأبى عمران موسى الفاسى: موسى بن عيسى بن أبى حاج (٣٦٨-٤٣٠ هـ). شيخ المذهب المالكى^(٢)، وطلبوا منه أن يرسل معهم عالماً بفقهم فى الدين، لانقطاعهم فى الصحراء. فأرسل معهم عبد الله بن ياسين الجزولى (٤٥٠ هـ)^(٣). وصحبهم إلى بلادهم وبدأ يفقه الناس فى دينهم ويعلمهم شريعة ربهم. وقد أقام ابن ياسين رباطاً،

(١) الحلة السيرة لابن الأثير ، ٢/٢٥٠؛ المغرب فى حلى المغرب، ٢/٤٦٧، التكملة لابن الأثير ١/٤٣٩، ٤٤٧.

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، لأبى العباس أحمد الناصرى ، ٢/٦، والبيان المغوب ٣/٢٤٢، ٤/٧-٩ وانظر ترجمة موسى بن عيسى بن أبى حاج فى الصلة ، ٦١١-٦١٢ (رقم: ١٣٣٧)؛ ترتيب المدارك للقاضى عياض ٣/٧٥٢.

(٣) المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس لابن أبى دينار ص ١٠٤ - ١٠٥، ترتيب المدارك ٣/٧٨٠-٧٨٢.

والتف حوله جماعة انقادت له، مستوعبة هذا الفهم ومخلصة له ، وبلغ عددهم حوالى ألف رجل فأطلق عليهم اسم "المرابطون" . وكان ممن التف حول عبد الله بن ياسين زعيم قبيلة "لمتونة" يحيى بن عمر بن إبراهيم ، الذى توفى سنة (٤٤٦ هـ أو ٤٤٧ هـ)^(١) فخلفه أخوه أبو بكر بن عمر فى السنة الثانية. وكان - كأخيه - مثال الإخلاص والتضحية.

وحين بدأت العقبات فى وجه هذه الدعوة ، دافعوا عنها فى وجه كل من وقف فى طريقها يهددها. وانطلق من رباط ابن ياسين تيارها قوياً، ثم أقاموا تلك الدولة^(٢). وشرع أبو بكر بن عمر فى إنشاء قاعدة سياسية وعسكرية للدولة الجديدة، فبنى مدينة "مراكش" (سنة ٤٦١ هـ/ ١٠٦٩ م) وفى أثناء ذلك حدث خلاف بين بعض قبائل صنهاجة (بين لمتونة وجدالة) (سنة ٤٦٣ هـ) أو (٤٥٣ هـ) فدعى أبو بكر عمر من أجل حُسنه، وأوكل الرئاسة وإدارة الدولة خلال غيابه لابن عمه يوسف بن تاشفين. فأدارها بمقدرة ومهارة، الأمر الذى أكسبه مهارة عالية، وعرف كرجل دولة. بجانب شهرته العسكرية التى ظهرت فى المهام التى كلفه أبو بكر بن عمر بها .

وحين عاد أبو بكر بن عمر ورأى حال الدولة وما يتمتع به يوسف من مكانة، وما حازه من توفيق؛ تنازل ليوسف، فقاد الدعوة المرابطية من ذلك الحين، ومكن لها من إنشاء الدولة الكبرى فى المغرب أولاً^(٣)، ثم إنقاذ ما بقى للإسلام فى الأندلس بعد ذلك، واستمر حكمه بين سنتى (٤٦٣-٥٠٠ هـ/ ١٠٧٠-١١٠٦ م)^(٤).

(١) الاستقصا ١٣/٢.

(٢) البيان المغرب ٩/٤-١٧، ٢٠-٢١ ج ٣ ص ٢٤٣، الاستقصا ج ٢ ص ٢١.

(٣) البيان المغرب ٩/٤ وراجع : دول الطوائف ٢٩٩ وبعدها، عصر المرابطين والموحدين ٣٧/١-٣٨ (كلامهما لمحمد عبد الله عنان، التاريخ الأندلسى للحجى ص ٤١٩-٤٢٠).

(٤) حكام المرابطين هم:

١- يحيى بن عمر (٤٤٦ هـ/ ١٠٥٤ م).

٢- أبو بكر بن عمر

٣- يوسف بن تاشفين (٤٦٣ هـ - ٥٠٠ هـ/ ١٠٧٠-١١٠٦ م).

٤- على بن يوسف (٥٠٠ - ٥٣٧ هـ/ ١١٠٦-١١٤٣ م).

٥- تاشفين بن على (٥٣٧-٥٣٩ هـ/ ١١٤٣-١١٤٥ م).

٦- إبراهيم بن تاشفين (٥٤١ هـ/ ١١٤٥ م خلع).

٧- إسحق بن على بن يوسف (٥٤٢ هـ/ ١١٤٦ م) قتله الموحدون.

جهاد المرابطين في الأندلس:

وكانت حال الأندلس في العدو الأخرى تعاني سيطرة ملوك النصارى وسطوتهم واستغاثة ملوك المسلمين بهم، وإرهاق هؤلاء لهم بالجزية وبما يفرضون عليهم، وتعسفهم في مطالبة الولاة المسلمين بما لا طاقة لهم به، وتكليفهم فوق طاقتهم، وعاد هؤلاء الملوك على شعوبهم فأنقلوا كواهلهم وبالغوا في تحميلهم ما لا قدرة لهم عليه ، واحتقر ألفونسو السادس وغيره من ملوك النصارى زعماء وقادة المسلمين، حتى جثوا جميعاً أمامه يستعطفونه ويرجونهم قبول أموالهم وهداياهم، ويصرحون له بأنهم داخل حدود سلطانه، وليسوا إلا جباة أموال لتحصيل الضرائب ودفع الجزية.

وقد أخذ " ألفونسو السادس " يجتاح ويخرب مدنهم ومروجهم ويفتح معاقلمهم ويحطم حصونهم، ويضرب عليهم جميعاً ما يشاء من أموال ويضاعفها فيؤدونها - بلا استثناء - وهم صاغرون، ثم أخذت المدن تتساقط في أيدي النصارى مدينة إثر مدينة^(١).

وإزاء هذا الوضع المتردي فكر الأندلسيون في مخرج، ووجد العلماء أن خير وسيلة هي دعوة المرابطين للعبور إلى بلادهم وتخليصهم من الوضع المرير الذي بلغ القمة ولم يعد يحتمل المزيد^(٢). أما الملوك والأمراء فقد ترددوا أول الأمر، ورأوا في ابن تاشفين مناوئاً خطيراً أكثر منه عوناً ونصيراً، وربما جاء إلى بلادهم فاستقر فيها وطردهم منها ، لكن "ابن عباد" صاحب إشبيلية قطع الشك باليقين قائلاً إنه لا يريد أن تنتهيه الأجيال المقبلة بأنه ترك الأندلس غنيمة في أيدي الكفار وقال: ((ولا أحب أن يلعن اسمي على منابر المسلمين، وعندى أن رعى الجمال خير من رعى الخنازير))^(٣).

وقد أقنع المعتمد بن عباد بوجهة نظره كلا من المتوكل بن الأفطس صاحب (بطلوس) و " عبد الله بن يُلْقِين " صاحب (غرناطة) ، وأرسلوا جميعاً ومعهم العلماء والفقهاء وفداً إلى " يوسف بن تاشفين " يستصرخونه ويطلبون إنقاذهم.

كان من عادة زعيم المرابطين أنه لا يبرم أمراً إلا بعد مشاورة الفقهاء ، وقد أشاروا عليه أن يبدأ بقتال القشتاليين، وأن تُخلى له الجزيرة الخضراء،

(١) راجع أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٢٤٣-٢٤٤.

(٢) راجع : البيان المغرب ١٣٢/٤-١٣٣.

(٣) أعمال الأعلام ص ٢٤٥.

فأمر يوسف بن تاشفين بعض فرسانه فعبروا من مدينة (سبنة) على متن بعض السفن إلى (الجزيرة الخضراء) يقودهم "داود بن عائشة" وكان معهم جيش كثيف من الجنود^(١)، وأرسل المعتمد إلى ابنه حاكم الجزيرة يطلب منه تركها وتيسير مهمة قوات المرابطين، ثم تلاحقت الجنود بالجزيرة، وعبر "يوسف" نفسه، وعنى بتحصين المدينة حتى اطمأن إلى أنها قد أصبحت في حالة حسنة وبها من المؤن والذخائر ما يكفيها، ثم سار في معظم جيشه إلى "إشبيلية"؛ حيث خرج المعتمد للقاءه وأحسن استقباله وقدم له من الهدايا ما يليق بمقامه^(٢).

وقد طلب ابن تاشفين من أمراء الطوائف المشاركة في الجهاد، فلبى الدعوة صاحب (غرناطة) وأخوه صاحب (مالقة)، وقصد الجميع نحو (بطليوس) حيث لقيهم ملكها، وأخذت وفود الرؤساء تتوافد من سائر أقطار الأندلس، وانتظمت القوات الأندلسية وحدة قائمة بذاتها، القيادة فيها لابن عباد واحتلت المقدمة، بينما احتلت الجيوش المرابطية المؤخرة.

موقعة الزلاقة (رجب ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م):

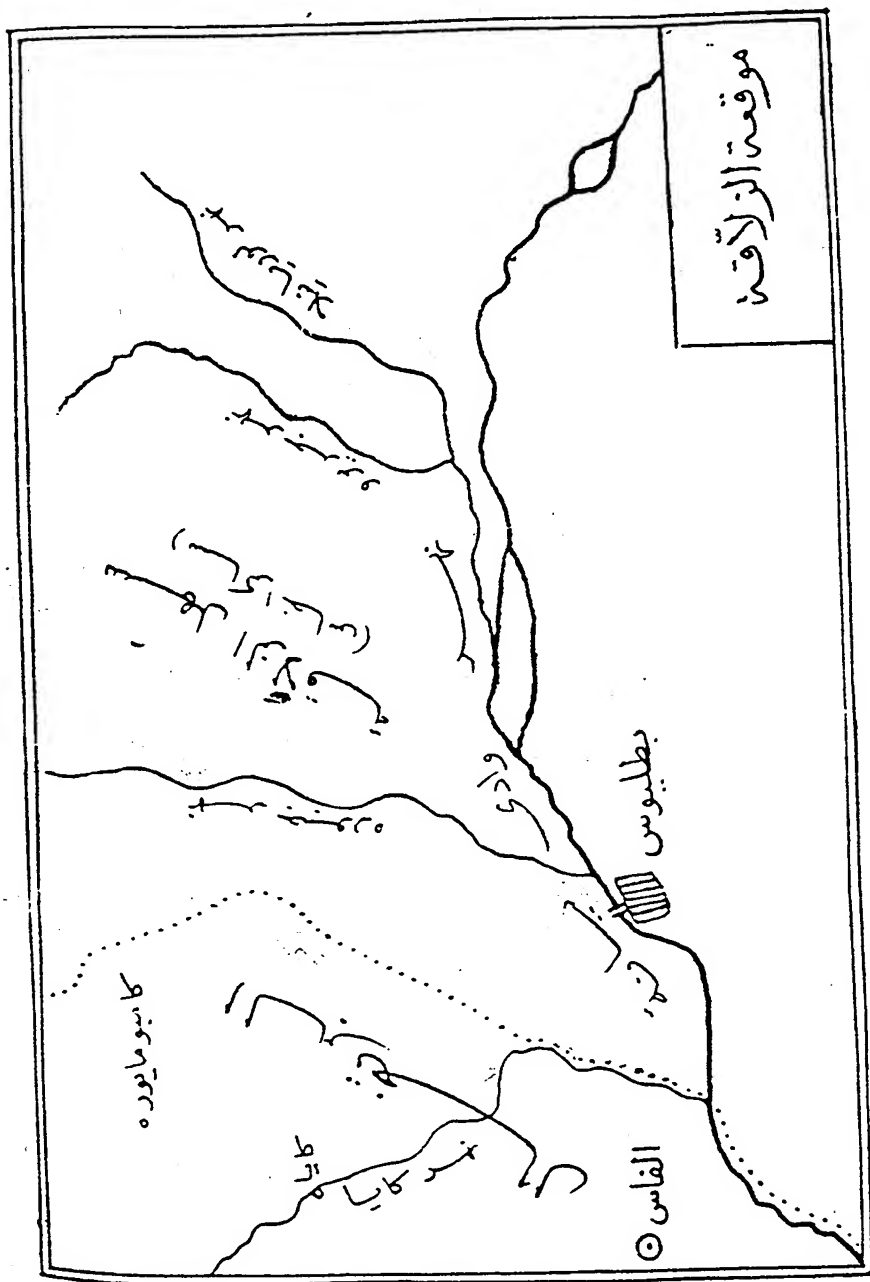
واصلت القوات الإسلامية سيرها حتى نزلت على سهل فسيح يقع إلى الشمال من مدينة (بطليوس) قرب حدود البرتغال الحالية تسميه المصادر العربية بالزلاقة. وحين علم ألفونسو السادس بأخبار هذا الغزو رفع الحصار عن مدينة "سرقسطة"، وأرسل إلى (سانشو) ملك (أرغون) يطلب معونته، واستدعى قواته من "بلنسية"، وجاءه المتطوعون من جنوبي فرنسا وإيطاليا، وتقدم بجيوشه نحو تجمعات المسلمين من المغاربة والأندلسيين، والتقى بهم في "الزلاقة"، وهناك دارت معركة فاصلة بين الفريقين (في ١٢ رجب ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م)، وقد انقضت جموع المرابطين على قوات النصاري فأبادت معظمها، وانتهى ذلك اليوم بنصر حاسم للمسلمين، كانت نتيجته توقف تقدم النصاري وإنقاذ الحكم الإسلامي في الأندلس من سقوط محقق^(٣).

وقد استبشر المسلمون في شبه الجزيرة بهذا النصر العظيم غير أن وصول نبأ وفاة الأمير أبي بكر بن يوسف بن تاشفين كدر صفو النصر، وجعل "ابن تاشفين" يقرر

(١) المصدر نفسه ص ٢٤٦.

(٢) البيان المغرب ٤/ ١٣٣-١٣٤.

(٣) راجع تفاصيل أحداث المعركة في البيان المغرب ج ٤ ص ١٣٤-١٤٠.



مكتبة المجمع العلمي بدمشق



العودة إلى بلاد المغرب ومعه عامة الجند، وترك تحت إمرة المعتمد جيشاً من المرابطين مؤلفاً من ثلاثة آلاف جندي. بعد أن نجح "يوسف" بما حققه من نصر مؤزر فى إعادة روح الثقة والأمل فى نفوس المسلمين بالأندلس^(١).

عودة تاشفين إلى الأندلس وبداية عصر المرابطين بها:

عبر ابن تاشفين مرة أخرى إلى الأندلس فى (رجب ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م)، واتجه نحو حصن يسمى حصن "لاييط" وهناك تبين له تخاذل أمراء الطوائف، فعزلهم جميعاً ووجد الأندلس، ولم يستثن من ذلك إلا إمارة سرقسطة، فقد كان أصحابها محاطين بالنصارى من كل ناحية، وخشى ابن تاشفين أن يسلموها للنصارى إذا تعرض لهم فتركهم بدون تدخل^(٢)، وبهذا العبور الثانى ليوسف بدأ عصر المرابطين فى الأندلس.

وعلى الرغم من قيام المرابطين بمسئولياتهم فى المغربين الأوسط والأقصى فإنه كان من مهامهم الرئيسية الدفاع عن الإسلام فى الأندلس، ففى هذا الميدان جاهدوا وأنفقوا، واستشهد خيرة رجالهم، وعرفوا كيف يثبتون لعدوهم ويوقفون تقدم النصارى، رغم تكتل الأعداء واستعانتهم بملوك غربى أوروبا وبالبابوية.

ومن مواقع المرابطين التى أبلوا فيها بلاء حسناً موقعة "أفليس" شرقى طليطلة، وكان من نتائجها استيلاؤهم على هذه المدينة (سنة ٥٠١هـ/ ١١٠٨م)، وعلى مدينة (طليطلة) للمرة الثانية سنة (٥٠٣هـ/ ١١٠٩م)^(٣). كما تمكنت البحرية المرابطية فى سنة (٥٠٩هـ/ ١١١٥م) من استعادة جزر البليار (الجزر الشرقية)، ولو بقيت هذه الجزر بيد النصارى لأصبحت خطراً يهدد شرق الأندلس كله^(٤).

وهذا لا يعنى أن المرابطين خلت أيامهم من الهزائم، فقد تعرضوا لنكبة عند بلدة (كُتْنَدَة) القريبة من سرقسطة فى (ربيع الأول ٥١٤هـ/ ١١٢٠م)، واستشهد منهم ألوف من بينهم بعض العلماء، بسبب تسرعهم فى الهجوم على العدو قبل أن تنتظم صفوفهم، فاختل

(١) البيان المغرب ١٤٠/٤.

(٢) البيان ١٤١-١٤٢/٤.

(٣) البيان المغرب ٥٢/٤.

(٤) راجع تاريخ البحرية الإسلامية فى حوض البحر المتوسط [ج ٢ / البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس] ص ٢٤٣-٢٤٥ (عصر المرابطين) دولة الإسلام فى الأندلس لمحمد عبد الله عنان ٧٦-٧٧.

نظامهم وكانت الهزيمة^(١). لكنهم حققوا نصراً فى موقعة "إفراغة" جنوبى غربى "لاردة" بالثغر الأعلى فى سنة (٥٢٨هـ/١١٣٤م)، يقودهم واحد من كبار رجالهم هو أبو زكريا يحيى بن غانية والى (بلنسية) و(مرسية) وهو من أعظم قادة المرابطين^(٢)..

وفى الوقت الذى يقوم فيه المرابطون بهذه المجهودات ويحققون أعظم الانتصارات إذ بهم يفاجئون بثورة يقوم بها (المصامدة) بقيادة "محمد بن تومرت" ضدهم فى بلاد المغرب. فكان سبباً فى توقف الجهاد فى الأندلس، وبدأت المدن تتساقط واحدة وراء الأخرى فى أيدي النصارى، بسبب سحب القوات من الأندلس وهى فى أوج انتصاراتها، وشغل المرابطون بالدفاع عن أنفسهم بالمغرب، خاصة بعد وفاة على بن يوسف بن تاشفين ثالث أمرائهم (سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م)، وزاد الموقف سوءاً قيام بعض الأندلسيين بالثورات ضد المرابطين، وزعمهم أنهم أكثر رقباً وأعظم حضارة من هؤلاء الأفارقة^(٣).

نظرة عامة على أوضاع الأندلس فى ظل المرابطين^(٤):

١- حرص الأمراء المرابطون، ورجال دولتهم على مراعاة قيم الإسلام، والقيام بعبء الجهاد فى سبيل الله، ونصرة إخوانهم فى الأندلس. وتحملوا فى سبيل ذلك بذل الكثير من الأرواح والأموال؛ لأنهم كانوا يواجهون أكبر ملوك أوربا فى القرن الخامس الهجرى، مثل: ألفونسو السادس (ملك قشتالة). وألفونسو الأول (ملك أرجون). وإذا كانت دولة المرابطين دينية عسكرية فى المقام الأول، فإنها نجحت فى تنظيم شئون الأندلس، فكان لهم حاكم عام للأندلس، وقادة يديرون المدن الأخرى تحت قيادته. وكانوا يضطلعون بشئون الإدارة والإصلاح، ويتحرون العدل والدقة فى تولية الولاة وعزلهم إذا قصرُوا،

(١) منهم الفقيه القاضى أبو على الصدفى (٤٥٢-٥١٤هـ) وهو من أهل سرقسطة، وسكن مرسية (الصلة لابن بشكوال ص ١٤٤) ومنهم قاضى المرية أبو عبد الله محمد بن يحيى المعروف بابن الفراء (نفع الطيب ٣/١٥٣-١٥٤).

(٢) البيان المغرب ٩١/٤، عصر المرابطين والموحدين لمحمد عبد الله عنان ص ١٢٠، ١٢٤، ٤٠٣، ٤٢٥.

(٣) راجع: المسلمون فى الأندلس، للدكتور عبد الله جمال الدين (موسوعة سفير) ج ٧ ص ٩٨.

(٤) راجع التفاصيل فى (عصر المرابطين وبداية دولة الموحدين) لمحمد عبد الله عنان ص ٤١٠، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس (القسم الأندلسى - د. عبد الفتاح فتحى) ص ٢٩٨-٣٠٠.

وأبقوا على منصب القضاء، وجعلوه مستقلاً يتولاه الأندلسيون، وكان للقضاة وللعلماء منزلتهم لديهم ولدى الناس، وكانت آراؤهم يؤخذ بها، ولها مكانة واعتبار^(١).

٢- تحرير الناس من مظالم الجباية، وتمتع الناس في ظلهم بشئ من الاستقرار والرخاء وقد اهتموا ببناء الأساطيل، وتحصين المدن الأندلسية. وواصلوا الاهتمام بالصناعات الموجودة بالأندلس، مثل: صناعة الملابس (كالخُلل)، وغيرها من السُتور المكّلة، وصناعة الديباج. وكذلك الاهتمام بصناعة الآلات النحاسية والحديدية، وغيرها.

٣- وقد كانت قوة الدفع العلمية من العصور السابقة ساعدت على مضى الحركة العلمية والتأليف في عصر المرابطين. ومن علماء تلك الفترة: ابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ) صاحب كتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة)، وخلف بن عبد الملك المعروف بـ ابن بشكوال (ت ٥٧٨هـ) صاحب كتاب (الصلة). ومن القضاة والفقهاء العلماء: أبو بكر بن العربي المالكي (٤٦٨-٥٤٢هـ) صاحب كتاب (أحكام القرآن)^(٢). والقاضى الفقيه المالكي أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد (٤٥٠-٥٢٠هـ) ألف شرحاً على (المدونة) في الفقه المالكي^(٣). وهناك يحيى بن محمد بن يوسف الأنصارى المعروف بـ (ابن الصيرفي) المتوفى سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م، وكان من أعلام العصر المرابطى في (البلاغة والأدب، والتاريخ) وكان كاتباً، وشاعراً مجيداً، كتب بغرناطة عن الأمير تاشفين ابن على (٥٣٧-٥٣٩هـ). وألف في تاريخ الأندلس في العصر المرابطى كتاب (الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية)، وله كتاب آخر بعنوان: (تقصى الأنباء، وسياسة الرؤساء)، وكلاهما مفقود^(٤). هذا إلى جانب ظهور عدد من الأطباء وعلماء العلوم الأخرى، مثل: على بن عبد الرحمن الخزرجى الطليطلى (ت ٤٩٩هـ)، وكان من أشهر أطباء قرطبة، وعلى علم بطرق العلاج. وكذلك العلامة الفلكى الطبيب صاحب كتاب (الأدوية المفردة) أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت. (٤٦٠-٥٢٩هـ) وهو من أهل (دانية)^(٥). إلى جانب بعض أفراد من أسرة بنى زهر المشهورين بالطب والعلوم الطبيعية، والكيميائية^(٦).

(١) البيان المغرب ٤/٤٦. (٢) له ترجمة في (الصلة) لابن بشكوال ٢/٥٥٨-٥٥٩.

(٣) للصلة ٢/٥٤٦، الديباج المذهب لابن فرحون ص ٢٧٨-٢٧٩.

(٤) الإحاطة في أخبار غرناطة ٤/٤١٥-٤١٥.

(٥) وفيات الأعيان ١/٢٤٣-٢٤٧. وعيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ٥٠١-٥١٤.

(٦) مثل: أبى مروان عبد الملك بن زهر صاحب كتاب (الاقتصاد في صلاح الأجساد)، الذى ألفه للأمير أبى إسحاق بن يوسف بن تاشفين (توفى سنة ٥٥٧هـ/١١٦٢م) (راجع عيون الأنباء ص ٥٢٠ وبعدها).

الفصل السابع

الأندلس فى ظل الموحدين

(٥٣٩-٦٢٠هـ / ١١٥١-١٢٢٣م)

قامت دولة الموحدين على أساس دعوة دينية إصلاحية تهدف إلى تحقيق وحدة إسلامية شاملة وتصحيح المفاهيم، والعودة بالمسلمين إلى القرآن والسنة، وتجديد قوى الأمة على هذا الأساس^(١).

والزعيم الأول للموحدين ومؤسس دولتهم هو أبو عبد الله المهدي محمد بن تومرت (٤٨٥-٥٢٤هـ) وينتسب إلى قبيلة (هَرَغَة) من مصمودة (البرانس) التي تسكن منطقة "السوس" جنوب المغرب. ولما توفى سنة (٥٢٤هـ) تولى بعده عبد المؤمن بن علي (٥٢٤-٥٥٨هـ / ١١٣٠-١١٦٣م). وفى عهده تم القضاء على دولة المرابطين، واتخذ مدينة "مراكش" عاصمة لدولته^(٢).

جهاد الموحدين فى الأندلس

١- وقد بدأ هذا الخليفة الموحدى عملياته العسكرية فى المغرب والأندلس، إذ كان من الطبيعى لهذه القوة الموحدية الفتية أن ترنو بأبصارها شمالاً عبر المضيق نحو

(١) راجع مقدمة ابن خلدون ٧٥٣/٢ (تحقيق د. على عبد الواحد وافي).

(٢) قائمة بأسماء الموحدين:

- ١- محمد بن تومرت (المهدي)
- ٢- عبد المؤمن بن علي الكومي (٥٤٢-٥٥٨هـ / ١١٦٣-١١٣٠م).
- ٣- أبو يعقوب يوسف الأول (٥٥٨-٥٨٠هـ / ١١٦٣-١١٨٤م).
- ٤- أبو يوسف يعقوب المنصور (٥٨٠-٥٩٥هـ / ١١٨٤-١١٩٩م).
- ٥- أبو عبد الله محمد (الناصر) (٥٩٥ - ٦١٠هـ).
- ٦- يوسف الثاني (المستنصر) (٦١٠-٦٢٠هـ / ١٢١٣-١٢٢٣م).
- ٧- أبو محمد عبد الواحد (المخلوع) (٦٢٠-٦٢١هـ / ١٢٢٣-١٢٢٤م).
- ٨- أبو محمد عبد الله (العادل) (٦٢١-٦٢٤هـ / ١٢٢٤-١٢٢٧م).
- ٩- أبو العلاء إدريس (المأمون) (٦٢٦-٦٣٠هـ / ١٢٢٩-١٢٣٢م).
- ١٠- أبو محمد عبد الواحد (الرشيد) (٦٣٠-٦٤٠هـ / ١٢٣٢-١٢٤٢م).
- ١١- أبو الحسن علي (السعيد) (٦٤٠-٦٤٦هـ / ١٢٤٢-١٢٤٨م).
- ١٢- أبو حفص عمر (المرتضى) (٦٤٦-٦٦٥هـ / ١٢٤٨-١٢٦٦م).
- ١٣- أبو العلاء (الواثق) (٦٦٥-٦٦٧هـ / ١٢٦٦-١٢٦٩م).

الأندلس، وشرقاً عبر المغرب العربى الكبير كى يتم لها توحيد المغرب الإسلامى كله، وتكتيله ضد القوى الصليبية فى البر والبحر^(١). ولم تمر سنة (٥٥٥هـ/١١٦٠م) حتى استطاع عبد المؤمن بن على أن يوحد المغرب العربى كله عدا (برقة) وما يليها شرقاً إلى حدود مصر.

وكان أول دخول لعبد المؤمن فى الأندلس (سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م)، وكان دافعه إلى الإسراع بذلك استيلاء "ألفونسو السابع" ملك (قشتالة) و(ليون) على مدينة "المرية" قد تمكن الخليفة الموحدى من توحيد معظم ما بقى من الأندلس فى أيدي المسلمين تحت رايته، وهو القسم الجنوبى الذى يحده من الشمال مجرى (وادي أنه)، ثم مجرى نهر التوريا (نهر بلنسية)^(٢). وقد استقلت بعض الإمارات الشرقية، مثل بنى غانية فى الجزر الشرقية (البليار)، وهم من كبار قواد (المرابطين) فى الأندلس، وكذلك الأمير "محمد بن سعد بن مَرْدَنِيش" الذى استقل بولايتى (بلنسية) و(مرسية) فى شرق الأندلس. غير أن هذه الإمارة الأخيرة لم تلبث أن انضمت إلى الموحدين بعد موت أميرها فى عهد الخليفة الموحدى يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨-٥٨٠هـ / ١١٦٣-١١٨٤م).

٢- وفى عهد الموحدين بالأندلس تحول ميدان الجهاد ضد النصارى إلى الجانب الغربى، بعد أن كان ميدانه فى الجانب الشرقى زمن المرابطين.

وقد كان الخليفة الموحدى أبو يوسف يعقوب الملقب بالمنصور (٥٨٠-٥٩٥هـ/١١٨٤-١١٩٩م)^(٣) - وهو أكبر شخصية فى تاريخ الموحدين بعد محمد بن تومرت وعبد المؤمن بن على - قد عقد صلحا مع ملك (قشتالة) و(ليون) (سنة ٥٨٦هـ، ولمدة خمس سنين)، وعندما انتهت مدة هذا الصلح سنة (٥٩٠هـ/١١٩٤م) بدأ هؤلاء فى مهاجمة أراضى المسلمين، فعبر أبو يوسف يعقوب إلى الأندلس ومعه خيرة المقاتلين من الموحدين، وضم إليه أحسن مقاتلى الأندلس، وحشد حشداً عظيماً من جنده وحسبهم فى هذه الحملة، بينما استعان عدوه "ألفونسو الثامن" ملك (قشتالة) و(ليون) بملوك النصارى وبالبابوية، وكون جيشاً ضخماً، وعسكر عند حصن يسمى "الأرك" عند نهاية الطريق

(١) تاريخ البحرية الإسلامية فى حوض البحر الأبيض المتوسط (للدكتور السيد عبد العزيز سالم، والدكتور أحمد مختار العبادى ٢/٢٤٨).

(٢) راجع: أطلس التاريخ الإسلامى للدكتور حسين مؤنس ص ١٨١.

(٣) وفيات الأعيان ج ٧ ص ٤.

المؤدى من طليطلة إلى قرطبة على بعد (٢٠ كم) بالقرب من قلعة "رباح" وغرب المدينة الملكية الآن، وبدأت موقعة حاسمة فى شعبان (٥٩١هـ/ يوليو ١١٩٥م) أسفرت عن نصر مؤزر للمسلمين، وانكسرت حدة الموجة النصرانية، وكان لهذا النصر أثره فى تثبيت جبهة الإسلام فى الأندلس لمدة طويلة من الزمان^(١).

٣- وبعد هذه الهزيمة عقدت هدنة بين المسلمين والنصارى سنة (٥٩٤هـ— ١١٩٨م)، ولكن ملك النصارى ما كان ليستريح بعد هزيمته القاسية فى "الأرك"، ولذلك أخذ فى الاستعداد لمعركة جديدة مع المسلمين قبل انتهاء أمد الهدنة، وأعد جيشاً ضخماً واحتشد بكل ما يستطيع بمعاونة كاملة من ملوك النصارى فى غرب أوروبا ومن البابوية ومن نصارى إسبانيا، وشجعه موت أبى يوسف يعقوب خليفة الموحدين (سنة ٥٩٥هـ—) وتولية خلفه أبى عبد الله محمد الناصر الذى كان أقل كفاية من أبيه، وقد عبر الخليفة الجديد إلى الأندلس فى ذى الحجة (٦٠٧هـ/ ١٢١١م) على رأس جيش ضخم ونزل إشبيلية، ومن هناك صعد شمالى الوادى الكبير، وعسكر فى سهل تكثر فيه التلال الصغيرة ويقع غربى الحصن المسمى بالعقاب (جمع عقبة، وهو المرتقى الجبلى) وأقبل النصارى كذلك، وعسكروا فوق هضبة الملك المشرفة على معسكر المسلمين، وقبل اللقاء استولى النصارى على قلعة "رباح" من قائدها الأندلسى، وعندما وصل هذا القائد إلى معسكر (الناصر) قتله دون تحقيق، الأمر الذى أغضب الأندلسيين وأثر فى معنوياتهم.

بدأ اللقاء فى (١٥ من صفر ٦٠٩هـ/ ١٦ من يوليو ١٢١٢م)، وانخزل الأندلسيون والخارجون على المسلمين من العرب بعد قليل، وتركوا الجناح الشرقى لمسلمين مكشوفاً فانقض عليهم النصارى وحصدوا الألف من متطوعة المسلمين المجاهدين من الأندلس كما حصدوا زهرة مقاتلى الأندلس، وعدداً كبيراً من خيرة العلماء والفقهاء والقضاة، وكان الخطب عظيماً، حتى قيل إن الإنسان كان يتجول فى المغرب بعد المعركة فلا يصادف شاباً قادراً على القتال^(٢).

(١) راجع التفاصيل فى البيان المغرب ٢١٨/٥-٢٢١، نفح الطيب ج ٤ ص ٣٨١، ٣٨٢ الروض المعمار للحميرى ص ١٢-١٣، التكملة لابن الأبار ٥٥٠/٢-٥٥١، بغية الملتبس للضبى ص ٤٥-٤٦. وراجع: التاريخ الأندلسى للدكتور الحجى ص ٤٨٤-٤٩٠.

(٢) تفاصيل المعركة فى البيان المغرب ٢٦٣/٥-٢٦٤، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى ص ٣٩٩-٤٠١، الروض المعمار للحميرى ص ١٣٧-١٣٨، وراجع: التاريخ الأندلسى للحجى ص ٤٩٠-٤٩٧، معالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسين مؤنس ص ٣٧٩-٣٨٠.

- وقد وصف ابن عذارى هذه المعركة بأنها ((كانت السبب فى هلاك الأندلس)) وقال ابن الأبار: ((أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها))^(١) وهذا ما حدث بالفعل، فقد ضعفت بعدها جبهة الوادى الكبير، وسقطت مدن كبرى، وأشرف النصرارى مباشرة على قرطبة وإشبيلية ومرسية وغيرها من عواصم هذا الخط، ثم توفى خليفة الموحدين الناصر فى شعبان (٦١٠هـ/١٢١٣م)، ودب الخلاف فى صفوف البيت الموحدى وانعكس ذلك على الأندلس، فبدأت تصفية ما بقى للمسلمين من أرضها خلال عصر الموحدين ولم تبق إلا (مملكة غرناطة).

نظرة عامة على أوضاع الأندلس السياسية والإدارية والعلمية فى ظل الموحدين^(٢):

١- قامت الدولة الموحدية على أسس دينية، متخذة من الإمامة مصدراً للسلطات الدينية والسياسية معاً، فحكومة الموحدين حكومة (دينية)، يعاون الإمام فيها صحبه العشرة الأوائل المسمون بـ(الجماعة)، وكانهم وزارة يستشيرها الإمام فى جلائل الأمور، إلى جانب آخرين من ذوى النفوذ. وقد كان الموحدون حريصين على إقامة العدل وقمع الظلم، ومعاينة العمال المعتدين.

٢- بلغ الموحدون مكانة عالية فى النواحي الحربية، فتفوقوا فى فن الحصار، والتحصينات، واستخدموا آلات مدمرة قاذفة للحجارة والحديد، محدثة دويماً شديداً، بحيث بدت كأنها مدافع بدائية.

٣- بلغت دولة الموحدين مكانة سياسية وحضارية طيبة فى فترة ازدهارها وقوتها، وكانت بعض وفود إسبانيا النصرانية وغيرها من أوروبا تأتى إلى البلاط الموحدى لإظهار الصداقة، وعقد المعاهدات، حتى أحدث منصب وزارى لاستقبال هؤلاء السفراء والاهتمام بأمورهم^(٣)، وقد حدث أن جاءت سفارة وزير ملك (قشتالة) إلى الموحدين سنة ٣١٢هـ/١٢١٥م بعد هزيمة العقاب (٦٠٩هـ) بهدف عقد مهادنة وسلم^(٤): نتيجة خشية

(١) البيان المغرب (ط تطوان) ص ٢٤٠، التكملة لابن الأبار ١/١٠٢.

(٢) راجع عصر الموحدين وانهيار الأندلس، لعنان ص ٦١٥-٦١٦، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس (القسم

الأندلسى - للدكتور عبد الفتاح فتحى عبد الفتاح) ص ٣٠٣-٣٠٤.

(٣) البيان المغرب . قسم الموحدين - أحداث سنة ٦٠٧هـ ص ٢٥٦-٢٥٧.

(٤) المصدر السابق : ص ٢٦٦.

القشتاليين من هجوم مفاجئ للموحدين عليهم؛ نتيجة الاضطرابات الموجودة في مملكتهم آنذاك، ووجود صراعات ونزاعات، ومجاعات^(١).

٤- اهتم الموحدون بالمشروعات العمرانية والزراعية. وقام الخليفة أبو يعقوب يوسف بتحسين وتجميل (إشبيلية)، وإقامة المنشآت الفخمة، وتهيئة المياه الجارية وتوفيرها لسقاية الناس، وأقام جامع إشبيلية الأعظم ومئذنته الكبيرة (سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م) وأتمها ابنه أبو يوسف يعقوب المنصور بعده (سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م) وشارك في هذه الأعمال عدد من العرفاء (المهندسين)، والبنائين والعمال المهرة^(٢).

٥- سارت الحركة العلمية بالأندلس في طريق الازدهار في عدة ميادين في العصر الموحدى: فمن علماء هذا العصر محمد بن عبد الرحيم الأنصارى (٥٠١-٥٦٧هـ) عالم القراءات والفقه والحديث. وأبو بكر محمد بن خير الإشبيلي (٥٠٢-٥٧٥هـ) صاحب (فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف) وهو كتاب مهم في باب التعرف على مدى تأثر الأندلس بالثقافة المشرقية في جميع أنواع والمعارف والشرعية، وظهر أيضاً - في تلك الآونة محمد ابن جبير (ت ٦١٤هـ) الرحالة البلنسى المشهور صاحب (رحلة ابن جبير). ومن مؤرخى ذلك العصر: عبد الواحد المراكشى (ت ٦٤٠هـ) صاحب (المعجب في تلخيص أخبار المغرب). وعلى بن موسى بن سعيد (ت ٦٨٥هـ) أحد مؤلفى كتاب (المغرب فى حلى المغرب). وابن عذارى المراكشى (توفى بعد سنة ٧١٢هـ). وهو صاحب (البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب). ومحمد بن عبد الملك المراكشى (ت ٧٠٣هـ) صاحب (الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة). وأحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطى (٦٢٧-٧٠٨هـ) صاحب (صلة الصلة). وإلى جانب هؤلاء ظهر علماء فى مجالات الطب، والزراعة، مثل: أبى جعفر أحمد الغافقى (ت ٥٦١هـ)، ويحيى بن العوام الإشبيلي صاحب كتاب (الفلاحة)، وهذا الكتاب اعتبره المستشرقون الإسبان قمة التأليف الأندلسى فى هذا الموضوع، وكان له أعظم الأثر فى علوم الزراعة فى القارة الأوروبية^(٣).

(١) عصر الموحدين وانهيار الأندلس ص ٣٣٣-٣٣٤.

(٢) عصر الموحدين وانهيار الأندلس، لعنان ص ٦٤٧ وبعدها، والتاريخ الأندلسى للحجى ص ٥٠٠-٥٠٦.

(٣) راجع ما كتبناه عن ابن العوام فى رسالتنا للدكتوراه بعنوان (الجوانب الحضارية فى بغداد وقرطبة...) المجلد الثانى ص ٩٢٦ - ٩٢٧.

ويكاد يكون لكل من هؤلاء العلماء إنتاجه العلمى، وبلغت مؤلفات بعضهم العشرات. وهم ليسوا إلا القليل من الكثير، زخرت بهم الأندلس فى هذه المدة. ولا يفوتنا أن الكثير من العلماء من كل ميدان كانت لهم مشاركة فى الوقائع الحربية التى التقى فيها المسلمون بالممالك النصرانية فى فترة الموحدين، ووقف بعضهم فى المقدمة، فليس العلماء وأهل الفكر عالة يختفون وقت الأحداث ويبرزون فى صفاء الجو والنعمة. فكم من عالم، لا سيما علماء القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وعلماء الشريعة المطهرة والتاريخ والقضاء - كانوا دوماً فى المقدمة، لأن العلم إيمان وعمل، والصدارة فى العلم لها مسؤوليتها وتكاليفها، وذلك واضح - تماماً ودوماً - فى تاريخنا الإسلامى خلال مراحلہ المتلاحقة^(١).



(١) راجع : التاريخ الأندلسى للحجى ص ٥٠٧.

الفصل الثامن

مملكة غرناطة (الأندلس الصغرى)

دولة بنى الأحمر (٦٢٩-٨٩٧هـ / ١٢٣٢-١٤٩٢م)

انفرط عقد الأندلس بعنف بعد هزيمة الجيوش الإسلامية - فى فترة الموحدين - فى معركة "العقاب" أمام الجيوش الإسبانية والأوروبية المتحدة، وقد كانت هذه الواقعة من أشنع الهزائم التى لحقت المسلمين بالأندلس، إن لم تكن عديمة النظير لديهم. لقد خسروا فيها الكثير، وما خسروه بعد المعركة كان أكبر، إذ إن الأمور بدأت تسير من سئ إلى أسوأ، والقواعد الأندلسية تخرج من قبضة الموحدين واحدة بعد أخرى، وأتاحت هذه الظروف القاسية بروز عدد من الشخصيات حاولت أن تمسك على الأندلس ما بقى منها، وهذه مهمة شاقة وجَدَّ عسيرة.

ابن هود ومحاولة الصمود

وأول شخصية أندلسية ظهرت فى الميدان كانت من أسرة بنى هود أصحاب "سرقسطة" بالثغر الأعلى (فى عصر الطوائف). إنه أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامى، الذى لقب بأمرير المسلمين سيف الدولة، والمتوكل على الله^(١). بدأ نشاطه من مدينة "مرسية" (سنة ٦٢٥ هـ)، ودخلت تحت طاعته عدة مدن أندلسية: مرسية، وقرطبة، وإشبيلية، وغرناطة، ومالقة، والمرية، وغيرها^(٢).

وقد عمل ابن هود على إنهاء سلطان الموحدين فى الأندلس الذين عجزوا - فى هذه الفترة - عن حمايتها والوقوف فى وجه الأخطار والهجمات الإسبانية. والظاهر أن ابن هود لم يكن فى مستوى مقدرة قيادية تعينه - فى مثل هذه الظروف - للاحتفاظ بما تبقى من المدن الأندلسية، بل إن المؤرخ ابن سعيد الأندلسى (ت ٦٨٥ هـ) يعتبر تولى ابن هود أمر الأندلس ضاراً بها، حيث وجد فيها «قلوباً منحرفة عن دولة بر العدو، مهياة للاستبداد، فملكها بأيسر محاولة، مع الجهل المفرط وضعف الرأى»^(٣). ويصفه لسان الدين ابن الخطيب بأنه كان شجاعاً كريماً حياً وفاقاً، سليم الصدر، قليل المبالاة بالأمور،

(١) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد ٢/١٠٩، ٢٥١، نفح الطيب ١/٤٤٦.

(٢) الحلة السيرة لابن الأبار ٢/٣٠٨، المغرب فى حلى المغرب ٢/٢٥١، أعمال الأعلام ص ٢٧٧، ٢٧٨.

(٣) المغرب فى حلى المغرب ٢/٢٥١.

محدوداً، لم ينصر به جيش، ولا وفق له رأى، لغلبة الخفة عليه واستعجاله الحركات، ونشاطه إلى لقاء العدو من غير كمال استعداد^(١).

وقد هزم ابن هود فى عدد من المعارك ضد إسبانيا النصرانية، وسقطت بعض القواعد الأندلسية مثل "بلنسية" (سنة ٦٣٦هـ) و"إشبيلية" (سنة ٦٤٦هـ)، ثم أهمها جميعاً مدينة "قرطبة" العاصمة الثالثة للأندلس، حيث حاصرها ملك قشتالة "فرناندو" (فرنلند) الثالث حصاراً قاسياً وشديداً لعدة أشهر، ودافع أهلها عنها أروع دفاع، وقد طلبوا الغوث من ابن هود، فنكل عنها وتركها لمصيرها المحتوم، واضطر أهلها إلى التسليم بعد أن انقطع عنهم الأمل فى المساعدة، ودخلها الجيش القشتالى (فى ٢٣ شوال ٦٣٣هـ / يونيو ١٢٣٦م)، وأخرجوا المسلمين منها، وكان بين سقوطها وسقوط مدينة طليطلة مائة وست وخمسون سنة^(٢).

ابن الأحمر وتأسيس مملكة غرناطة:

لم يكن ابن هود وحده فى الميدان، إذ كان ينافسه أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر، الملقب بـ "الشيخ" و "الغالب بالله"^(٣). وبعد أن توفى ابن هود فى مدينة "المرية" (سنة ٦٣٥هـ) - وهو يُعد نفسه لإنجاد "بلنسية" كبرى قواعد شرقى الأندلس وثغوره، والتي سقطت (سنة ٦٣٦هـ) - استطاع ابن الأحمر أن يُنشئ قوة احتفظت ببعض المناطق فى جنوبى الأندلس، ويؤسس "مملكة غرناطة" (الأندلس الصغرى). وورثه - فى حكم هذه المملكة - أبناء أسرته، وتوالى على حكمها خلال قرنين ونصف تقريباً ما يربو على عشرين حاكماً (سلطاناً) تمتع كثير منهم بصفات ممتازة. وظهرت خلال هذه المدة شخصيات سياسية ذات كفاءة عالية، فضلاً عن أهل الملكات العلمية وأصحاب المواهب الأخرى الذين عاونوا فى الحفاظ على هذه البقعة الأندلسية الصغيرة.

ولد محمد بن يوسف بن الأحمر - الذى يرجع نسبه إلى الصحابى الجليل سعد بن عبادة الأنصارى - فى مدينة "أرجونة" (Arjona) - وهى من حصون قرطبة من جهة الشرق - (سنة ٥٩١هـ / ١١٩٥م). وقد تميز هذا الرجل بالشجاعة والجرأة ووفور

(١) أصال الأعلام ص ٢٧٨.

(٢) راجع: البيان المغرب لابن عذارى ٣٣١/٥، التاريخ الأندلسى للحجى ص ٥١٤-٥١٥.

(٣) نفح الطيب ٤٤٦/١، ٤٤٧.

العزم. دعا إلى جمع الشمل، فالتف حوله الناس، وتوافد عليه جنود الأندلس فأعلن نفسه أميراً، وانتقل إلى "جيان"، ودخلت في طاعته بلاد الجنوب كلها، لكنه أدرك أنه في حاجة إلى معقل يعتصم به، لأن (جيان) مدينة مكشوفة، فوقع اختياره على (غرناطة) عند سفح جبل الثلج، ثم أخذ - شيئاً فشيئاً - يوسع نطاق سلطانه حتى أصبحت دولته تضم بين جنباتها ثلاث ولايات كبيرة، وهى: (غرناطة) و (المرية) و (مالقة)، ووصلت حدودها إلى شرق البحر المتوسط ومضيق جبل طارق، واتخذ مدينة (غرناطة) عاصمة لدولته^(١). وكان لاستيلائه على مدينتي (المرية) و (مالقة) أثر طيب في دعم دولته لما لهما من أهمية عظيمة في المجالين التجارى والبحرى.

وقد واجهت "ابن نصر" بعض المشكلات الداخلية والخارجية، منها:

١- علاقته بأصحابه "بنى أشقيولة" الذين عاونوه، ثم انقلبوا عليه، وحاربوه حتى ((عظمت الفتنة واشتدت المحنة وكثر الخلاف، واستعانوا عليه بالنصارى، وكشفوا الوجوه في معصيته، وكثر بسببهم الثوار))^(٢).

٢- نقص المال الذى كان فى أشد الحاجة إليه لتثبيت قواعد سلطانه.

٣- المشكلة الكبرى مع ملوك النصارى الذين أدركوا خطر دولته الناشئة وأرادوا القضاء عليها، فاضطر إلى أن يعقد معهم معاهدة صلح (سنة ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م) لمدة عشرين عاماً، وبمقتضاها حكم ابن الأحمر مملكته باسم ملك (قشتالة) "فرناندو الثالث"، ودفع له جزية، ووافق على حضور البلاط القشتالى باعتباره واحداً من أمراء الملك، وعلى أن يمدد بالجنود كلما طلب منه ذلك، وبالفعل أمدد بقوات ساعدت على سقوط إشبيلية (فى شعبان سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م)^(٣).

مملكة غرناطة بعد وفاة مؤسسها:

وفى (جمادى الثانية ٦٧١هـ / ديسمبر ١٢٧٢م) توفى محمد بن يوسف بن نصر الملقب بالشيخ، وكان قد أخذ البيعة لولده محمد، فأقر بذلك مبدأ الملكية الوراثية، وقد تولى محمد الثانى حكم المملكة ولقب (بالفقيه)، لاشتغاله بالعلم أيام أبيه، وقال عنه ابن الخطيب:

(١) راجع عن ذلك كله فتح الطيب ٤٤٧/١، الإحاطة فى أخبار غرناطة ٩٢/٢-١٠١، ص ١١٥-١١٩، ص ١٤٢،

التاريخ الأندلسى للحجى ص ٥١٦ - ٥١٨، المسلمون فى الأندلس لعبد الله جمال الدين (موسوعة سفير ١٠٢/٧)

(٢) راجع تفاصيل هذه الفتنة فى أصل الأعلام ص ٢٨٧-٢٩١.

(٣) البيان المغرب ٣٦٧/٥، فتح الطيب ٤٤٨/١، المسلمون فى الأندلس (موسوعة سفير ١٠٢/٧)

((وهو الذى رتب رسوم الملك للدولة ووضع ألقاب خدمتها، ونظم دواوينها وجبايتها، هذا إلى جانب إعتائه بالجيش وخاصة فرق الفرسان .. وكان سياسياً بارزاً .. ، أديباً عالمياً، يقرض الشعر ويجالس العلماء والأدباء والأطباء والمنجمين والحكماء، والكتاب والشعراء)).

وقد واجه الأمير الجديد ثلاث مشكلات هي:

أ- مشكلته مع الإسبان، وقد نجح فى تحقيق انتصارات عليهم منتهزاً فرصة موت ملوكهم.

ب- ومع المرينين الذين استتصر بهم ليعاونوه فى الجهاد ضد المسيحيين، فإذا بهم يطمعون فى الاستيلاء على الأندلس، الشيء الذى دفعه إلى التحالف مع ملك (أراجون) تارة ومع ملك (قشتالة) تارة أخرى لدرء خطر المرينين. وعلى الرغم من تحسن العلاقات بين (غرناطة) و (فاس)، فإن [الفقيه] لم يكن يطمئن إلى نياتهم، وقد دفعهم ذلك إلى التحالف مع النصارى مرات.

ج- وأخيراً كانت هناك مشكلة مع أنصار أبيه "بنى أشقيلولة" التى اشتدت فى زمنه، وانتهت بصور أمر يقضى بتهجيرهم إلى مدينة القصر الكبير بشمالى المغرب جنوب مدينة سبتة سنة (٦٨٧هـ)^(١).

وعلى كل حال فقد توفى محمد الفقيه فى (شعبان ٧٠١هـ / إبريل ١٣٠٢م) بعد أن نجح فى دعم دولته داخلياً وخارجياً.

ولن يتسع المجال لنذكر كل ملوك بنى نصر فقد كانوا كثيرين، ولكننا نكتفى بالوقوف عند اثنين منهم يعتبران أقدر من تولى أمر هذه المملكة بعد محمد الغالب بالله وابنه محمد الفقيه^(٢).

فأما الأول هو أبو الوليد إسماعيل بن الرئيس أبى سعيد فرج بن أبى الوليد إسماعيل محمد بن نصر مؤسس الدولة الذى حكم فيما بين (سنتى ٧١٣-٧٢٥هـ / ١٣١٤-١٣٢٥م) فقد كان هذا الرجل حازماً بعيد النظر، مدركاً لحقائق الوضع فى

(١) أعمال الأعلام ص ٢٩٠-٢٩١. وراجع: المسلمون فى الأندلس، للدكتور عبد الله جمال الدين (سفير ١٠٣/٧-١٠٤).

(٢) راجع: معالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس ص ٣٨٧-٣٨٩.

مملكته الصغيرة، وقد تمكن بسياسته من الحفاظ على أراضى بلاده، بل تمكن من التخلص من التبعية لقشتالة، واستقل بنفسه معتمدا على معاونة قوات بني مرين التى كانت قد حصلت على الحق فى الإقامة بصورة مستمرة فى بلاد غرناطة للإشتراك فى الدفاع عنها عن طريق ما يعرف بمشيخة الغزاة التى سنتحدث عنها بعد قليل.

وفى أيام أبى سعيد فرج هذا حدث لقاء ثان بين قوات مملكة (قشتالة) وقوات الإسلام فى شبه الجزيرة، وذلك أن ألفونسو العاشر طمع فى بلاد المسلمين من جديد، وأراد أن يعيد مملكة غرناطة إلى الطاعة له، ولكنه لم يستطع، لأن ابنه (شانجو الرابع) ثار عليه سنة ٦٨١هـ / ١٢٨٢م. واستجد ألفونسو العاشر بالسلطان المرينى على ابنه، وعبر (أبو يوسف عبد الحق المنصور المرينى) إلى الأندلس، والتقى مع ألفونسو العاشر بأحواز الصخرة فى كورة (تاكورونيا) قرب (رندة)، ورهن تاجه لديه، بل قبل يده رجاء معاونته. وقد أدى عمله هذا إلى نفور زعماء (قشتالة) من ملكهم هذا، فانضموا إلى ابنه (شانجو الرابع) فعزلوا ألفونسو العاشر سنة ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م فانصرف بقية أيامه إلى الدراسة والبحث والتأليف والترجمة من العربية إلى القشتالية، مما استحق به أن يسمى بالملك ألفونسو العالم^(١). ومن المؤرخين من يقولون أن الذى لجأ إلى السلطان المرينى كان الابن وهو شانجو الرابع الذى تمكن بمعاونة المسلمين من التغلب على أبيه وخلعه والانفراد بالعرش^(٢).

ولم يكد الأمر يستقر لشانجو الرابع حتى بدأ يفكر فى غزو أراضى المسلمين، ووقع ذلك فى أيام أبى الوليد إسماعيل النصرى الذى نتحدث عنه، فتقدمت قوات نصرانية كبيرة نحو غرناطة بجيش ضخم يقوده (دون بترو)، و(دون خوان) الوصيين على ملك قشتالة الصغير وهو (ألفونسو الحادى عشر) الذى خلف أباه (شانجو الرابع) وانضمت إلى قواتهما قوات كبيرة من الصليبيين ما بين فرنجة وإنجليز، وكان اللقاء الحاسم قرب غرناطة وفى مرجها فى (٢٠ ربيع الثانى ٧١٨ / مايو ١٣١٨). وكان شيخ الغزاة هو

(١) تحدثنا عن دور هذا الملك فى نشر الثقافة العربية الإسلامية وإعداد المترجمين لترجمة الكتب العربية فى علوم الطب والصيدلة والرياضيات والفلك والفلسفة إلى اللغة القشتالية (الإسبانية القديم) والتى ترجمت فيما بعد إلى اللاتينية وتأثرت بها أوروبا - تحدثنا عن ذلك فى رسالة الدكتوراة (من تأليفنا) بعنوان (الجوانب الحضارية فى بغداد وقرطبة.....) المجلد الثانى ص ٩٦٦-٩٦٩.

(٢) الإحاطة ٥٦٤/١، للتاريخ الأندلسى للحجى ص ٥٣٩.

أبو سعيد عثمان بن أبي العلاء، وقد انتصر المسلمون في هذه المعركة نصراً مؤزراً^(١) وأثبتوا أنهم قادرون على كسب النصر إذا هم جمعوا صفوفهم وصدقوا النية في الجهاد، وكان لهذه المعركة أثر بعيد في تثبيت أركان مملكة غرناطة، والتي استطاع رجالها أن يستعيدوا بعض البلاد والحصون التي كانوا قد فقدوها من قبل.

وبعد هذا النصر بقليل اغتيل سلطان غرناطة أبو الوليد إسماعيل (سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م). ويعتبر هذا الرجل من أكفأ من تولى عرش غرناطة، وإليه يرجع الفضل في إقامة الكثير من منشآت قصور الحمراء.

وأما الثاني: فهو أبو الحجاج يوسف الأول بن أبي الوليد إسماعيل (٧٢٥-٧٥٥هـ/١٣٢٥-١٣٥٤م) ويعتبر هذا الرجل آخر الكبار من ملوك غرناطة، فقد بذل أقصى جهده في المحافظة على بلاده من عدوان مملكة قشتالة. وعلى الرغم من مكائاته الكثيرة وطول حكمه الذي مكن له من أن يقدم لمملكة غرناطة خدمات جليلة إلا أن ظروف تلك المملكة ما كانت لتساعد على الصمود إلى النهاية وحدها أمام ضغط نصراني متزايد، وقد جاءت العلة الكبرى في اختلاف أفراد البيت النصري بعضهم على بعض واستعانة بعضهم بملوك قشتالة، ثم إن العلاقات لم تكن طيبة دائماً بين سلاطين غرناطة ومشيخة الغزاة.

مشيخة الغزاة^(٢):

عقب انتصار المسلمين على النصارى في موقعة الصخرة استقر الاتفاق بين سلطان بني نصر وسلطان المرينيين على أن تقيم في أراضي غرناطة قوة دائمة من المقاتلين المرينيين للاشتراك في الجهاد، وفي سبيل ذلك تنازلت مملكة غرناطة لأولئك المجاهدين الذين سُموا بالغزاة (وكانت رياستهم تسمى مشيخة الغزاة)، تنازلت لهم عن الجزيرة الخضراء ومالقة وبعض مراكز أخرى لكي تكون معابر ومراكز لهم في الأندلس، لكي يستطيعوا مواصلة عملهم الديني الكبير. وكان أول شيخ للغزاة هو عبد الله أبو العلاء المريني، وعندما توفي ذلك الرجل شهيداً سنة ١٩٣هـ خلفه أبو سعيد عثمان

(١) تفاصيل هذه المعركة أوردتها المقرئ في نفع الطيب ج ١ ص ٤٤٩-٤٥١.

(٢) راجع عنهم الإحاطة في أخبار غرناطة ص ٢/٣٨٠، نفع الطيب ١/٤٥٢-٤٥٤. معالم تاريخ المغرب والأندلس لحسين مؤنس ص ٣٨٩، التاريخ الأندلسي للحجي ص ٥٤٠ وما بعدها.

ابن أبي العلاء، وفي أيامه أصبحت مشيخة الغزاة قوة لها أهميتها في مملكة غرناطة، وتدخل شيخ الغزاة في الأمور الداخلية للمملكة وأيد بعض منافسي السلطان. ومن ناحية أخرى نجد أن السلطان النّصري يحاول من جهته التدبير على مشيخة الغزاة، وربما تحالف مع القوات النصرانية عليهم. والحقيقة أن بنى مرين أصبحت لهم مصالح خاصة في الأندلس، ودخلوا في التنافس على مصير مضيق جبل طارق مع مملكة غرناطة، ومع مملكة (قشتالة) و(ليون) ومملكة (أرغون) والجمهوريات الإيطالية، وكان هذا الاختلاف في المصالح بين المسلمين من أشد الأخطار التي تهددت مملكة غرناطة وأضعفت قواها.

وقعة طريف (٧٤١هـ/١٣٤٠هـ):

وقد تجلّى ذلك بصورة ظاهرة في لقاء حاسم وقع بين الإسلام والنصرانية في أيام السلطان النّصري الحجاج يوسف بن أبي الوليد إسماعيل الذي نتحدث عنه (٧٣٣-٧٥٥هـ)، فقد كان هذا الرجل كما قلنا واسع المطامع جم النشاط، وكان قد تولى أمر بنى مرين السلطان أبو الحسن على بن عثمان بن أبي يعقوب المريني المشهور باسم أبي الحسن، وكانت حياته سلسلة من المغامرات والوقائع في المغرب والأندلس حتى لا يمكن روايتها على أنها قصة من صنع الخيال.

ففي جمادى الأولى (سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م) جمع ملك (قشتالة) قوات ضخمة من القشتاليين وانضمت إليهم قوات أخرى من الأرغونيين والبرتغاليين، وسار الجميع ووجهتهم مدينة (طريف) للاستيلاء عليها بصورة نهائية لقطع الطريق بين الأندلس والمغرب. وقد اتخذ في هذه الظروف أبو الحجاج يوسف بن نصر والسلطان أبو الحسن المريني الاستعدادات اللازمة إدراكاً منهما لأهمية تلك المعركة، ولكن النصر لم يحالف المسلمين في ذلك اللقاء ودارت عليهم هزيمة حاسمة في تاريخ الأندلس، هي هزيمة طريف في (٧ جمادى الأولى ٧٤١ / ٣٠ أكتوبر ١٣٤٠م)، قتل فيها عدد من العلماء، من بينهم والد لسان الدين بن الخطيب صاحب كتاب (الإحاطة في أخبار غرناطة)^(١). وعقب تلك الهزيمة سقطت (طريف) وتمهد الطريق لسقوط جبل طارق والفصل النهائي بين الأندلس والمغرب.

(١) تفاصيل الأحداث في نفح الطيب ٤٥٢/١، ١٤/٥-١٣، ١٥، التاريخ الأندلسي للحجى ص ٥٤٣ - ٥٤٧، معالم... للدكتور حسين مؤنس ص ٣٨٩ - ٣٩٠.

وعلى أى حال فقد كانت هذه المعركة نهاية للمعاونة المرينية للأندلس، وذلك بدوره قطع الأمل فى أن تستطيع قوات غرناطة الثبات أمدا طويلا. وبعد المعركة بقليل اتجه (ألفونسو الحادى عشر) ملك (قشتالة) لحصار "جبل طارق" وكاد يستولى (سنة ٧٥٠هـ) عليه لولا أن (ألفونسو الحادى عشر) توفى أثناء الحصار، بسبب الوباء الكبير الذى وقع سنة ٧٤٩هـ، وانتشر فى الأندلس كلها ومناطق أخرى من العالم الإسلامى وأوروبا، وراح ضحيته عدد عظيم من علماء الأندلس ورجال السياسة فيها^(١) وقد أبدى المسلمون شهامة فى هذه المناسبة، فقد كانوا يحاصرون القوات القشتالية المحاصرة، فلما بلغهم موت الملك أفرجوا للقوات النصرانية لتتسحب حاملة تابوت الملك الميت إلى إشبيلية وارتدى عدد منهم شارات الحداد مجاملة^(٢).

وبعد أبو عبد الله محمد بن أبى الوليد إسماعيل الملقب بالغنى بالله (محمد الخامس) من أقدّر ملوك غرناطة، وقد طال حكم هذا الرجل إذ استمر يحكم من (سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م) إلى سنة (٧٩٣-١٣٩٤م)، وفى أيامه ظهر وعمل ابن الخطيب العظماء من كتاب الأندلس ومفكره، وقد دارت على ذلك الرجل ووزيره ابن الخطيب محن طويلة، وكثر الثائرون عليه من أهل بيته حتى اضطر إلى الهرب إلى المغرب للاستجداد بالسلطان المرينى، ثم عاد إلى الأندلس وتمكن من استعادة عرشه، ولكن الأمور لم تصفح له قط، فقد دخل فى صراع مرير وخطر مع (بنى سراج)، وكانوا من أكبر الأسر فى مملكة غرناطة. وإلى هذا الرجل محمد الغنى بالله يُعزى الجانب الأكبر من منشآت قصور الحمراء، فهو الذى أنشأ باب الشريعة ومدرسة غرناطة واعتنى بحدائق جنة العريف^(٣).

تدهور مملكة غرناطة:

وبعد محمد الغنى بالله لم تعد مملكة غرناطة إلى سابق قوتها أبداً منذ تعاقب الملوك على العرش ووقعت بينهم الخلافات والحروب، وكان كل منهم يستعين بملوك

(١) عاصر لسان الدين بن الخطيب هذا الوباء، وصنف فيه كتابا بعنوان (مقنة السائل عن المرض الهائل) (راجع الإحاطة فى أخبار غرناطة ٨٣/١، نفح الطيب ١/١٦٣).

(٢) راجع هذه الأحداث فى نفح الطيب ٤/٤٤٢، العبر لابن خلدون ٤/٣٧٥، ٣٩٤ التاريخ الأندلسى للحجى ص ٥٤٨-٥٤٩.

(٣) راجع أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٣٠٦، ص ٣٠٩ وما بعدها.

[illegible]

۱۷۶

قشتالة على إخوانه وبلغ الاضطراب حدا تعاقب معه على حكم المملكة اثنا عشر ساطانا خلال القرن التاسع الهجرى (- ١٥م) وتولى بعضهم أكثر من مرة، وانكمشت مساحتها حتى انتهى أمرها فى النهاية إلى الاقتصار على مدينة غرناطة ومدينة (وادى آش) وما حولهما.

وتجلى ضعف مملكة غرناطة وقرب سقوطها فى أيام أبى الحجاج يوسف الثانى المتوفى سنة ٧٩٤هـ/١٣٩٢م. فقد اشتد العداء بينه وبين (بنى سراج) وانتهاز ملك قشتالة الفرصة فاستولى على بلدة (الزهراء) المجاورة لغرناطة (سنة ٨٠٩هـ/١٤١٧م). وبعد سقوط جبل طارق بيد القشتاليين سنة ٨٦٧هـ/١٤٦٢م أصبحت مملكة غرناطة محاصرة تماما بالقوات النصرانية ولا سبيل إلى معاونتها ولم يعد هناك أمل فى أن تظل وقتا طويلا، وقد تجلت نهايتها بوضوح سنة ٨٨٤هـ/١٤٧٩م وهى السنة التى تم فيها الاتحاد بين الملك (فرناندو الرابع) ملك (أرغون) والملكة "إيزابيلا الثانية" ملكة (قشتالة) وكانا قد تزوجا قبل ذلك بعشر سنوات، وكان معنى ذلك أن إسبانيا النصرانية كلها قد أصبحت كتلتين تعملان على القضاء على ما بقى للمسلمين فى شبه الجزيرة، الأولى مملكة (قشتالة وأرغون) وكانت تقوم بالنصيب الأكبر فى القضاء على مملكة غرناطة، ثم مملكة (البرتغال) التى أتمت الاستيلاء على غرب الأندلس، وبدأت قواتها تهاجم السواحل المغربية وتنشئ عليها مراكز عسكرية لتواصل الغزو فى أراضى المسلمين، وقد تمكن البرتغاليون من الاستيلاء على (سبتة) ولكنهم تخلوا عنها لقشتالة وظلت فى أيدى الإسبان إلى اليوم^(١).

نهاية مملكة غرناطة:

فى أواخر سنة ٨٨٧هـ تولى عرش غرناطة (محمد الحادى عشر بن أبى الحسن على) الذى يعرف باسم أبى عبد الله، أو (أبى عبد الله الصغير) وكان والده (أبو الحسن على) قد تزوج على زوجته الحرة (عائشة) زوجة نصرانية سميت (ثريا)، وأبو عبد الله هذا هو ابنها، وكان أبو الحسن ساطانا ضعيفا محاطا بالمصاعب، تنافست النساء فى عصره على حيازة العرش لأبنائهن، وطال النزاع بين (أبى عبد الله) الذى ذكرناه وعمه

(١) راجع نهاية الأندلس لمحمد عبد الله غنان ص ٥٢٧، معالم تاريخ الأندلس لحسين مؤنس ص ٣٩١، التاريخ الأندلسى للحجى ص ٥٥٠.

(أبى عبد الله محمد بن سعد) الملقب بالزَّغَل (أبى الباسل أو الشجاع)، وانتهى هذا النزاع بتقسيم غرناطة.

وبعد منافسات طويلة قرر (فرناندو) ملك (قشتالة) و(إيزابيلا) ملكة (ليون) القضاء نهائياً على مملكة غرناطة، فساروا لحصارها بقوات ضخمة، وفي النهاية عقد (أبو عبد الله الزَّغَل) معاهدة التسليم مع ملكى (قشتالة) و(ليون) فى (٢١ المحرم سنة ٨٩٧/ نوفمبر ١٤٩١). أما دخول الملكين الكاثوليكين (فرناندو) و(إيزابيلا) مدينة غرناطة فكان فى (ربيع الأول ٨٩٧/ ٢ يناير ١٤٩٢) وهو تاريخ حاسم فى تاريخ الإسلام والغرب الأوروبى. وقد احتقلت به بلاد النصرانية كلها وأمرت البابوية بأن ترفع كنائس أوروبا كلها احتفالاً بتلك المناسبة.

قائمة سلاطين بنى الأحمر

محمد بن أحمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الأنصارى الخزرجى

١- المؤسس: أبو عبد الله محمد (الأول) - الشيخ الغالب بالله (٦٢٩ - ٦٧١هـ)

٢- أبو عبد الله محمد (الثانى) - الفقيه (٦٧١ - ٧٠١هـ)

٣- أبو عبد الله محمد (الثالث) - المخلوع (٧٠١ - ٧٠٨هـ)

٤- نصر (أبو الجيوش) (٧٠٨ - ٧١٣هـ)

٥- أبو الوليد إسماعيل (الأول) (٧١٣ - ٧٢٥هـ)

٦- أبو عبد الله محمد (الرابع) (٧٢٥ - ٧٣٣هـ)

٧- أبو الحجاج يوسف (الأول) (٧٣٣ - ٧٥٥هـ)

٨- أبو عبد الله محمد (الخامس) - الغنى بالله (٧٥٥ - ٧٦٠هـ)

٩- إسماعيل (الثانى) (٧٦٠ - ٧٦١هـ)

١٠- أبو سعيد البرمىخو (محمد السادس) (٧٦١ - ٧٦٣هـ)

١١- أبو عبد الله محمد (الخامس) - المرة الثانية (٧٦٣ - ٧٩٣هـ)

١٢- أبو الحجاج يوسف (الثانى) (٧٩٣ - ٧٩٧هـ)

١٣- محمد (السابع) (٧٩٧ - ٨١١هـ)

١٤- يوسف (الثالث) (٨١١ - ٨٢٠هـ)

١٥- أبو عبد الله محمد (الثامن) - الفترة الأولى (٨٢٠ - ٨٣١هـ)

- ١٦- محمد (التاسع) - الزغير (٨٣١ - ٨٣٣هـ)
 ١٧- محمد (الثامن) - المرة الثانية (٨٣٣ - ٨٣٥هـ)
 ١٨- يوسف (الرابع) - حكم أشهر (٨٣٦هـ)
 ١٩- محمد (الثامن) - المرة الثالثة (٨٣٦ - ٨٤٥هـ)
 ٢٠- محمد (العاشر) - الأحنف - المرة الأولى (٨٤٥ - ٨٤٨هـ)
 ٢١- يوسف (الخامس) - حكم أشهر (٨٤٩هـ)
 ٢٢- محمد (العاشر) - المرة الثانية (٨٤٩ - ٨٦٣هـ)
 ٢٣- سعيد بن محمد بن أبي الحجاج يوسف - المرة الأولى (٨٦٣ - ٨٦٧هـ)
 ٢٤- يوسف (الخامس) - المرة الثانية (٨٦٧ - ٨٦٨هـ)
 ٢٥- سعيد بن محمد بن أبي الحجاج يوسف - المرة الثانية (٨٦٨هـ)
 ٢٦- أبو الحسن على بن سعد (٨٦٨ - ٨٨٧هـ)
 ٢٧- أبو عبد الله محمد (الحادي عشر) - الصغير/المرة الأولى (٨٨٧ - ٨٨٨هـ)
 ٢٨- أبو عبد الله محمد بن سعد (الثاني عشر) (٨٨٨ - ٨٩٢هـ)
 ٢٩- أبو عبد الله محمد (الحادي عشر) - المرة الثانية (٨٩٢ - ٨٩٧هـ)
 - وهو آخر ملوك بني نصر الذي سلم غرناطة آخر حصن إسلامي في الأندلس.

محنة المورسكيين الأندلسيين^(١):

وقد نصت معاهدة التسليم على أن يحتفظ للمسلمين في غرناطة - وغيرها من مدن الأندلس - بكل حقوقهم، وأن تظل لهم مساجدهم، وأن يقيم منهم من أراد تحت العدل والإنصاف، ويهاجر منهم من أراد، ولكن النصارى ما كادوا يستولون على غرناطة حتى نسوا كل ما عاهدوا عليه، وكان أول ما فعلوه تحويل مسجد غرناطة إلى كنيسة، ثم بدأت سياسة اضطهاد المسلمين وإجبارهم على التتصر، وهؤلاء عرفوا في المجتمع المسيحي باسم "المورسكيين" والمورسكى تصغير لكلمة "المورة" والمقصود بها أفراد الشعب المسلم

(١) لا يتسع المجال لدراسة تاريخ المسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية بعد سقوط غرناطة، وقد استوفى أخبارهم الأستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه المسمى (نهاية الأندلس)، و (تاريخ العرب المتتصرين)، وهو القسم الأخير المتمم لتاريخه الحافل المطول للأندلس وتاريخ المسلمين فيه. وقد اعتمد في هذا القسم على مراجع كثيرة، بعضها إسباني، وبعضها برتغالي. ومن أحسن ما صنف في هذا الموضوع كتاب (المسلمون المنصرون: المورسكيون الأندلسيون) للدكتور عبد الله جمال الدين الأستاذ بكلية دار العلوم.

الذى ظل موجودا بإسبانيا يخضع لحكم الملكين الكاثوليكين بعد سقوط غرناطة فى أيديهما.

وقد نظمت معاهدة التسليم حقوق وواجبات هؤلاء، لكن بنود هذه المعاهدة سقطت واحدا وراء الآخر، وأريد لهم أن يكونوا نصارى شاءوا أم أبوا، وتم فى سبيل ذلك اللجوء إلى كل ألوان الأساليب وأشدّها قسوة وعنفا مع استخدام الأمانى أحيانا.

وقد أثبت غالبية المسلمين أن تفرض عليهم عقيدة لم يؤمنوا بها، فاصطدموا بالسلطات المسئولة دينية ومدنية، واستخدمت محاكم التفتيش معهم كل حيلة من اعتقال وتشريد ومصادرة وتحريق، كما جوبهت ثوراتهم على الظلم بكل قسوة وعنف، ولم يفت المسئولين استخدام وسائل التبشير والإغراء، وظل المسلمون على موقفهم وواصلوا ممارسة شعائرهم الإسلامية فى العلن حيناً، وفى السر أحياناً، وبلغ الضيق برجال الكنيسة ورجال الحكم مداه، وبعد مناقشات مستفيضة تقرر طرد المورسكيين من كل إسبانيا، وتم ذلك بالفعل فى الفترة من (١٦٠٩ - ١٦١٤م)، حدث ذلك دون مراعاة لمشاعر هذه الشريحة من المجتمع الإسباني، على الرغم مما كان لها من دور متميز فى خدمة الزراعة والاقتصاد بمختلف بلدان شبه الجزيرة.

وبهذا انتهت قصة الإسلام فى شبه الجزيرة الأندلسية وخلت من أهل الإسلام، وأبدلت من النور بالظلام، حسبما اقتضته الأقدار النافذة والأحكام، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين . وله الأمر من قبل ومن بعد، وإليه المرجع والمآب.



الخاتمة

من أسباب سقوط الأندلس

يخضع سقوط الأمم لأسباب كثيرة، وليس لسبب واحد محدد . ونستطيع أن نقول: إن هناك أسباباً أساسية جوهرية، وأخرى مساعدة على السقوط. كما أن هناك أسباباً عامة، وأسباباً خاصة.

والأسباب العامة هي التى تتصل بالسنن الربانية فى الكون والمجتمع، ويتساوى فيها كل البشر صعوداً أو هبوطاً . والأسباب الخاصة هي التى تتصل بالملاحم المميزة لكل أمة، وبطبيعتها الحضارية وراثتها الخاص، وبمستوى التحديات البيئية والنفسية والفكرية التى تحيط بها.

ولله عز وجل فى خلقه سننٌ أرشدنا إليها، وأمرنا بالتعامل معها، والاستفادة منها، فقال (قد خلّت من قبلكم سننٌ فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذّبين) (١). وقال (فهل ينظرون إلا سنة الأولين . فلن تجد لسنة الله تبديلاً . ولن تجد لسنة الله تحويلاً) (٢).

والتاريخ بما يحويه من الحوادث المتشابهة والمواقف المتماثلة يساعد على كشف هذه السنن، التى هى فى غاية الدقة والعدل والثبات، وإن معرفتها تفرض على الأمة الواعية المدركة أن تتجاوز مواقع الخطأ التى قادت الجماعات البشرية السابقة إلى الهلاك، وأن تحسن التعامل مع تلك السنن، ومع قوى الكون، مستمدةً ذلك من منهج الله الذى سار عليه أنبيأؤه ورسله.

ومن سنن الله الخالدة أن البشر يتحملون مسئوليتهم فى الرقى والانحطاط وفى إتباع الخير والشر، حيث إنهم قد مّتحوا قدراً من الحرية والاختيار، ومع ذلك جاءهم رسل الله بالبينات والهدى، فإذا وجدت الأسباب، فالنتائج تتبعها. قال تعالى (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (٣). والتغيير يبدأ من النفس، سواء بالارتقاء والارتفاع إلى أعلى، أو بالانكاس والهبوط إلى أسفل . وهذه السنة الربانية فى تغيير النفس والمجتمع

(١) سورة آل عمران ، الآية (١٣٧).

(٢) سورة فاطر ، الآية (٤٣).

(٣) سورة الرعد ، الآية (١١).

مهمة جداً، وتحتاج إلى دراسة نفسية واجتماعية. ولا يمكن إدراكها إدراكاً صحيحاً إلا باتباع المنهج الرباني، وهذا المنهج يجعلنا ندرك العلاقة السليمة بين الأحداث التاريخية. ومن السنن الربانية أيضاً أن زوال الأمم يكون بالتترف والفساد، فإذا ما تجسرت أمة من الأمم وعلت في الأرض وأصابها البطر والكبرياء هيا الله لها أسباب الانهيار والزوال، قال الله تعالى (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً)^(١)، أي أمرناهم بالأمر الشرعي من فعل الطاعات وترك المعاصي، فعصوا وفسقوا، فحق عليهم العذاب والتدمير، جزاء فسقهم وعصيانهم. والتترف - وإن كان كثرة المال والسلطان من أسبابه - إلا أنه حالة نفسية ترفض الاستقامة على منهج الله. وليس كل ثراء ترفاً.

ومن السنن الربانية أيضاً أن هلاك الأمم يكون بفشو الظلم وعدم إقامة العدل. يقول الله عز وجل في الحديث القدسي (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا)^(٢). فإذا اختلفت الموازين، وانعدمت القيم، وتحكم الأقوياء في الضعفاء، وأخذوا يتلاعبون بحدود الله، فقد آذنتهم الله بالهلاك ووقعت القاصمة. قال الله تعالى (وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قومًا آخرين)^(٣).

وعندما نرصد التجربة الإسلامية في الأندلس من خلال الرؤية الحضارية الشاملة المستوعبة للعوامل العامة والخاصة تقع على أسباب كثيرة تفسر لنا سقوط الأندلس. وبعض هذه الأسباب تضرب بجذورها إلى مطلع الوجود الإسلامي هناك، فمن أهمها:

١- النزاع والخلاف والتناقص بين عناصر المسلمين في الأندلس، بين العرب اليمنية والقيسية، وبين العرب والبربر، وبين العرب والمولدين. ولقد بدأت الفتن والاضطرابات والحروب التي وقعت بين هذه العناصر بعضها والبعض - بدأت مبكراً منذ بدايات الفتح، وقادها زعماء كثيرون من مختلف العناصر واستمرت استمراراً يكاد يكون متصلًا، ولم تكن تهدأ إلا تحت ضغط القوة، وما تكاد تهدأ حتى تبدأ من جديد عندما تضعف هذه القوة، بحيث يمكن القول: إن هذه الفتن والحروب قد صحبت تاريخ المسلمين

(١) سورة الإسراء الآية (١٦). وقرأ مطلع سورة الفجر.

(٢) رواه مسلم في صحيحه حديث رقم (٢٥٧٧).

(٣) سورة الأنبياء، الآية (١١).

فى الأندلس من بدايته إلى نهايته إلا فى عهود بسيطة شهدت فترة من الاستقرار طللت أو قصرت . يقول الله عز وجل (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين)^(١). ويقول (حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون. منكم من يريد الدنيا، ومنكم من يريد الآخرة..)^(٢).

٢- الاستهانة بالأعداء أثناء فترات القوة . وأبرز مظهر لهذا الخطأ: استهانة المسلمين خلال فترة الفتح الأولى بمنطقة "كوفادونجا" (صخرة بلاى)^(٣) فى جبال "كنتبيرة" فى الشمال. وكانت هذه البؤرة بمثابة الجرح الذى سرت سمومه فى الجسد كله، وبعد فترة وجيزة تكونت المملكة النصرانية - "أراجون" و"جليقية" (ليون) وقشتالة"، وأصبحت كالسرطان فى جسم الأندلس . وكان الوعي (الاستراتيجي) يوجب أن يظل الهدف الأندلسى الثابت. هو طرد هذه القوى، وتوحيد الأندلس طبيعياً وجغرافياً حتى تصبح جبال "البرتات" فاصلاً طبيعياً حقيقياً. وهذا - وإن كان قد تحقق فى بعض السنوات المعدودة - لكن سرعان ما تبدد وانتهى بعد معركة (بلاط الشهداء) سنة (١١٤هـ)^(٤) وانشغال المسلمين بالنزاع والتخاصم والحروب والفتن . ولا شك أن هذا التراجع يُعدُّ خطأ كبيراً وقع فيه مسلمو الأندلس . وقد تكررت هذه الأخطاء حينما تقدم نصارى أسبانيا فاحتلوا مدينة "طليطلة" قلب الأندلس - (سنة ٤٧٨م/١٠٨٥هـ) فاستهان المسلمون بسقوطها ، مع أن هناك فترات سمحت لهم باستردادها أيام المرابطين الذين انتصروا فى موقعة "الزلاقة"^(٥) (سنة ٤٧٩هـ) وكذلك فى أيام الموحدين، فانتسع الخرقُ وأصبحت الأندلس فى موقف الدفاع الهزيل.

٣- وكان لنظام ولاية العهد الوراثى - مع عدم الجدارة- أثره الخطير فى سقوط الأندلس. وأوضح مثل على هذا هو تولية الحكم (المستتصر) (المتوفى ٣٦٦هـ) ابنه هشاماً الذى لم يكن قد بلغ الحلم^(٦) ولم يجمع الصفات الأساسية التى تؤهله للخلافة،



(١) الأنفال ، الآية (٤٦).

(٢) آل عمران ، الآية (١٥٢).

(٣) راجع ما ذكرناه عنها (ص ٢٩).

(٤) راجع عنها (ص ٤٩-٥١).

(٥) راجع عنها (ص ١٥٦).

(٦) راجع عن ذلك (ص ١٢٥ وما بعدها).

فكانت ولايته سبباً في مصائب كثيرة ، أخطرها سقوط الخلافة الأموية في الأندلس (سنة ٤٢٢هـ) وتفكك البلاد إلى أحزاب وطوائف، واستمر هذا الحال ينخر في جسم الدولة الإسلامية حتى عهدها الأخير.

٤- ومما أثر في علاقة مسلمي الأندلس بالممالك النصرانية وأضعف الجبهة الداخلية: خصومة العباسيين والفاطميين للأمويين في الأندلس، فعندما كانت تلك البلاد تابعة للخلافة الأموية في المشرق استطاع ولاتها أن يصلوا في فتوحاتهم حتى قرب (باريس) [معركة بلاط الشهداء]. أما في عهد بني أمية الذين استقلوا بالأندلس عن الخلافة العباسية ثم أخذوا يتصارعون معهم (نسبياً)، ومع الخلافة الفاطمية على أرض المغرب الأقصى، فقد شغلهم هذا عن تأمين دولتهم الإسلامية الناشئة في تلك البلاد النائية أي الأندلس (بصورة كافية) ضد الممالك النصرانية في المنطقة الشمالية ولو أمّن العباسيون والفاطيون ظهور أمويي الأندلس لكان لصراع هؤلاء مع أعدائهم من الأسبان شأن آخر، ولتغير مصير البلاد عما انتهى إليه بكل تأكيد. لكن النزاع بين الخلافتين الثلاثة: العباسية والفاطمية والأموية جاء (بجانب العوامل الأخرى) بتلك النتيجة المحزنة، وهي ضياع الأندلس في النهاية وانحسار المد الإسلامي في شبه الجزيرة^(١).

٥- ويعتبر التفكك السياسي الذي ساد الأندلس نتيجة انفراط عقد الخلافة الأموية إلى اثنتين وعشرين دولة (أو طائفة) سبباً مباشراً في السقوط . وقد حفل عهد الطوائف هذا بمظاهر سقوط كثيرة وشنيعة. تولدت عن التفكك السياسي، وأخطرها التنافس على السلطة، والقتال الداخلي وكانت هذه الطوائف والممالك - كما يقول ابن حزم الأندلسي (المتوفى ٤٥٦هـ) - ((نُظُمٌ مستهينة بالدماء، مكنة من أسباب السرف وضروب العمران، واستجلاب المناققين من الكتاب والوزراء والشعراء، وقد نشأ بينها من المفاصد ما أعوز دفعه، وتعد وتره وشدة، واستحكم ضرره، حتى لم يمكن دفعه)). وعوضاً عن أن تتحد قواهم في مواجهة عدو مشترك تشتتوا وتقاتلوا، حتى ضعفت عزائمهم، فلم يستطيعوا أن يصمدوا أمام هجمات جيوش الممالك النصرانية. وكانت حروبهم الداخلية سبباً في أن يستجد بعض هؤلاء الملوك والأمراء بقوات من النصارى ليستعينوا بها على منافسيهم من الملوك المسلمين، مغلبين بذلك المصالح الخاصة على المصلحة الإسلامية

(١) راجع : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية للدكتور رجب محمد عبد الحليم ص ٤٨٣-٤٨٤.

الواحدة، وبالتالي التحالف مع أعدائهم ضد إخوان العقيدة وشركاء الحضارة والمصير، مما أتاح الفرصة للممالك النصرانية أن يبدأوا - من هذا العصر الشاذ - رحلة حروب الاسترداد للطويلة الكئيبة.

وفى ضوء هذا فإن هؤلاء الأمراء والملوك، وهذه الإمارات والممالك الطائفية التي ورثت الخلافة الأموية في الأندلس تتحمل الوزر الأكبر في وضع بذور السقوط. ولقد صدق ابن الشباط التوزري (المتوفى ٦٨١هـ) حين قال ((إن المسلمين بالأندلس لم يقصدهم عدو إلا هزم وانصرف مغلوبا. وإنما خذلهم التحاسد، وفرط الخلاف، والتباغض، وقلة الإنصاف))^(١).

٦- كثرة الثائرين والمتمردين، نتيجة غياب العدل (في بعض الفترات) وغياب المؤسسات الكفيلة بتحقيق المساواة بين الجميع. وقد وجدت هذه الثورات في العصر الأموي كله، وخاصة في فترة الطوائف الأولى (التي اصطلحنا على تسميتها بالفتنة الكبرى) في عهد الأمراء الثلاثة (٢٣٨ - ٣٠٠ هـ) محمد بن عبد الرحمن، وابنيه المنذر وعبد الله. ويكفي للاستدلال على تأثير هذه الثورات التخريب الذي أحدثته ثورة عمر بن حفصون بين عامي (٢٦٥-٣٠٥ هـ) ثم أولاده من بعده إلى (سنة ٣١٦ هـ) حين استولى عبد الرحمن الناصر على قلعة "ببشتر" والجنوب كله. وهي القلعة التي كان يتحصن بها ابن حفصون طيلة حروبه مع السلطة الأموية^(٢). وقد كثرت الثورات في عصر الطوائف الثاني (بعد سقوط الخلافة الأموية)، وفي أواخر دولة بني الأحمر ملوك "غرناطة"، حيث كثرت الحروب الداخلية والتنافس على حكم المملكة.

٧- وهناك عامل جغرافي يتمثل في بعد الأندلس عن بلاد المسلمين في المشرق مما جعلها تحمل وحدها عبء الدفاع عن كيائها، إلا ما كان من دول شمال إفريقية عند الاستتجاد بها في مرحلة الخطر، كالمرابطين، والموحدين، وبني مرين. ولعل ذلك يفسر رأى الخليفة عمر بن عبد العزيز؛ فقد كان يرى أن يعود المسلمون منها لانقطاعهم وراء البحر عن إخوانهم^(٣). وهذا العامل الجغرافي - وإن لم يكن ذا تأثير كبير في فترة القوة

(١) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس (نص ابن الشباط) ص ٧٤. (٢) راجع ما ذكرناه عن ذلك (ص ٨٠-٨٣)

(٣) راجع عن ذلك (ص ٤٥)

(قبل عصر الطوائف) فإنه كان بعيد الأثر في غربة الإسلام بشبه الجزيرة الإيبيرية في الفترة الأخيرة من عصر مملكة غرناطة.

٨- ومن العوامل التي ساعدت على السقوط أن المسلمين في الأندلس كانوا بإزاء أمة مقاتلة تعتبر من أكثر شعوب أوروبا تعصباً للمسيحية، وهم الأسبان الذين سيطر عليهم هدف واحد، هو إخراج المسلمين من شبه الجزيرة بأي وسيلة، والنشأ لهم هزائمهم منهم^(١). ومن الوسائل التي سلكوها للوصول إلى هذا الهدف:

أ - العمل على تفريق كلمة المسلمين وضرب بعضهم ببعض حتى تَنُوب معالم العقيدة الجامعة بينهم.

ب- العمل على وحدة الممالك النصرانية بمؤازرة من الدول الأوروبية، خشية من الزحف الإسلامي حتى لا يسيطر على بقية أوروبا. وقد كان اتحاد مملكتي "قشتالة" و"أرجون" هو التتويج العملي النهائي لجهود الوحدة.

ج- الغدر الدائم بالعهود والمواثيق، واعتبارها مرحلة تمليها الظروف، وفي خلالها يتم اتخاذ إجراءات وضغوط من شأنها إضعاف الطرف المسلم، والتمهيد للوثبة التالية. وكتب التاريخ الأندلسية مليئة بذكر هذا السلوك في علاقات إسبانيا النصرانية مع الأندلس الإسلامية.

٩- ومن الأمور التي حدثت في زمن بني الأحمر ملوك غرناطة وساعدت على السقوط: سوء تصرف بعض حكامهم، والشذوذ في تصرفاتهم، والانشغال بالنزاعات وصرف الجهود في الخصومات، ومن ذلك:

أ- المعاهدات السرية التي كانت تُبرم مع الممالك الشمالية، وأكثر ما كانت تتضمنه التنازل عن الكُور والقلاع، والتعاون معهم ضد المسلمين. وقد تجلى ذلك في ملوك غرناطة - بخاصة ولاسيما في العصر الأخير.

ب- خيانة بعض العائلات المعروفة في مملكة غرناطة، مثل عائلتي "بنى سراج" و"بنى أشقيلولة" اللتين استمرتتا على تواطؤهما مع نصارى الشمال ضد عائلة بنى نصر حكام غرناطة.

(١) د. لطفى عبد البديع: الإسلام في إسبانيا ص ١٣.

ج- قيام بعض السلاجقة بنى نصر برهن أبنائهم لدى ملوك النصارى مقابل الوصول إلى الحكم. وقد شكل هذا السلوك ضغطاً شديداً، وأدى إلى التسليم بامتيازات كثيرة للأعداء.

د- أدى طموح الوزراء فى السلطة واستبدادهم بها الى قيام الوزير خالد (وزير السلطان يوسف الثانى ٧٩٣-٧٩٧هـ) بقتل إخوة السلطان يوسف الثلاثة: سعد ومحمد ونصر، حبا فى السلطة دون وازع من دين أو خلق .

هـ- وُعدَّ عقوق الأبناء للأباء فى دولة بنى نصر من أهم أسباب السقوط . ومن ذلك عقوق الأمير أبى الحسن (على بن سعد ٨٦٩-٨٨٧هـ) لوالده سعد بن على (٨٦٠-٨٦٩هـ) وقيامه بخلعه، تحقيقاً لمؤامرة (بنى سراج) الطامحين فى الحكم، مما أدى إلى تدخل ملوك النصارى فى شئون البلاد.

وهذا لا يعنى أن والده (سعد بن على) كان مخلصاً، فقد وصل إلى الحكم بمساعدة ملك قشتالة: هنرى الرابع (٧٨٩هـ = ٤٧٤م) وبمعاونة بنى سراج (سنة ٨٥٩هـ). كما أنه قدم ابنه أبى الحسن (على) وسبعين فارساً رهينة للملك القشتالى (هنرى) ليساعده ضد محمد (الحادى عشر) سلطان غرناطة الشرعى. وبناء على هذا فقد وضع هنرى الرابع لجيشه خطة تُقضى إلى تدمير قرى المسلمين الحيوية. وقد استمر ثلاثة أسابيع فى حرق القرى والمحاصيل الزراعية من أجل إفقار غرناطة وسلطانها على المدى الطويل، وكل ذلك بسبب حمالة سعد بن على واستعانتة بملوك قشتالة.

و- ومن نتائج ضعف العقيدة والإيمان: فتور الغيرة والولاء للإسلام وهبوط الشعور الإسلامى العام. ومن أمثلة ذلك فى دولة بنى نصر: إرسال أبى عبد الله الصغير [الحادى عشر: ٨٨٧-٨٨٩هـ (الولاية الأولى) - (٨٩٢-٨٩٧هـ) (الولاية الثانية)] تهنة لملك قشتالة بمناسبة استيلائه على مدينة "مالقة" الإسلامية، كما أن جيوش ملك قشتالة استولت على قرطبة (فى شوال ٦٣٣هـ) بمساعدة فرقة أرسلها ابن الأحمر (مؤسس مملكة غرناطة ٦٣٥-٦٧٧هـ)، وتنازله عن "دانية" و"أرجونة" و"جيان" وقلعة جابر و"أرض القرنيرة" ومن أخطائه الشنيعة أيضاً مساعدته للقشتاليين عند استيلائهم على "إشبيلية". وقد سقطت حول "إشبيلية" عشرات المدن والقرى الصغيرة دون قتال بفضل تدخل ابن الأحمر، ومنع هذه المدن والقرى من القتال بدعوى عدم جدوى المقاومة.

١٠- التكاثر المادى وتبديد طاقة الأمم فى بناء القصور المترفة ووسائل الزينة والراحة والدعة. ونذكر هنا (زهراء) الناصر، و(زاهرة) ابن أبى عامر، و(حمراء) بنى الأحمر فى غرناطة. وهى مجرد أمثلة.^(١)

لقد كان إسراف بنى أمية وبنى عامر فى مشروعاتهم العمرانية والحربية من العوامل التى أثرت فى علاقاتهم مع نصارى الأسبان، وأدت إلى انهيار دولتهم، وترتب على ذلك انفراط عقد الوحدة الأندلسية. وقد قام بعض الفقهاء للتحذير من هذا الإسراف^(٢). لكن حكام ذلك العصر لم يلتفتوا إلى ذلك، وقاموا ببناء مدن وقصور إرضاء لحظية من الحظايا، أو تخليداً لاسم محبوب، كما استغفدت حروبهم العديدة المستمرة فى شمال إسبانيا وفى شمال إفريقية جانباً كبيراً من دخل الدولة، وأجهدت قواها، وترتب على ذلك نتيجة فى منتهى الخطورة؛ ذلك أنه - فى عصر ملوك الطوائف - كان لا يمكن لهؤلاء الملوك أن يحصلوا على مثل تلك الأموال الطائلة للقيام بمشروعات حربية مماثلة ضد نصارى الشمال الإشباني، بسبب تفتت البلاد، وتعدد الخزائن التى تجبى إليها الأموال بتعدد الملوك. ومن هنا أتى العجز الشامل الدائم، والضعف المستمر أمام القوى الشمالية فى (قشتالة) و(ليون) و(نبرة) و(أرغون) و(برشلونة). وهذا الضعف الاقتصادى والعجز المالى يفسر لنا سراً من أسرار سقوط طليطلة فى يد الفونسو السادس (عام ٤٧٨هـ/١٠٨٥م)^(٣).

ومع تقديرنا لكل الأسباب الداخلية والخارجية التى لا يمكن تجاهلها والتى أدت فى النهاية الى سقوط الأندلس، ومع أننا نؤمن بأن أسباب كثيرة تتفاعل - وقد تفاعلت فعلاً فى حالة غرناطة - كى تصل بالدولة أو الأمة إلى السقوط، ولا يكفى سبب واحد مادى أو معنوى لسقوط الأمة أو الحضارة. ومع أننا نؤمن بأن سقوط غرناطة كان حصاد عوامل كثيرة من أبرزها نسيان تعقيدة والرسالة الدينية التى قامت عليها الأندلس وانتصر بسببها جيش الفتح المكون من أخلاط من البشر الذين لا توحدهم إلا العقيدة، ولم يكن يزيد

(١) للدكتور عبد الحليم عويس رسالة بديعة بعنوان (التكاثر المادى وأثره فى سقوط الأندلس (ط دار الصحوة للنشر، القاهرة ١٩٩٤م).

(٢) قصة القاضى المنذر بن سعيد البلوطى مع عبد الرحمن الناصر الذى بنى مدينة الزهراء - راجع نفع الطيب ج ١/ ص ٥٧٠ - ٥٧٤.

(٣) راجع: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية، للدكتور رجب محمد عبد الحليم ص ٤٨٦-٤٨٧.

عدهم عن (عشر) الجيش النظامي الذي يقاتلونه، فضلاً عن ضالة إمكاناتهم التي قاتلوا بها تحت قيادة القائد المسلم البربري طارق بن زياد - نقول: مع أننا نأخذ كل ذلك في تقديرنا إلا أننا نعتقد أن (التكاثر المادي) والتكاليف على وسائل الترف من قصور ومدن ملكية وأساليب فنية وترفيهية تزيد عن الحدود التي رسمها الإسلام وتستنزف طاقة الأمة، وتصبغ الحياة بصبغة مادية ناعمة مترفة، نعتقد أن هذا السبب - بكل آثاره السلبية والمعنوية - كان من أقوى الأسباب في سقوط غرناطة، والأندلس كلها، وقد ظل هذا السبب يعمل عمله فترات طويلة حتى أصبحت المادة مسيطرة على منهج الحياة، متجاهلين صناعة الإنسان وفاعلية العقيدة، ومعاني الأخوة الإسلامية، وواجبات الإنسان المسلم الحضارية تجاه الإنسانية كلها.

ومن منطلق طغيان هذا الاتجاه ازدرى الأندلسيون إخوانهم "المرابطين" عندما ساعدوهم، وحكموا بلادهم، وكانوا ينظرون إلى أنفسهم في ظل تفككهم وهوانهم على أعدائهم، وتأكلهم وانحلالهم على أنهم أرقى حضارة من "المرابطين" (البدو)، ومن ثم كانوا يستقلونهم، ويشعرونهم بالإهانة، وهم لا يدرون أنهم - بهذا - يهيمون قيم الأخوة الإسلامية، وينظرون إلى الحضارة من منظور المدنية المادية وحدها.

وفي الأيام الأخيرة لغرناطة كانت هذه الآفة للمادية قد باضت وأفرخت وأصبحت فلسفة وهدفاً، فلماذا - ومع تقديرنا لكل عوامل السقوط - لم تسقط غرناطة بالحرب فقط بل سقطت - وبدرجة كبيرة - لسيطرة هذا العامل المادي على منهج الحياة^(١).

وخلاصة القول: إن ضعف الفقه الحضاري، وغياب الوعي بسنن الله تعالى في الحياة، التي تحكم حركة المجتمعات وتقوم الأمم أو سقوطها كانا وراء انحدار الأمور في الأندلس على مستوى الحكام والمحكومين. وكلا الطرفين يتحملان تبعه هذا السقوط. وصدق الله العظيم إذ يقول (ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وأن الله سميع عليم)^(٢).

(١) راجع: د. عبد الحليم عويس: أربعون سبباً في سقوط الأندلس ص ٢٩ - ٣١ (ط دار الصحوة للنشر ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).

(٢) سورة الأنفال، الآية (٥٣).

المصادر والمراجع

أولاً : القرآن الكريم.

ثانياً : المصادر القديمة.

- ١- الإحاطة فى أخبار غرناطة - لابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م): أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله السلماني المعروف بلسان الدين بن الخطيب / الشركة المصرية للطباعة والنشر: الخانجي / القاهرة / ط٢ (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م).
- ٢- أخبار مجموعة فى فتح الأندلس - لمؤلف مجهول / نشره دون لافونتي / مدريد ١٨٦٧م.
- ٣- الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى - لأبى العباس أحمد بن خالد الناصري. السدار البيضاء ، ١٩٥٤م.
- ٤- الاستيعاب فى معرفة الأصحاب - لأبى عمر يوسف بن عبد العزيز النمري القرطبي (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م) - مكتبة نهضة مصر ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.
- ٥- أعمال الأعلام فى من بُويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام - لسان الدين بن الخطيب السلماني الغرناطي (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م) // تحقيق وتعليق ليفى بروفنسال / دار الكشوف، بيروت، لبنان/ ط٢ (١٩٥٦م).
- ٦- بغية الملتبس فى تاريخ رجال أهل الأندلس - لأحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي الأندلسي (ت ٥٩٩هـ/١٢٠٢م) - سلسلة تراث المكتبة الأندلسية (رقم ٦) - دار الكاتب العربى، لبنان ١٩٧٦م.
- ٧- البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب (خمس أجزاء) - لأبى عبد الله محمد المشهور بابن عذارى المراكشى / حققه بروفنسال وآخرون - دار الثقافة، بيروت، لبنان ١٩٨٣م.
- ٨- تاريخ افتتاح الأندلس - لأبى بكر عبد العزيز بن إبراهيم الأندلسي، المعروف بابن القوطية / دار الكتاب المصرى بالقاهرة، دار الكتب الإسلامية، بيروت ط١

(١٩٨٢م) // بتحقيق إبراهيم الأنباري / وطبعة أخرى بتحقيق عبد الله أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، بيروت ١٩٥٨م.

٩- تاريخ الأندلس لأبي مروان عبد الملك بن الكردبوس التّوّزري / (نص ابن الشباط) - تحقيق د. أحمد مختار العبادي، (مجلة معهد الدراسات الإسلامية - مدريد ١٩٧١م).

١٠- تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس - لأبي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي الأندلسي، المعروف بابن الفرضي (ت ٤٠٣هـ / ١٠١٢م) / مكتبة الخانجي بالقاهرة / ط ٢ (١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م).

١١- تاريخ قضاة قرطبة - لأبي عبد الله محمد بن الحارث بن أسد القيرواني (ت ٣٦١هـ) // الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦م.

١٢- ترتيب والمدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك - لأبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت ٥٤٤هـ / ١١٤٩م) - دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ودار مكتبة الفكر طرابلس، ليبيا، ١٩٦٥م.

١٣- التكملة لكتاب الصلة - لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي المعروف بابن الأبرار (ت ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) - مكتبة الخانجي بالقاهرة والتمثي ببغداد ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م.

١٤- جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس - لأبي عبد الله محمد بن أبي نصر ابن حميد الأزدي الأندلسي (ت ٥٨٨هـ / ١٠٩٥م) // سلسلة المكتبة الأندلسية (رقم ٥) - مطبعة نهضة مصر، القاهرة (١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م). بتحقيق إبراهيم الإيباري.

١٥- جمهرة أنساب العرب - لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي المعروف بابن حزم (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م) // دار المعارف بالقاهرة (١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م)، بتحقيق عبد السلام هارون.

١٦- الحلة السيرة - لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي المعروف بابن الأبرار (ت ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) - دار المعارف / ط ٢ (١٩٨٥م) بتحقيق د. حسين مؤنس.

- ١٧- الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب - لبرهان الدين إبراهيم بن على بن محمد بن فرحون اليعمرى المالكى (ت ٧٩٩هـ/١٣٩٦م) - ط دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (فى مجلد) - وطبعة أخرى (فى مجلدين) - مطبعة دار النصر، ودار التراث للطبع والنشر ١٩٧٢م، بتحقيق محمد الأحمدى أبو النور.
- ١٨- الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة - لأبى الحسن على بن بسّام الشنترينى الأندلسى (ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م) - دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط ٢ (١٣٣٩هـ/١٩٧٩م)، بتحقيق إحسان عباس.
- ١٩- الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة - لأبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشى (ت ٧٠٣هـ/١٣٠٣م) - دار الثقافة، بيروت، لبنان ١٩٦٥م بتحقيق إحسان عباس، محمد بن شريفة.
- ٢٠- الروض المعطار فى خبر الأقطار - أنظر: صفحة جزيرة الأندلس.
- ٢١- الصلة - لأبى القاسم خلف بن عبد الملك الأندلسى (ت ٥٧٨هـ/١١٨٢م) - سلسلة المكتبة الأندلسية (رقم ٤) الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م.
- ٢٢- طبقات الأطباء والحكماء - لأبى داود سليمان بن حيان الأندلسى المعروف بابن جُنْجُل (ت بعد ٣٧٧هـ/٩٨٧م) - مطبعة العهد العلمى الفرنسى للأثار الشرقية، القاهرة ١٩٥٥م. بتحقيق فؤاد السيد.
- ٢٣- طبقات الأمم - لأبى القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسى (ت ٤٦٢هـ/١٠٧٠م) - المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين / بيروت ١٩١٢م.
- ٢٤- طوق الحمامة - لأبى محمد على بن أحمد بن سعيد المعروف بابن حزم (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٣م) - مكتبة عرفة، دمشق ١٣٤٩هـ.
- ٢٥- العبر فى خبر من غبر - لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبى الدمشقى (ت ٧٤٨هـ/١٣٧٤م) - ط الكويت.
- ٢٦- العبر (تاريخ ابن خلدون) - لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م) -

مكتبة دار الثقافة

- ٢٧- عيون الأنباء في طبقات الأطباء - لأبي العباس أحمد القاسم بن خليفة الدمشقي المعروف بابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ/١٢٦٩م) - دار مكتبة الحياة، بيروت، تحقيق نزار رضا.
- ٢٨- فتوح مصر والمغرب - لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المصري (ت ٢٥٧هـ/م) - ط الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، بتحقيق شارلز توري.
- ٢٩- الكامل في التاريخ - لمحمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، ابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) - دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- ٣٠- المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا (المعروف بتاريخ قضاة الأندلس) - لأبي الحسن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي (ت ٧٩٣هـ/١٣٩٠م) - ط المكتبة التجارية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان. بدون تاريخ.
- ٣١- المعجب في تلخيص أخبار المغرب - لأبي محمد عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي (ت ٦٢١هـ/١٢٢٤م) - مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٤٩م.
- ٣٢- معجم الأدباء لأبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي. (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) - دار المأمون، القاهرة ١٩٣٦م.
- ٣٣- المغرب في حلى المغرب لعل بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد الأندلسي (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م) - دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٠م بتحقيق د. شوقي ضيف.
- ٣٤- المقتبس من أنباء أهل الأندلس - لأبي مروان حيان بن خلف بن حيان القرطبي (ت ٤٦٩هـ/١٠٧٦م).
- قطعة (أحداث سنة ٢٣٢ - ٢٦٧هـ) - بتحقيق د. محمود علي مكي - دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
- قطعة (أحداث سنة ٢٧٥ - ٣٠٠هـ) - تحقيق د. إسماعيل العربي - منشورات دار الآفاق الجديدة بالمغرب ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

- قطعة (أحداث سنة ٣٠٠ - ٣٣٠هـ) - نشرها بنو شالمينا - المعهد
الإسباني العربي للثقافة، كلية الآداب بالرباط - ومريد ١٩٧٩م.
- قطعة (أحداث سنة ٣٦٠ - ٣٦٤هـ) - تحقيق د. عبد الرحمن الحجى -
دار الثقافة، بيروت، لبنان ١٩٨٣م.

- ٣٥- مقدمة ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥): عبد الرحمن بن محمد بن خلدون/
بتحقيق د. على عبد الواحد وافي/ لجنة البيان العربي، ١٤٨٤هـ/١٩٦٥م.
- المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس - لأبى عبد الله محمد بن أبى القاسم الرعينى
القيروانى، ابن أبى دينار ط تونس ١٩٦٧م.
- ٣٦- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - لأحمد بن محمد بن أحمد المقرئ
التلمسانى (ت ١٠٤١هـ/١٦٣٢م) - دار صادر، بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م،
بتحقيق د. إحسان عباس.
- ٣٧- وفيات الأعيان - لأبى العباس أحمد بن إبراهيم بن خلكان (ت ٦٨١هـ/١٢٨٧م)
- دار صادر، بيروت ١٩٦٨م. بتحقيق إحسان عباس.

ثالثاً : المراجع الحديثة

- ٣٨- الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة - للدكتور أحمد هيكى - ط دار
المعارف، القاهرة - الطبعة الثامنة ١٩٨٢م.
- ٣٩- الإسلام فى إسبانيا - للدكتور لطفى عبد البديع / مكتبة النهضة المصرية، الطبعة
الثانية ١٩٦٩م.
- أطلس التاريخ افسلامى - للدكتور حسين مؤنس.
- ٤٠- الأندلس فى التاريخ - للدكتور شاكى مصطفى/ منشورات وزارة الثقافة، دمشق
١٩٩٠م.
- ٤١- أندلسيات - للدكتور عبد الرحمن الحجى / المجموعة الأولى، ط بيروت
١٣٨٨هـ/١٩٦٩م.
- ٤٢- التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى إلى سقوط غرناطة (٩٢ - ٨٩٧هـ) -
للدكتور عبد الرحمن الحجى/ دار التعلم، دمشق، الطبعة الخامسة
١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

- ٤٣- تاريخ البحرية الإسلامية فى حوض البحر الأبيض المتوسط (الجزء الثانى):
البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس) - للدكتور السيد عبد العزيز سالم، دكتور
أحمد مختار العبادى - مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٩٣م.
- ٤٤- تاريخ الفكر الأندلسى - أنخل جُنثالث بالنثيا / ترجمة د. حسين مؤنس - مكتبة
الثقافة الدينية، القاهرة.
- ٤٥- تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس من الفتح حتى سقوط الخلافة بقرطبة
- للدكتور السيد عبد العزيز سالم - مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، بدون
تاريخ.
- ٤٦- تاريخ النصرى فى الأندلس - للدكتور عبادة كحيلة - ط القاهرة
١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
- ٤٧- تراجم إسلامية مشرقية وأندلسية - للأستاذ محمد عبد الله عنان/ مكتبة الخانجي،
القاهرة الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ/ ١٩٨٠م.
- ٤٨- التطور السياسى للمغرب من الفتح الإسلامى إلى آخر القرن العاشر
الهجرى - للدكتور طاهر راغب حسين/ ط القاهرة ١٩٩٤م.
- ٤٩- ثورات البربر فى الأندلس فى عصر الإمارة الأموية (١٢٨-٣٦٦هـ) -
للدكتور حمدى عبد المنعم محمد حسين / مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية
١٩٩٣م.
- ٥٠- جغرافية الأندلس وأوروبا (منتخب من كتاب : المسالك والممالك لأبى عبيد
البكرى ت ٤٨٧هـ) انتخاب وتحقيق د. عبد الرحمن الحجى/ ط بيروت
١٣٧٨هـ/ ١٩٦٨م.
- ٥١- الحركة اللغوية فى الأندلس من الفتح حتى نهاية عصر الطوائف - إلبير
حبيب مطلق/ ط المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ١٩٦٧م.
- ٥٢- دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة - للدكتور الطاهر أحمد مكى -
دار المعارف بالقاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٨٧م.
- ٥٣- دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس - للدكتور أحمد مختار العبادى / ط
مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، بدون تاريخ.

- ٥٤- دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس - للدكتور حسن على حسن، والدكتور عبد الفتاح فتحى عبد الفتاح /مكتبة الشباب، القاهرة ١٩٩٨م.
- ٥٥- دولة الإسلام فى الأندلس - للأستاذ محمد عبد الله عنان (موسوعة فى سبعة أجزاء) - مكتبة الخانجى بالقاهرة، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- ٥٦- السفارات بين الأندلس والدول الأجنبية فى العصر الأموى (١٣٨-٤٢٢هـ) - للدكتور حسين يوسف دويدار /مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- ٥٧- صفة جزيرة الأندلس (منتخب من : الروض المعطار فى خبر الأقطار لابن عبد المنعم الحميرى المتوفى حوالى ٧٢٧هـ/١٣٢٦م) - نشره ليفى بروفنسال، القاهرة ١٩٣٧م.
- ٥٨- العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية فى عصر بنى أمية وملوك الطوائف - للدكتور رجب محمد عبد الحليم/ط دار الكتاب المصرى، القاهرة، بدون تاريخ.
- ٥٩- فجر الأندلس - للدكتور حسين مؤنس/ط القاهرة ١٩٥٩م.
- ٦٠- فى تاريخ المغرب والأندلس - للدكتور أحمد مختار العبادى /مؤسسة شباب الجامعة، الأسكندرية ١٩٨٥م.
- ٦١- قرطبة الإسلامية فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى): الحياه الاقتصادية والاجتماعية - للدكتور محمد عبد الوهاب خلاف - ط الدار التونسية للنشر ١٩٨٤م.
- ٦٢- القضاء فى المغرب والأندلس خلال العصور الوسطى - للدكتور على أحمد / ط دار حسان، دمشق ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- ٦٣- معالم تاريخ المغرب والأندلس - للدكتور حسين مؤنس/ ط القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٨٠م.
- ٦٤- المجتمع الأندلسى فى العصر الأموى (١٣٨-٤٢٢هـ) - للدكتور يوسف دويدار - مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

٦٥- المسلمون في الأندلس - للدكتور عبد الله جمال الدين (الجزء السابع من موسوعة سفير للتاريخ الإسلامية في عشرة أجزاء) - القاهرة ١٩٩٦م.

٦٦- المسلمون في الأندلس - رينهرت دوزي - ترجمة د.حسن حبشى - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م.

٦٧- موسى بن نصير مؤسس المغرب العربي - للدكتور إبراهيم العدوى - دار الكاتب العربي، القاهرة ١٩٦٧م.

رابعاً : الرسائل العلمية والبحوث المنشورة في الدوريات العلمية المتخصصة:

٦٨- الإسلام في أرض الأندلس - بحث للدكتور أحمد مختار العبادي، منشور بمجلة عالم الفكر، عدد خاص بعنوان "دراسات إسلامية".

٦٩- البحرية العربية في الأندلس منذ بداية تأسيسها إلى عهد الخليفة الناصر بحث لمحمد عبد العزيز عثمان - مجلة المورد، المجلد الثاني عشر، العدد الرابع ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.

٧٠- التشيع في الأندلس - بحث للدكتور محمود على مكى، بمجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية. بمدريد، المجلد الثاني ١٩٥٤م.

٧١- الجوانب الحضارية في بغداد وقرطبة في القرنين الثالث والرابع الهجريين: دراسة في الحياة العلمية (رسالة دكتوراه) - من إعداد: طه عبد المقصود عبد الحميد، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة ١٩٩٨م.

٧٢- سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس - بحث للدكتور أحمد مختار العبادي - مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد - المجلد الخامس ١٩٥٧م.

٧٣- نُظْم وإدارة بنى أمية بالأندلس من خلال (المقتبس) لابن حيان - للدكتور التهاى الراجحي الهاشمي/مجلة (المنهل) عدد ٢٩ (١٤٠٥هـ/١٩٨٤م).

٧٤- نفوذ الصقالبة في الأندلس في عصرى الإمارة والخلافة: (١٣٨-٣٦٦هـ) - بحث للدكتورة وفاء عبد الله سليمان (قدوة: الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات) - مكتبة الملك عبد العزيز، الرياض ١٩٩٣م.

مكتبة الملك عبد العزيز

الفهرست

الصفحة	الموضوع
٣	- افتتاحية
(١١-٣)	- مقدمات (مداخل) ضرورية
٤-٣	أولاً : مصطلح الأندلس ومدلوله
٦-٤	ثانياً : لمحـه جغرافية عن شبه الجزيرة الأيبيرية
٧-٦	- الثغور الأندلسية
١٠-٧	ثالثاً : إسبانيا قبل الفتح الإسلامي
١١-١٠	رابعاً : العهود الإسلامية التي مرت بها الأندلس
	<u>الفصل الأول</u>
(٣٧-١٢)	الفتح الإسلامي لإسبانيا (٩٢-٩٥هـ)
١٢	- أسباب الفتح
١٥-١٣	- مقدمات الفتح - ملاحظتان مهمتان
(٢٦-١٥)	- مراحل الفتح
١٦-١٥	أولاً : عبور طارق بن زياد بقواته إلى إسبانيا
١٩-١٦	ثانياً : معركة شنونة (وادي برباط/وادي لكه)
٢١-١٩	ثالثاً : الاتجاه نحو الشمال وفتح طليطلة عاصمة القوط
٢٦-٢١	رابعاً : عبور موسى بن نصير إلى الأندلس واستكمال الفتح
٢٩-٢٦	- ملاحظتان مهمتان حول الفتح
(٣٧-٣٠)	- عناصر السكان في المجتمع الأندلسي
(٣٥-٣٠)	أولاً : المسلمون
٣١-٣٠	١- العرب
٣٢-٣١	٢- البربر
٣٢	٣- الموالى
٣٤-٣٢	٤- المولدون
٣٥-٣٤	٥- الصقالبة

(٣٧-٣٥)	ثانياً : غير المسلمين
٣٦-٣٥	١- العجم أو المستعربون
٣٧-٣٦	٢- اليهود
	الفصل الثاني
(٥٨-٣٨)	عصر الولاة (٩٥-١٣٨هـ)
٤٠-٣٨	- افتتاحية/ قائمة بأسماء الولاة
(٥٨-٤٠)	- الملامح العامة لعصر الولاة
٤٤-٤٠	أولاً : تنظيم البلاد وإصلاحها
٤٦-٤٤	ثانياً : العمل على نشر الإسلام في شبه الجزيرة
	ثالثاً : مواصلة الجهاد في الأندلس والتوسع الإسلامي فيما
٥٣-٤٦	وراء جبال البرتات
٥٢-٤٩	▪ معركة بلاط الشهداء (١١٤هـ)
٥٨-٥٣	رابعاً : الفتن والعصبيات القبلية وأثرها في انحسار المد الإسلامي في شمال الأندلس وخلف جبال البرتات
	الفصل الثالث
(١٠٥-٥٩)	عصر الإمارة الأموية (١٣٨-٣١٦هـ)
٦٠-٥٩	- مدخل للتعريف بهذا العصر
٦٢-٦٠	- دخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس وبداية عصر الإمارة الأموية
(٩٤-٦٣)	- أبرز الأحداث في عصر الإمارة
(٨٤-٦٣)	أولاً : أهم الأحداث الداخلية
٦٤-٦٣	(أ) في عهد الأمير عبد الرحمن الداخل (١٣٨-١٧٢هـ)
٦٦-٦٤	(ب) في عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن (١٧٢-١٨٠م)
٧٣-٦٦	(ج) في عهد الأمير الحكم بن هشام المعروف بالرئيسي (١٨٠-٢٠٦هـ)
٦٨-٦٧	▪ فتنة المولدين في طليطلة (١٨١هـ)
٧٣-٦٩	▪ ثورة الربض بقرطبة (٢٠٢هـ)

(٧٦-٧٣)	(د) فى عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦-٢٣٨هـ)
٧٦-٧٤	▪ فتنة المستعربين بقرطبة
(٨٤-٧٦)	(هـ) أبرز الأحداث فى فترة صراع الإمارة (الفتنة الكبرى)
٨٠-٧٧	([٢٣٨-٣٠٠هـ])
٨٤-٨٠	- أسباب ذبوع الثورات والفتن فى هذه الفترة
(٩٤-٨٤)	▪ حركة عمر بن حفصون (٢٦٥-٣٠٥هـ)
٨٥-٨٤	<u>ثانياً</u> : أبرز الأحداث الخارجية فى عصر الإمارة
(٩٠-٨٥)	(أ) هجوم شارلمان (ملك الدولة الفرنجية) على دولة الإسلام فى الأندلس
٩٠-٨٨	(ب) التصدى للممالك النصرانية الناشئة فى الشمال
٩٤-٩٠	- طبيعة الصراع بين مسلمى الأندلس ونصارى الشمال فى عصر الإمارة
(١٠٥-٩٤)	(ج) غارات النورمانديين على الأندلس (٢٢٩-٢٣٠هـ).
٩٤	<u>ثالثاً</u> : أهم الخصائص والملامح الحضارية العامة لعصر الإمارة
٩٦-٩٥	- التاريخ الإسلامى ليس تاريخاً سياسياً وعسكرياً فقط
١٠١-٩٦	(أ) من الناحية الاجتماعية
١٠٢-١٠١	(ب) النظم والإدارة
١٠٥-١٠٣	(ج) الإنشاء والتعمير
	(د) تطور الحركة العلمية والحياة الثقافية
	<u>الفصل الرابع</u>
(١٤٢-١٠٦)	عصر الخلافة الأموية (٣١٦-٤٢٢هـ)
(١٢٥-١٠٦)	<u>أولاً</u> : فترة عبد الرحمن الناصر وولده المستنصر (٣٠٠-٣٦٦هـ)
(١١٢-١٠٦)	▪ عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ)
١٠٨-١٠٦	(١) التغلب على الاضطرابات الداخلية (توحيد الأندلس)

(١١٢-١٠٨)	(٢) التغلب على الأخطار الخارجية
١١٠-١٠٨	(أ) المملك النصرانية فى الشمال
١١٢-١١٠	(ب) خطر العبيدين (الفاطميين) فى المغرب
(١١٦-١١٢)	■ الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ)
١١٣	(١) السياسة الداخلية
(١١٦-١١٣)	(٢) السياسة الخارجية
١١٥-١١٣	أ - علاقة الحكم المستنصر بالممالك الشمالية
١١٥	ب- خطر النورماندين
١١٦-١١٥	ج- علاقة المستنصر بالشمال الإفريقى (المغرب)
(١٢٥-١١٧)	العصر الذهبى للحكم الإسلامى فى الأندلس (فترة الناصر والمستنصر)
(١٣٣-١٢٥)	- أهم السمات الحضارية التى تتميز بها هذه الفترة
	<u>ثانياً : فترة حكم بنى عامر فى ظل الخلافة الأموية (٣٦٦-٣٩٩هـ)</u>
	■ المنصور بن أبى عامر ينتزع السلطة لنفسه ويصبح
١٢٨-١٢٥	الحاكم الحقيقى للبلاد.
	■ بعض الملامح العامة لسياسة المنصور بن أبى عامر
١٣١-١٢٨	وإنجازاته الحربية والإدارية والعمرانية.
	■ أبناء المنصور بن أبى عامر:
	- عبد الملك (المظفر بالله) وسياسته الداخلية والخارجية
١٣٣-١٣٢	(٣٩٢-٣٩٩هـ).
	■ عبد الرحمن (شانجول) وسقوط دولة بنى عامر
١٣٣	(٣٩٩هـ)
(١٤٢-١٣٤)	<u>ثالثاً : فترة انهيار الخلافة الأموية (الفتنة ٣٩٩-٤٢٢هـ)</u>
١٣٩-١٣٤	- مراحل هذه الفتنة
١٤٢-١٣٩	- الخصائص العامة لفترة الفتنة

	<u>الفصل الخامس</u>
(١٥٢-١٤٣)	عصر ملوك الطوائف (٤٢٢-٤٨٤هـ)
١٤٦-١٤٣	- دول ملوك الطوائف
١٤٩-١٤٦	- علاقة الممالك النصرانية بملوك الطوائف
١٥٢-١٤٩	- الملامح العامة لعصر الطوائف (سياسياً - اجتماعياً - ثقافياً)
	<u>الفصل السادس</u>
(١٦١-١٥٣)	الأندلس في ظل المرابطين (٤٨٤-٥٢٠هـ)
١٥٤-١٥٣	- المرابطون في المغرب
(١٦٠-١٥٤)	- جهاد المرابطين في الأندلس
١٥٩-١٥٦	▪ موقعة الزلاقة (٤٧٩هـ)
١٦١-١٦٠	- نظرة عامة على أوضاع الأندلس في ظل المرابطين
	<u>الفصل السابع</u>
(١٦٧-١٦٢)	الأندلس في ظل الموحدين (٥٣٩-٦٢٠هـ)
١٦٢	- قيام دولة الموحدين في المغرب
(١٦٥-١٦٢)	- جهاد الموحدين في الأندلس
١٦٤-١٦٣	▪ موقعة الأرك (٥٩١هـ)
١٦٤	▪ موقعة العقاب (٦٠٧هـ)
١٦٧-١٦٥	- نظرة عامة على أوضاع الأندلس السياسية والإدارية والعلمية في ظل الموحدين.
	<u>الفصل الثامن</u>
(١٨٠-١٦٨)	مملكة غرناطة (الأندلس الصغرى)
	دولة بني الأحمر (٦٢٩-٨٩٧هـ)
١٦٨	- مدخل
١٦٩-١٦٨	- ابن هود ومحاولة الصمود
١٧٠-١٦٩	- ابن الأحمر وتأسيس مملكة غرناطة
(١٧٣-١٧٠)	- مملكة غرناطة بعد وفاة مؤسسها
١٧١-١٧٠	▪ السلطان محمد الثاني (الفقيه) وأهم المشكلات التي واجهته.

١٧٣-١٧١	- الأوضاع السياسية في مملكة غرناطة في فترة كل من :
١٧٣	١- السلطان أبي الوليد إسماعيل (٧١٣-٧٢٥هـ)
١٧٤-١٧٣	٢- السلطان أبو الحجاج يوسف الأول (٧٢٥-٧٥٥هـ)
١٧٥-١٧٤	- مشيخة الغزاة (من بنى مرين حكام المغرب)
١٧٧-١٧٥	- موقعة (طريف) (٧٤١هـ) وأثرها الخطير على تدهور المملكة
١٧٨-١٧٧	- تدهور مملكة غرناطة
١٨٠-١٧٩	- نهاية مملكة غرناطة وسقوط الدولة الإسلامية بالأندلس
١٨٩-١٨١	- محنة المورسكيين الأندلسيين
١٩٧-١٩٠	- خاتمة: من أسباب سقوط الأندلس
١٩٨	- قائمة بالمصادر والمراجع
	- الفهرست
٥	<u>الخرائط الجغرافية لشبه الجزيرة الإيبيرية</u>
١٨	١- جغرافية الأندلس.
٥٠	٢- معركة وادي لكة وخط سير طارق بن زياد في الفتح.
٧٠	٣- جهاد المسلمين في بلاد غالة (فرنسا) في عصر الولاة.
٨٢	٤- خطط قرطبة.
٨٦	٥- منطقة ثورة عمر بن حفصون.
١٠٩	٦- المملكة الإسبانية النصرانية (في عصر الإمارة).
١٤٨	٧- الممالك الإسبانية النصرانية في عهد الحكم المستنصر والمنصور.
١٥٧	٨- دول الطوائف والممالك الإسبانية النصرانية عقب سقوط طليطلة
١٥٨	(سنة ٤٧٨ هـ).
١٧٦	٩- موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ .
	١٠- الثغر الأعلى (مواقع حرب المرابطين والنصارى حتى سنة ٥٢٨هـ)
	١١- الأندلس بعد الانهيار (مملكة غرناطة والممالك النصرانية الإسبانية
	في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي).

الحمد لله، وصلى الله على محمد وآله وسلم.